صورة الآخر في التراث

نسخة معدّلة ومختصرة

عنوان الكتاب: صورة الآخر في التراث (نسخة معدلة ومختصرة)

تأليف : د. ماجدة حمود

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/184/ آذار 2023

الناشر: اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني: وفاء الساطي

الحقوق كافة

محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

ttp://www.awu.syh

د. ماجدة حمود

صورة الآخر في التراث

نسخة معدّلة ومختصرة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (184)

مقدمة الطبعة الثانية

ثمة كتب تزداد الحاجة إليها مع الزمن، ولعل كتاب "صورة الآخر في التراث العربي" منها، إذ تفاقم سوء التفاهم بين التراث والأجيال، سواء تلك التي تدّعي أنها ابنة التراث، تريد إحياءه، لتعيش على وحيه، أو تلك التي تدعي أنها ابنة الحداثة، فترفضه جملة وتفصيلاً، أو توظّفه، لينطق بهموم عصرنا، ويسهم في بناء إنسان أصيل ومعاصر!

إننا بمقدار ما نشوّه أنفسنا، ونحيد عن نقدها، نزداد تشويهاً للآخر، وبالتالي تشيع بيننا الكراهية والأحقاد والتعصب!

أرى هذا الكتاب إحدى المحاولات، التي تسعى لقراءة الذات، من أجل فهم ملامحها الإيجابية والسلبية! من أجل الارتقاء بها

تمهيد

اشتدت الهجمة على الإسلام ليس من أعدائه فقط، بل من أبنائه، الذين يجهلونه عقيدة وحضارة، فنحن نجهل ذواتنا وما يشكل حضارتنا، كما نجهل الآخر، الذي كان لنا شريكاً في صنع الحضارة الإسلامية!

وبما أن الإنسان عدو لما يجهل، لهذا حاولت في هذا الكتاب أن أسلط الضوء على ما قدمته حضارتنا، عبر أبرز المؤلفات الأدبية، في مجال العلاقات الإنسانية في فترتي السلم والحرب.

آلمني أن نسعى إلى نشوّيه صورتنا بأيدينا، اليوم، فنشوّه عقيدتنا بقدر ما نشوّه ذاتنا! وقد لاحظت أن تشويه (الأنا) اليوم ينعكس سلباً على رؤيتنا للآخر، فنلجأ إلى رسم صورة مشوّهة له بمقدار ما نعظم أنفسنا وننزهها عن الخطأ! لهذا رأيت من الضروري فهم ذواتنا أولاً، ثم فهم الآخر، أي كيف

تبدت الذات العربية الإسلامية في تراثنا! ما هي جوانب ضعفها؟ وما هي جوانب قوتها! وكيف تعاملنا مع الآخر المختلف في العقيدة والعرق والمرتبة الاجتماعية...إلخ

أعتقد أن هذا الكتاب نوع من الحوار مع الذات الذي نحن اليوم أحوج ما نكون إليه، لأن الحوار مع الآخر لا بد أن يسبقه معرفة بالذات أولاً، كي نقف على أرض صلبة في مواجهة سوء الفهم والعداء اللذين هما رفيقا الجهل في أغلب الأحيان!

إن الإرهاب الفكري الذي نمارسه في حق الآخر المختلف، هو إرهاب في حق ذواتنا أيضاً، فنغلق نوافذ الحياة المتجددة، ونرضى أن نعيش في ظلمة الجهل رافضين ثقافة التسامح التي أسست ازدهار حضارة أجدادنا، لهذا بحثت في كتب التراث العربي الإسلامي عما يعزز هذه الثقافة، وذلك من خلال دراسة صورة الآخر فيها.

وقد أدهشني تراثنا الأدبي في انفتاحه على الذات وعلى الآخر، لمست ذلك في لحظات قوته (الجاحظ، ابن قتيبة، أبو حيان التوحيدي) ولحظات ضعفه زمن الصليبيين (أسامة بن منقذ)

تعمدت في هذا الكتاب اختيار كتب أدبية ("البخلاء"، "الإمتاع والمؤانسة"، "عيون الأخبار"، "كتاب الاعتبار"، "ألف ليلة وليلة"...) تحتوي مشاهد قصصية، وملامح من السيرة الذاتية، بدت لي شديدة الصلة بالحياة اليومية، وفية لسياقها الاجتماعي والثقافي، فنحن مدينون لهذه الكتب التي حفظت لنا قصصاً واقعية تتسم بالعفوية والصدق، إذ عايشنا فيها مشاهد التسامح مع الآخر في أكثر الأحيان، وإن كنا قد عايشنا فيها مشاهد التعصب أحياناً!

تطمح هذه الدراسة لصورة الآخر في التراث أن تكون نوعاً من حوار الذات بعيداً عن أوهام المجاملة، علنا نتعلم الموضوعية من أجدادنا، الذين سعوا إلى النظر للآخر المختلف بعين العدل والمحبة، مثلما ينظرون إلى أنفسهم!!

كما سنحاول ألا تكون دراسة علمية تغفل خصوصية الأدب وروحه، لذلك سنلجأ إلى بعض المناهج النقدية التي تدرس اللغة باعتبارها أحد أهم ملامح الصورة، دون أن نغفل الاستفادة من العلوم الإنسانية (علم التاريخ، علم النفس، علم الاجتماع...)

حاولت في هذه الدراسة توسيع مفهوم الآخر، الذي لم يكن الغربي (الصليبي، اليوناني...) بل أيضاً الشرقي

(الهندي، الفارسي...) فقد لاحظت أن كثيراً من الدراسات المقارنة اهتمت بدراسة صورة الآخر الغربي ، وأهملت الآخر الشرقي!

المقدمة

تعريف بمصطلح دراسة الصورة الأدبية (الصورولوجيا)

تعدّ دراسة الصورة الأدبية (أو الصورلوجيا :imagologie) أحد فروع الأدب المقارن، وهي تحتاج مثله إلى أدوات الناقد من معرفة بالعلوم الإنسانية (التاريخ، علم الاجتماع، علم النفس...) والمناهج النقدية الحديثة، كما تحتاج إلى مؤهلات ذاتية كالذوق والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد على تلمس الجمال.

وقد شهد هذا المجال ازدهاراً ملحوظاً في هذه الأيام بسبب رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التعايش السلمي، إذ إنهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة، كي يقاوموا لغة العداء والتعصب! فشاع الاهتمام بصور، تقدّمها الآداب القومية للشعوب الأخرى، تشكّل مصدراً أساسياً من مصادر سوء التفاهم بين الثقافات، أي تقديم صورة غير موضوعية للذات وللآخر في الوقت نفسه، مع أن الذات تدرك نفسها حين

تتعامل مع الآخر، وتشاركه الجهود من أجل التحرر من عراقيل، تمنع من الحياة الإنسانية الكريمة، وهذه غاية اجتماعية، تعزّز ثقافة الانفتاح على الآخر والذات معاً!

ثمة عوائق غالباً ما تكون ثقافية اجتماعية إدارية سياسية اقتصادية ...تمارس قهراً على الذات، وبالتالي تمتنعها من التفاعل مع الآخر، بل قد تصوره مدمِّراً لكينونتها، فيكون رد فعلها تدميراً للآخر أو تشويهاً له.

كما تعدّ الصورة جزءاً من التاريخ بالمعنى الوقائعي والسياسي، أي جزءاً من الخيال الاجتماعي، والفضاء الثقافي أو الأيديولوجي الذي تقع ضمنه، فنتعرّف على الهوية القومية، كما نتعرّف من خلال نظرتها للآخر متى تقف مواجهة له؟ هل للاعتقاد الديني والمواقف السياسية والاقتصادية دور في العداء؟ هل تعاليم الدين هي المسؤولة عن هذا العداء أم تسييّس الدين؟ متى يكون الآخر مناقضا للأنا، ومتى يكون نداً مكملاً لها؟

ونحن اليوم أحوج ما نكون لدراسة الصورة الأدبية التي شكلها التراث للآخر، وفي الوقت نفسه دراسة الصورة التي رسمها الأدب الحديث للآخر، دون أن نغفل عن دراسة صورة الأنا في أدب الآخر!

أعتقد أننا أحوج ما نكون إلى توسيع مصطلح الآخر، ليس فقط على الصعيد المكاني (شرق وغرب) بل على الصعيد الإنساني (امرأة، عبد) أيضاً! كما أن الصورة لغة، ذات طابع خاص مستمد من إحساس الأديب وثقافته وتجاربه الحياتية والثقافية! لهذا لن تخضع نمطية، تشوّهها! وتجمدها في نظرة ثنائية! تعلي شأن الذات، وتستهين بالآخر المخالف في الانتماء الديني أو العرقي أو الاجتماعي...إلخ!!! فتبدو الصورة أقرب إلى الجمود والثبات بعيدة عن الحيوية في أغلب الأحيان!!

إذاً لن ينقذ الصورة من النمطية المشوهة إلا الاهتمام بالمعرفة، بصفتها أهم وسيلة لكشف أوهامنا عن ذواتنا وظلمنا للآخر! وكذلك الإصغاء إلى حقيقة الإنسان المتفردة والمتجددة، كل ذلك يطلق الصورة من إسار التقليد والرتابة! إذ تقدّم بلغة موضوعية بعيدة عن التشويه السلبي للذات أو للآخر! فتسود ثقافة التسامح، التي توحي للمتلقي بنضج فكري ومعرفي، يقوم على التأمل والتمثل لثقافة الآخر! لا استيرادها وتقليدها، وبالتالي يحتاج إلى حوار دائم بين الذات والآخر بعيداً عن العقد النفسية (الهوس بالذات أو الآخر، أو الرُّهاب).

صورة الآخر في "كتاب البخلاء" للجاحظ

ولد159 هـ، وتوفي حوالي 200هـ

بدأ تعليمه في كتاتيب البصرة حيث كان يحفظ القرآن الكريم وشيئاً من الأشعار والنحو والفقه، ثم مضى إلى المساجد يستمع إلى حلقات العلماء الذين كانوا يحاضرون في كل فن وعلم.

ورغم أنه كان فقيراً يبيع الخبز والسمك بسيحان (أحد نهيرات البصرة) إلا أنه كان نهما في قراءة الكتب حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر والقراءة، ولم يقع بيده كتاب قط إلا قرأه مهما كان موضوعه !

شغف بالاعتزال، فتتلمذ على يد أساتذة المعتزلة أمثال أبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام، الذي كان يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة، مما دفع الجاحظ للتزود من منابعها الأصلية، وقد شكل أساتذته مثلاً أعلى له في الثقافة

الموسوعية التي هي سمة من سمات العصر العباسي، فكانً لجميع ثقافات عصره جميعها! وقد دفعه تميّزه هذا إلى إنشاء فرقة معتزلية، دُعيت بـ(الجاحظية)

تعرّف في بغداد على البيئة الأدبية والعلمية في المساجد وحلقات الدرس والمناظرة، وحين تحولت الخلافة إلى (سامراء) في عهد المعتصم انتقل إليها الجاحظ.

بدت كتبه ثمرة للنضج العقلي الذي شاع في العصر العباسي، خاصة الجهود العقلية للمعتزلة، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث توليد المعاني؛ مما أثّر إيجابياً على رسمه صورة للآخر.

ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألم به مبكرا، لكنه لم يستطع أن يقعده عن الحركة أو الكتابة، فقد كتب أثناء المرض أهم كتبه: "الحيوان" و"البخلاء" و"البيان والتبيين" و"الزرع والنخيل"(1)

كتاب البخلاء:

ذكر في إحدى قصص "البخلاء" التي كان هو أحد أبطالها ما يوضح أنه كتبه بعد إصابته بالفالج، فقد دعاه أحد البخلاء (محفوظ النقاش) للمبيت عنده، بعد هطول

المطر، بسبب قرب منزله من الجامع، فجاءه بطبق لبن وتمر، فلما مدّ يده الجاحظ قال له: "يا أبا عثمان إنه لبأ وغِلُظه! وهو الليل وركوده! ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً، ومازال الغليل يسرع إليك، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء"(2)

يعدّ كتاب البخلاء أحد الكتب التراثية الهامة التي استطاعت أن تجسد لنا العصر العباسي بكل حيويته، فتنقل لنا الحياة الاجتماعية بكل تفاصيلها وتفاعلاتها، كما استطاعت أن تنقل لنا الحياة الثقافية بكل إشعاعاتها ورحابتها المدهشة، فظهر امتزاج الثقافات والمجتمعات بأجلى صورة.

يحس المرء مع سرد البخلاء أنه أمام "ممكنات جديدة كانت خفية في فهم التاريخ...لأن النصوص لا توجد في فراغ مكتفية بعزلتها الرائعة عن السياقات الاجتماعية والتاريخية، وليس التراث نفسه بالنصب الفخم القائم فيما وراء الزمان والمكان، بل هو كما أكد بول ريكور، بناء سردي يتطلب عملية إعادة تأويل مفتوحة النهاية، وبالتالي فإن معاينة التراث تعني أيضاً معاينة الوعي، بمعنى التمييز النقدي بين التأويلات المتصارعة"(3)

إننا نرى في هذا الكتاب صورة مجتمع، بدأ يعيش قيم حياة جديدة، ويرفض قيم البداوة التي ترى في صفة الكرم ضرورة حياتية في الصحراء، في حين بات الاقتصاد جزءاً حيوياً من حياة مدنية أكثر تعقيداً، لا بد أن يحسب الإنسان حساباً للزمن ومصائبه، فجسّد لنا الجاحظ اضطراب القيم في ذلك العصر (بين الصحراء والحضر) أي بين بداوة ارتحلت في تفاصيلها المعيشية، لكنها بدت راسخة القيم في المدن الحديثة، لهذا يعيش فيها الكثير من الهامشيين والطفيليين الذين يستغلون تلك القيم البدوية، ليعيشوا عالة على موائد الناس، كما يجسد لنا اضطراب هذه القيم في أعماق النفس، فيتصارع فيها الكرم والبخل.

أما أن تكون الأسباب التي دفعت الجاحظ لتأليف الكتاب أسباب شخصية (بخله) كما يرى محققا الكتاب (أحمد العوامري وعلي الجارم) فهو يسخر من البخلاء لكونه "بخيلاً لأن الولوع بالشيء يحبب إلى النفس التحدث عن والإفاضة فيه، لأن من عُرف الجاحظ، ومن أبرع صفاته أن يستر ما يحب أحياناً بإعلان ما لا يحب أحياناً..."(4) إذ وصف ما يعايشه، هنا لابد أن نتساءل: هل كان الجاحظ لصاً؛ لذلك ألف كتاباً في حيل اللصوص؟

إن مثل هذا القول ينفي المقدرة الإبداعية لدى الأديب، التي تقوم على الخيال، ويحول كتاب البخلاء إلى نوع من السيرة الذاتية للجاحظ؛ وبذلك نتناسى روحه الإبداعية، وسعة ثقافته وانتماءه للمعتزلة؛ مما مكّنه من تقديم وجهات نظر متعددة للموضوع الواحد، كما كتب هذا الكتاب في أواخر عمره، بعد أن اكتملت تجربته الحياتية ونضجت ثقافته، وبعد أن استوعب تجارب الآخرين، التي عايشها أو سمع عنها، حتى باتت جزءاً حيوياً من شخصيته الأدبية التي تتبع النادرة أينما كانت، لتقدم المغزى والمتعة، فتمتع القلب والعقل معاً!

قبل أن نتحدث عن صورة الفرس في بخلاء الجاحظ، يحسن بنا أن نتعرف على مفهوم البخل لدى الجاحظ، ومن ثم نتعرف على سمات منهجه في تقديم صورة البخلاء بصورة عامة.

مفهوم البخل لدى الجاحظ ومنهجه في تصوير البخلاء:

لا شك أن مفهوم البخل لدى لجاحظ جزء من مفهوم عصره، فهو ابنه، الذي تميّز بقدرته الفنية، التي ترسم دقائقه الإنسانية بكل تشابكاتها الاجتماعية والدينية ...إلخ لهذا يوضّح في فاتحة الكتاب أنه سيختصر قصص البخلاء ونوادرهم **"كي يصير الكتاب أقصر والعار فيه أقل"**

إذاً البخل صفة منبوذة، تجلب العار للإنسان وللكتاب أيضاً! لكن الجاحظ المعتزلي، يتناول مفهوم البخل برؤية علمية، فيرفض التعميم، فينظر إلى ظروف الإنسان المعيشية، **فـ"أهل المازح (قرية قرب الرقة) لا يعرفون بالبخل، ولكنهم أسوأ الناس حالاً فتقديرهم على قدر عيشهم، وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر، وبين خصيب البلاد وعيش أهل الجدب، أما من يضيق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق، فليس سبيله سبيل القوم"(5)**

إنه مفهوم موضوعي للبخل، فيخص الأغنياء به دون الفقراء، وسكان الأراضي الخصبة لا المجدبة، فيعذر من يعيش في بيئة فقيرة.

كما يتبنى قصصاً، أقرب إلى الواقعية، فإذا ابتعدت عن المنطقية، نقدها (فمثلاً حين يمسح أحد البخلاء خبزه بقطعة الجبن، ثم جاء ابنه ليضع قطعة الجبن بعيداً، ويشير إليها باللقمة من بعيد) قائلا: **"لا يعجبني هذا...لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله حجة أو طريقة، فأما مثل هذا الحرف (أي الإشارة إلى اللقمة) فليس مما نذكره."(6)**

إنـه يمتلـك حـس الكـاتـب الـواقعي، الـذي لا يسـعى إلى المبالغة والابتعاد عن المعقول من القصص، وإنما يقـدّم للمتلقـي مـا حـدث فعـلاً ومـا يمكـن أن يحـدث، فهـو يلجـأ إلى أسـاليب أخرى أكثر فنية لجذبه.

يلاحظ المتتبع لقصص بخـلاء الجـاحظ التنـوع في أسـلوب تقـديمها بـين القصـة القصـيرة (بـالمفهوم المعاصـر) والنـادرة والفائـدة اللغويـة والشـعرية، كمـا يلاحـظ وجـود قصـص لا يمكـن أن نعـدّها قصصـاً عـن البخـل حسـب مفـاهيم عصـرنا الحـديث، ممـا انعكـس علـى السـمات الشخصـية لـبخلاء الجـاحظ وسـلوكهم، فتميّـزوا أحيانـاً بسـمات محببـة، لـذا لا نسـتطيع أن نلحـق بهـم دلالات مكروهـة لهـذه الصـفة وفـق مفاهيمنـا اليـوم، نظـراً لتصـرفاتهم الـتي لا تـدل علـى البخـل والأنانيـة دائمـاً (فالبخيـل لـدى الجـاحظ يقيم الـولائم في بيتـه، يقـدم هـدايا، وهـو صـاحب أنفـة وكبريـاء يـرفض أن يسـتعيد مالـه، حين يحاول أحدهم إهانته ...)

طبعا ستكون لدى الجاحظ مبررات من أجل وضعهم في خانة البخلاء (كأن يشترط على ضيوفه بعض الشروط التي يراها من آداب الطعام وهي بالتالي في صالح الضيوف، أو لا يهتم بنظافته كي لا تبلى ثيابه، أو يكثر الحديث عن هدية

قدّمها، حتى نجده يؤرخ الأحداث بيوم تقديمها) وهنا لا ننكر دور خيال الجاحظ في إسباغ حس الفكاهة والمرح على الحدث.

قدّم الجاحظ لنا نوادر لا نستطيع أن نعدها قصص بخلاء، وإنما هي قصص تراثية، تدل على الفطنة والذكاء، كقصة وال كان بفارس، مدحه أحد الشعراء، فأجزل له العطاء (أربعين ألف درهم) فأقبل عليه كاتبه قائلا: يا سبحان الله كان يرضى منك بأربعين درهماً!... قال ويلك! أ تريد أن تعطيه شيئاً؟ قال: أمن إنفاذ أمرك بد؟ قال: يا أحمق، إنما هذا الرجل سرّنا بكلام وسررناه بكلام! ... فأما أن يكون كذب بصدق، وقول بفعل، فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به!!(7)

إننا أمام محاكمة عقلية تلخص لنا أن الجزاء يجب أن يكون من جنس القول أو الفعل، وليس من المنطق أن يجازى على كلام بمال وإنما بكلام مثله، فهل نستطيع أن نعد هذه النادرة قصة في البخل أم قصة في حسن التصرف؟

وقد نجد قصصاً أقرب إلى النادرة التي قد لا تكون ذات علاقة بالبخل، إذ تحكي عن أحد الأكولين (يدعى السديري) الذي يلتقيه في الطريق بخيل (محمد بن أبي المؤمل)

فيدعوه ليأكل معه سمكة اشتراها بثمن باهظ، فلم يترك له الأكول شيئاً يأكله.

إن البخيل هنا يبدو كريما ومظلوماً نتعاطف معه، فقد قضى طفيلي على حلمه بأكل جزء من السمكة اشتراها، ومثل هذه القصة لا يمكن أن نعدها قصة بخيل، وإنما نادرة تدل على وقاحة الطفيليين في ذلك العصر، لذلك بات البخل مع أمثال هؤلاء أمراً مستحباً.

لهذا لاحظنا أن بعض البخلاء لا يخجل من صفة البخل، بل صار يرغب في إعلانها، حتى إنهم يؤلفون ما يشبه الجمعية اليوم، ليدافعوا عن وجهة نظرهم وينشروها على الملأ دون أي حرج، وبذلك يتمردون على قيم تفتخر بها العرب، لكن ما جنسية هؤلاء؟

صورة الفرس في كتاب البخلاء:

عرف الجاحظ (في كتابه البيان والتبيين) بدفاعه عن العرب في وجه الشعوبية، التي هي حركة تعتز بالتراث الساساني، وتدعو إلى إحياء جوانب منه وترفع شعار أفضلية الأمم الأخرى على العرب، مما يجعلها تميل للزندقة، كل ذلك من أجل أن ترد على النزعة العربية التي ترى "أن العرب

خير الأمم" وهكذا أورث التعصب العربي أيام الأمويين تعصب الأمم التي دخلت في الإسلام حديثاً، لذلك انتقل الجدل لدى الشعوبية "من دعوة سليمة إلى المساواة بين الشعوب إلى الهجوم على السلطة القائمة وعلى الثقافة العربية الإسلامية"(8).

يتصور المرء حين يرى الجاحظ مدافعاً عن العرب ومهاجماً الحركة الشعوبية، أن صورة الفرس في أدبه ستكون صورة مشوّهة، يخصها بدلالات سلبية، في حين يخص العرب بدلالات إيجابية، لكن الجاحظ شأنه شأن كل أديب عظيم، أبعد ما يكون عن التعصب والعنصرية، إذ كان كما يقول د. الطاهر مكي "يقاتل الشعوبية اتجاهاً سياسياً، لكنه لم يكن معادياً للثقافات الأجنبية، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بالتعصب أو بقصر النظر أو بضيق الأفق"(9)

وكي لا نغرق في كلام نظري لا بد أن نبرز شواهد تطبيقية على انفتاحه الفكري، فهو حين تحدث عن الأمم التي تمتلك الأخلاق والآداب والحكم والعلم لم يخص العرب وإنما ذكر إلى جانبهم الفرس والهند والروم.

من جهة أخرى لاحظنا في سيرته الذاتية التي أوجزناها قبل قليل، أنه أهدى أحد كتبه لكاتب غير عربي (هو إبراهيم بن العباس الصولي)

وكي لا يقول قائل إن هذا كلام عام لا علاقة له بالواقع المعيش! نورد ما جاء في كتاب الجاحظ (البخلاء) الموضع الوحيد الذي ذكرت فيه الشعوبية (الجزء الثاني ص 202_203) لنحلل الصفات الملحقة بهم هل كانت سلبية بالمطلق أم صدرت عن كاتب موضوعي ينقل لنا الحقيقة بأمانة، يقول "**والشعوبية والآزادمردية (فرقة شعوبية تدعى الرجالَ الأحرارَ) المبغضين لآل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام ... وهم أحسن الأمم حالاً مع الغيث، وأسوؤهم حالاً إذا خفّت السحاب، حتى إذا طبّق الغيث الأرض بالكلأ والماء، فعند ذلك يقول المصرم (السيئ الحال الكثير العيال) والمقتر: مرعى ولا أكولة وعشب ولا بعير...**"

ألا نلاحظ وصفا يتسم بالموضوعية إذ أبعد عنهم تهمة البخل، ورأى حالهم كحال غيرهم من الناس، يعيشون في أيام الخصب حياة مرفهة كريمة، ثم في ضيق من العيش أيام الجفاف، لذلك لا نستطيع أن نسمهم بالبخل فحالهم كحال القرية العربية (المازح) التي تحدثنا عنها سابقاً.

إن تعاطفه الإنساني واضح مع هؤلاء الذين كان على خلاف فكري معهم، وجادلهم طويلاً في كتابه (البيان

والتبيين) لهذا استطاع أن ينقل لنا ما يجول في أعماقهم من أسى بعد هطول المطر، إثر جفاف قضى على ماشيتهم، فيتحسرون قائلين (مرعى ولا أكولة، وعشب ولا بعير)

دلالة الاسم والصفة:

رغم أن الجاحظ لم يعد البخل سبة تشين صاحبها، فقد لاحظنا أنه مازال محكوماً بالموروث من القيم، ففي مقدمة الكتاب وجدناه يصف البخل بـ(**العار**) الذي يلحق بصاحبه وبالكتاب أيضاً، ثم يلمح إلى أن من عيوب كتابه، أنه أهمل كثيراً من القصص، حتى لا يحرج بذكر أسماء أصحابها وبينهم الصديق والولي والمستور والمتجمل، إذ تبدو لنا قصص البخل متداولة في عصره مع أسماء أصحابها، فإذا أثبتها الجاحظ في كتابه دون ذكر الاسم فسرعان ما يتراءى للقارئ الاسم لأنه رديف القصة، فيبدو المؤلف متجنياً عليهم، قد ارتكب إثماً في حق الصديق، لذا أغفل الاسم خوفاً على سمعة أصدقائه تارة وخوفاً على نفسه حين يكون البخيل من أصحاب السلطة.

لكن هناك أحاديث في رأي الجاحظ لا بد من ذكر أسماء فيها فـ"ليس يتوفر حسنها إلا بأن نعرف أهلها" وهو يعترف بإعمال خياله وكتابة أحاديث مختلقة لكنها "مضافة

إلى أربابها، وأحاديث غير مضافة إلى أربابها" دون أن يؤدي به ذلك إلى إيذاء أصدقائه أو نفسه.

لكنه أحياناً يسمي اسم صديقه "إذا كان مما يمازح بهذا، ورأيناه يتظرف ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه، قال الجاحظ لرجل يدعى عبد الله **قد رضيت بأن يقال: عبد الله البخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم! قلت: وكيف؟ قال: لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلّم لي مالي وادعني بما شئت! قلت ولا يقال: فلان سخي إلا وهو ذو مال، فقد جمع الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم، فقد أخذت أخسهما وأوضعهما.**

قال: وبينهما فرق. قلت: فهاته .قال في قولهم بخيل: تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي: إخبار عن خروج المال من ملكه، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم السخي فيه تضييع وحمد"(10)

تحولت صفة (البخيل) إلى لقب لعبد الله يفتخر به، ويدافع عنه بحماسة، لنلاحظ الدلالة الموحية لاسم (عبد) فالبخيل لا يأنف أن يكون عبداً للبخل، كما هو عبد لله تعالى! يخترع نظرية في البخل ويدافع عنها بإبعاد الدلالات السلبية وذكر الدلالات الإيجابية، ليجد العزاء فيها والمفخرة،

وهو في المقابل يهدم صرح الكرم بتركيزه على الدلالات السلبية وإهماله الإيجابية، وبذلك يصبح البخيل صاحب مذهب في الحياة وفي الفكر أيضاً.

ومع ذلك كان الجاحظ يجد حرجاً في ذكر أسماء أصدقائه، فحين ذكر اسم صديقه أحمد بن خلف اليزيدي يخاف أن يسيء المتلقي الظن بأخلاقه **"ولا تقولوا الآن: قد أساء أبو عثمان إلى صديقه...وغير مأمون على جليسه...اعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث إلا موافقته وطلب رضاه ومحبته، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيساً من قبله وكميناً من كمائنه، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغهم قولا في إياس الناس من قبله، وأجودهم حسماً لأسباب الطمع في ماله"(11)**

إذاً بات البخيل، في العصر العباسي، بحاجة إلى وسيلة إعلامية (بلغة عصرنا) تعلن عن بخله، ولذلك فإن الجاحظ يؤدي لصديقه خدمة، تقوم بها اليوم وسائل الإعلام الحديثة، فيشهر صفة البخل التي تلازمه عبر أدبه، فيبتعد عنه الطامعون بماله، وبذلك يصبح الحديث عن بخل صاحبه من باب الوفاء بالأصدقاء لا الغدر بهم.

وقد تحولت قصة أخرى لأحد بخلاء الجاحظ إلى ما يشبه المشهد المسرحي " **كنا مرة في موضع حشمة، وفي جماعة كثيرة، والقوم سكوت، والمجلس كبير، وهو بعيد عني (صديقه البخيل: الحزامي) أقبل علي المكي وقال، والقوم يسمعون، فقال: يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا؟ قلت: أبو هذيل، قال ثم من؟ قلت: صاحب لنا لا أسميه. قال الحزامي من بعيد: إنما يعنيني!**

ثم قال: حسدتم للمقتصدين تدبيرهم، ونماء أموالهم، ودوام نعمتهم، فالتمستم تهجينهم بهذا اللقب، وأدخلتم المكر بهذا النبر، تظلمون المتلف لماله باسم الجود، إدارة له عن شينه، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل حسداً منكم لنعمته، فلا المفسد ينجو، ولا المصلح يسلم"(12)

إننا أمام مشهد مسرحي، أخرجه الجاحظ بعد أن زوّده بتفاصيل تشمل المكان وتصفه (مجلس حشمة) وتصف الجمهور المتلقي للحدث (جماعة كبيرة من الحضور في حالة سكوت) ثم الحوار الذي يعتمد المفاجأة الدرامية، حين أعلن البخيل عن نفسه وفاجأ الراوي والحضور بافتخاره بالبخل، أي بما هو مستهجن لدى الناس عامة!!

إذاً يمتلك بخيل الجاحظ، سواء أكان عربياً أم أعجمياً، سمات تجعله شخصية جذابة، رغم أن البخل مرفوض من عامة الناس بغض النظر عن انتمائهم العرقي أو الديني، لكن الجاحظ بأسلوبه الفني وانفتاحه الفكري جعل منها شخصيات غير نمطية، تمتلك رؤية فكرية ومذهباً في الحياة، تدافع عنه، كما تمتلك سمات نفسية لا يمكن أن نتخيل اجتماعها في شخصية بخيل، إذ تلتقي فيها المتناقضات، فصديقه (الحزامي) يصفه بأنه **"أبخل من برأ الله وأطيب من برأ الله"** فالنفس الطيبة لا يمكن أن نتخيلها بخيلة، لأن سمة المنع تتصل بسمة اللؤم لا بالطيبة والسماحة، لكن شخصيات الجاحظ تتجاوز المألوف، فتلج عالم الفن والإدهاش.

لو تأملنا صفة البخل التي لحقت بالشخصية لوجدناها لم تسيء إلى ملامحها، بل كثيراً ما أكسبتها جاذبية، فقد منحها الجاحظ بعداً فلسفياً وجمالياً يمتع المتلقي، فلا تبدو لنا هذه الشخصية مبعث استهجانه أو نفوره، كما لاحظنا في صورة بخيل موليير الذي تمتع بخيله بصورة منفرة، إذ اجتمع الجهل لديه بكل الرذائل.

والآن لا بد أن نتساءل أي الأسماء أكثر وروداً في قصص البخل لدى الجاحظ؟

لاحظت بعد إجراء إحصائية لأبطال قصصه البخلاء أنهم بلغوا حوالي أربعين بخيلا من العرب والفرس، منهم عشرة بخلاء من الفرس وثلاثين من العرب.

أما الأستاذ أحمد بن محمد أمبيريك فقد أجرى إحصاء، من نوع آخر، فقد أحصى جميع أسماء الأعلام الواردة في البخلاء، بغض النظر عن قصص البخل، فلاحظ أن الأصمعي قد احتل "المرتبة الثالثة في نسبة الورود في الكتاب، وذلك بعد النبي (ص) وعمر بن الخطاب، كما احتل سهل بن هارون الدرجة الرابعة..."(13) كما لاحظ ورود لفظ الجلالة لديه أكثر من أي اسم علم.

وهذا دليل على استغلال الخطاب الديني الإسلامي من قبل البخلاء، وبذلك يعلن الجاحظ انتماء بخلائه إلى المجتمع الإسلامي فلا يصمهم بالكفر، حين خرجوا عن عادات المجتمع السائدة وقيمه العليا، وهذا دليل على تفتح فكر المؤلف، كذلك نلاحظ موضوعيته فالعربي (الأصمعي) قد يذكر لديه في باب البخل أكثر من الفارسي (سهل به هارون)

إذاً يمكننا القول بأن ذكر الجاحظ لأسماء البخلاء ليس من باب التشهير أو تشويه صورة أمة دون أخرى، وإنما رصد لظاهرة اجتماعية باتت منتشرة في عصره، وتقديمها بأسلوب يجمع المتعة والفائدة.

وقد لاحظنا أن الجاحظ قلما يكون راوياً للقصة وبطلاً مشاركاً في أحداثها، فهو في أكثر الأحيان يتخذ صفة الراوي المحايد الذي ينقل عن الآخرين أحداث قصته، فنجده يمهد لها بقوله "قال أصحابنا" "حدثني عمرو بن نهيوي" "حدثتني امرأة تعرف الأمور"...إلخ

وبذلك يوحي للمتلقي بحياديته العَامة، فهو يجمع القصص والنوادر من ألسنة الرواة الآخرين الذين سمعوها أو شهدوها بأنفسهم، أو كانوا أحد أبطالها، فيضفي المصداقية الواقعية على قصصه؛ لهذا سلّط الضوء على شخصيات واقعية فارسية على المستوى الفردي، مثل:

سهل بن هارون:

وصفه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وصفاً رائعاً، يشكل ملامح شخصية جذّابة من الناحية الأخلاقية والثقافية **"كان سهل سهلٌ في نفسه عتيق (جميل) الوجه، حسن الإشارة، بعيداً عن الفدامة (العي) تقضي له بالحكمة قبل**

الخبرة وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل التكشف".

يلاحظ أن هذه الصفات، وردت في كتاب، خصصه للبلاغة العربية وأبرز ممثليها، كما خصصه للدفاع عن العرب ضد الشعوبية، لذلك لا نستطيع أن نقول إن الجاحظ حين تحدث عن بخل ابن هارون كان متحاملاً عليه، فقد ذكره إلى جانب العرب الذين اتصفوا بالبخل وبالبلاغة، وبذلك نلمس لديه امتزاج العرب بالأمم الأخرى تحت راية الثقافة العربية الإسلامية، ولم يكن هذا الامتزاج ظاهرياً، وإنما اتصل بأعماق النفس الإنسانية فتجلى عبر أدب جديد ينتمي لروح الإسلام، وهذا ما نجده في رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه من آل رهبون (حين ذمّوا بخله، وردّوا عليه) يستشهد فيها بأحاديث الرسول (ص) وبأقوال الخلفاء والتابعين الذين عرفوا بالتقشف والزهد (عمر بن الخطاب، والإمام علي بن أبي طالب، الحسن البصري...) كما وجدناه يستعين بأقوال حكماء العرب ليؤكد أفكاره في ضرورة الحكمة في صرف المال (أمثال: الأحنف بن قيس...)

في المقابل نجد بين العرب في "كتاب البخلاء" من يردد (مثل أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي) قول

سهل بن هارون في ضرورة أن يأخذ المرء الحيطة من مصائب الزمان، فـ"**يجعل ما فضل عن قوام الأبدان، ردءاً دون صروف الزمان...**" مما يؤكد أن الفرس، باتوا يشكلون جزءاً حيوياً من الثقافة العربية الإسلامية، وبذلك عايشنا علاقات حضارية بين العرب والفرس، خاصة حين تُتخذ تعاليم الإسلام هادياً لها، أما حين تترك تعاليمه السمحة، فإنها تغرق في التعصب العرقي والفكري، الذي يعلي شأن الذات، ويرفض الآخر (كما حصل لدى الشعوبية والدولة الأموية) لهذا وضع الجاحظ الرؤية الموضوعية نصب عينيه، فتحدث عن ثقافة الفرس، الذين دخلوا الإسلام، وأساليب عيشهم، فلم يسبغ صفة البخل عليهم جميعاً (آل رهبون) في حين حدّثنا عن جماعة أخرى من الفرس، عُرفت بالبخل!

أهل خراسان وغيرهم:

التزم الجاحظ طريقة الراوي المحايد في أغلب قصصه، لذلك حين بدأ كتابه بأهل خراسان، بيّن لنا سبب تناوله لهم "**لإكثار الناس في (الحديث عن) أهل خراسان، ونخصّ بذلك أهل مرو ...**"

وهو حين خصص أهل خراسان، بالحديث لم نجده يلتزم بهذا، على عادته في الاستطراد، فتحدث عن الكندي (وهو

فيلسوف عربي معاصر للجاحظ) وقد انتبه لخروجه عن المنهج، قال: "**وليس هذا الحديث لأهل مرو، ولكنه من شكل الحديث الأول**" إذ يشترك الكندي ذو النسب العريق والمكانة الاجتماعية المرموقة مع أهل مرو في صفة البخل نفسها.

هذه الرؤية المتوازنة لم يكشفها لنا أسلوب الجاحظ في الاستطراد فقط، وإنما طريقته الممتعة في تصوير شخصية البخيل، التي بدت في كثير من الأحيان تماثله ثقافة وعلماً، فيتماهى صوت البطل مع الجاحظ: "**كان معنا في السفينة رجل من أهل خراسان، وكان من عقلائهم وفهمائهم، وكان يأكل وحده، فقلت له: لِمَ تأكل وحدك؟ قال: ليس علي في هذا الموضع مسألة، وإنما المسألة على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلّف، وأكلي وحدي هو الأصل**"(14)

يجسد لنا بخيل الجاحظ صورة لثقافة العصر العباسي، التي تعتمد الجدال العقلي (ثقافة المعتزلة) فيحول قضية يومية بسيطة (الأكل وحده) إلى مسألة إشكالية يدافع عنها بالمنطق!

كذلك تتجلى في حياة البخيل الثقافة الإسلامية فتترك أثرها على علاقاته، فالبخيل ذو الثقافة الدينية، يتجاوز ما

تعارف عليه البخلاء (تجنب دعوة الناس إلى مائدته) التماسا لثواب الله تعالى "**وقال المكي لبعض من كان يتعشى ويفطر عند الباسياني: ويحكم! كيف تسيغون طعامه، وأنتم تسمعونه يقول: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) (سورة الدهر آية: 9) ثم ترونه لا يقولها إلا وأنتم على العشاء، ولا يقرأ غير هذه الآية...**"

بالإضافة إلى الثقافة الدينية تتجلى في هذا المقطع روح الجاحظ المرحة، إذ لم يكتفِ بذكر الآية الكريمة، بل يحدد زمان قولها (أثناء العشاء، وكيفية قولها: لا يقرأ آية سواها)

وقد لخّص سمات هذه الشخصية البخيلة وعلاقتها التجارية، أحياناً، بالدين، أثناء حديثه عن ابن امرأة فارسية (أم فيلويه) يصفها بالصلاح، ويصف ابنها أنه **يظهر النسك ويَدين البخل**".

تحوّل الدين إلى طقس اجتماعي، لا علاقة له بالإيمان الحقيقي (بر الوالدين) فقد سُئلت أم فيلويه: كيف يبرّها ابنها؟ فأجابت: "**كان يجري علي في كل أضحى درهماً!! فقالت وقد قطعه أيضاً! فسألتها المرأة مستغربة: ما كان يجري عليك إلا درهماً؟ ما كان يجري علي إلا ذاك، وربما**

أدخل أضحى في أضحى! فقالت: يا أم فيلويه، وكيف يُدخل أضحى في أضحى؟ قد يقول الناس: إن فلاناً أدخل شهراً في شهر، ويوماً في يوم، فأما أضحى في أضحى، فهذا شيء لا يشركه فيه أحد!"(15)

يفضح الجاحظ، هنا، فئة تشوّه الدين، حين تدين بالبخل، ولا تعرف غيره، لذلك يبرّ (فيلويه) أمه بدرهم سنة، وينساها سنة (فيدخل أضحى في أضحى) فهو على نقيض الناس، الذين يدخلون المتتابع من الأيام لا السنين!! وبذلك أحاطت بشخصية البخيل دلالات سلبية، فهي تتاجر بالقيم الدينية، إذ لم يتجلَّ في عمله وأخلاقه، فبدا عاقاً لأمه، مفضلاً الدرهم على رضى ربه!

لكن الجاحظ في قصة أخرى أبرز أثر القيم الدينية على البنية الداخلية للشخصية، فانعكست عبر صفات إيجابية بدت في سلوك الشخصية وتعاملها مع الناس " **كان على ريع الشاذروان شيخ من أهل خراسان**" موظف من قبل الوالي، وكان "**بعيداً عن الفساد، وعن الرّشا، ومن الحكم بالهوى...كان لا يأكل إلا ما لا بد منه، ولا يشرب إلا ما لا بد منه**"

جمعت هذه الشخصية بين الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الدين (تجلّت في أمانته مع الناس) وبين أخلاق البخلاء (انعكست على حياته اليومية) التي لم يصل ضررها إلى أحد سواه، لذلك تفرض هذه الشخصية احترامها علينا رغم صفة البخل، فنتعاطف معها، إذ قد لا تكون مسؤولة عن هذه الصفة، إذ ترثها من أهلها وبيئتها، لهذا وجدنا الجاحظ يلتمس للخراسانيين العذر في بخلهم، فقد بات جزءاً من تكوينهم النفسي وتربيتهم، مما ترك أثراً ليس فقط على حياتهم اليومية، وإنما على حياة حيواناتهم، وقد وضح لنا الجاحظ هذا **"وقال ثمامة: لم أر الديك في بلد قط إلا وهو لاقط يأخذ الحب بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب! فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء فمن ثم عمّ جميع حيواتهم"(16)**

بفضل المبالغة التي ظهرت في هذه القصة أشاع الجاحظ جو المرح، فعدوى البخل في مرو وصلت حداً غير معقول، فانتقلت إلى عادات الحيوان.

وقد لمحنا أيضاً رؤية علمية تبحث في سبب البخل لدى أهالي مرو، إذ يردّه الجاحظ إلى البيئة، التي تركت أثرها

على الإنسان والحيوان (طبع البلاد، جواهر الماء) وبذلك يوحي للمتلقي بعدم مسؤوليتهم عن بخلهم، إذ حتى أطفالهم يولدون على هذه الفطرة!

خصوصية العلاقة العربية الفارسية في كتاب "البخلاء"

أظهر لنا "كتاب البخلاء" تمازج العرب والفرس بشكل مدهش في العصر العباسي، على كافة المستويات (الاجتماعية والثقافية ...) حتى ليمكننا القول بأن هؤلاء أكثر الأمم اختلاطاً بالعرب، مما يجعلنا نؤكد مع الأستاذ أحمد لواساني **ما عرف "تاريخ الإنسانية أمتين مختلفتين اختلاف العرب والإيرانيين في العرق والفكر والبيئة واللسان، ومع ذلك ...فقد كان تلاقيهما السياسي والاجتماعي ثم الفكري الحضاري أكثر غنى من أية أمتين أخريين..."(17)**

وقد رأينا مصداقا لهذا القول (سهل بن هارون) إذ لاحظنا أن الفرس باتوا يشكلون لبنة أساسية من لبنات الحضارة العربية الإسلامية، وجزءاً حيوياً من المجتمع العباسي!

لكننا لا نستطيع أن ننفي وجود سوء تفاهم ومشاعر عدائية لدى البعض (من الشعوبيين والمتعصبين والمتزندقين) لكن هذا الأمر، لن يعكر الروح الإسلامية، التي تبدت لنا

في لحظة صفاء حضاري في أدب الجاحظ، فالأدب العظيم يستطيع أن يعكس صورة حقيقية للأمة في واقعها التاريخي الذي عاشته فعلاً، وفي لاوعيها، فيكشف المسكوت عنه، الذي يخدش حياء الأمة، فيقدّم صورة أمينة عن حياتها مجسداً سلبياتها وإيجابيتها، فرصد لنا لحظة انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة المستقرة، أي لحظة تغير العادات والأفكار!! فأتاح لنا إيجابيات هذا العصر وروحه الإسلامية السمحة، التي تبدت في التعامل مع الفرس في مجتمع جديد، فلم نجد مشاعر عدائية ضدهم، وحين ذكر الكندي، في "كتاب البخلاء" أعداء المسلمين " **الروم والترك والديلم**" لم يذكر الفرس بينهم، فقد أصبحوا مسلمين وباتوا جزءاً من المجتمع.

لكن في قصة أخرى يتبدى لنا توتر العلاقة بين الفرس والعرب، فقد استدان عربي من ثقيف مالا من رجل من الفرس، يدعى باسم لا يوحي لنا بهويته، هو (أبو سعيد المدائني) الذي كان يطالب الرجل المستدين بالدين وقت طعامه، فقال له أحد أصدقاء المستدين (العرب) بأنه لو أراد التقاضي المحض، لكان ذلك في المسجد، ولم يكن وقت الغداء!

فغضب الفارسي (الذي وصفه الجاحظ **"كان أبو سعيد مع بخله أشد الناس نفساً، وأحماهم أنفاً" (أي أبعدهم عن احتمال الذل)** وثار لكرامته فمزّق الصك والكتاب الذي يثبت حقه في الدين، وقال لكل من شهد المجلس: **"هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان، اشهدوا جميعاً أني قبضت منه وأنه بريء"** فاضطر الثقفي أن يبيع ثماره قبل أن تنضج، ليسرع في وفاء الدين، وحين جاء بالمال إلى أبي سعيد أبى أن يأخذه، فلما ألحّ عليه، اشترط عليه **"أظن الذي دعا صاحبك إلى ما قاله أنه عربي وأنا مولى، فإن جعلت شفعاءك من الموالي أخذت هذا المال، وإن لم تفعل فإني لا آخذه، فجمع الثقفي كل شعوبي بالبصرة، حتى طلبوا إليه أخذ المال (18)**

إننا أمام مشهد اجتماعي حي لعصر الجاحظ، يبرز لنا مدى تمازج الاجتماعي بين العرب بالفرس (استدانة العربي من الفارسي، ومشاركته في الطعام)

ورغم أن الفارسي كان بخيلا إلا أنه لم يبدُ لنا في صورة منفّرة، فقد امتلك من الصفات النبيلة ما يجعل صورة البخيل باهتة أو مشكوكاً فيها، إذ ليس سهلاً على البخيل النموذجي الذي نعرفه اليوم رفض ألف دينار من أجل كرامته باعتقادنا!

كما بدا الفارسي نداً للعربي، يشترط عليه شرطاً صعباً، لا يستطيع أيّ إنسان قبوله، لكن العربي الحريص على إيفاء دينه وعلى إقامة علاقة طيبة بالفارسي، ينفِذ هذا الشرط، فيترك أصدقاءه العرب، ويرجو الموالي ليشفعوا له عند المدائني!

نلمح في هذا المشهد أيضاً بعض الحساسية بين العرب والفرس، نقلها لنا الجاحظ على لسان (العربي) الثقفي، حين عرّض ببخل أبي سعيد، وعلى لسان (الفارسي) فحوّله إلى الجانب العرقي (إنه عربي وأنا مولى) لذلك اشترط على المستدين شرطاً من جنس هذا التعريض، وقد قبله العربي، ليردّ دينه، فالقيم الأخلاقية تعلو بالإنسان فوق التعصب والعنصرية، إذ لن يشملا كل الناس، لكن الحساسية بين (الأنا والآخر) لا يمكن أن تنتهي بين ليلة وضحاها، لهذا ركّز الجاحظ على أهمية المعايشة اليومية ، وأن السمات النبيلة، تملكها كل من الذات والآخر، كي يعزّز التواصل بينهما.

كما بيّن لنا، في إحدى قصصه، أن الأخلاق العربية الأصيلة في عصره، تجلّت في احترام مشاعر الغرباء، وعدم بأسئلة، تتعلق بالنسب، الذي كان أساس صراعات سياسية

ودينية، فقد اختبأ في قبيلة (عبد القيس) عبد النور (كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار على المنصور العباسي) وكان أبناء القبيلة يتذاكرون الشعر أمامه، فقال له أحد الفتية: **"يا شيخ إنا نخوض في ضروب، فربما تكلمنا بالمثلبة، وأنشدنا الهجاء، فلو أعلمتنا ممن أنت تجنبنا كل ما يسوءك، ولو اجتنبنا أشعار الهجاء كلها، ... فلطمه شيخ منهم، وقال: لا أم لك! محنة كمحنة الخوارج، وتنقير كتنقير العيّابين؟ ولِمَ لا تدع ما يريبك إلى ما لا يريبك؟ فتسكت إلا عما توقن بأنه يسرّه(19)**

يتسع في التراث مفهوم الآخر ليشمل ليس فقط المختلف عرقياً أو دينياً بل المختلف في النسب والانتماء القبلي، وقد أسس العرب على هذا الانتماء فني الهجاء والمدح!

في هذا المشهد يعلم الشيخ الفتى درساً في الأخلاق والتعامل مع الغرباء، إذ عليه أن يتحدث بعيداً عما قد يزعج الضيف! وهكذا يكون الانفتاح على الآخر أول ما يكون بالابتعاد عما يثير حساسيته وقلقه، وبذلك يتعلم الفتى ما يؤسس لمشاعر الأمان والتواصل بين البشر، لا النفور والكراهية، فيمدّ جسور التفاهم والمحبة مع الآخر.

كما قدّم لنا الجاحظ بعض العادات الفارسية في الطعام، التي تنبئ عن إعجاب العرب بها، خاصة تلك التي تتعلق بآداب المائدة، فهم يعيبون "**الحسو** (شرب المرق من الإناء) **وتقززوا من التعرق** (نهش ما على العظم من لحم) **وبهرجوا صاحب التمشيش** (عابوا استخراج المخ من العظام) **وحين أكلوا بالبارجين** (شيء كالشوكة) **وقطعوا بالسكين، ولزموا عند الطعام السكتة وتركوا الخوض..."(20)**

يلاحظ هنا إعجاب العرب بعادات الفرس المدنية (الأكل بالشوكة والسكين، والصمت أثناء الطعام) ونفورهم من عادات بدوية (الحسو ...)

كما نجد عربياً آخر معجباً بالعادات الراقية في تناول التمر لدى أهالي أصفهان والزنج، لأنهم لا يتخيّرون الجيد، ويهملون الرديء، مما يدل على نمو حس بالجماعة لديهم، إذ من حق الآخرين أن يأكلوا التمر الجيد، في حين بدا العربي أكثر أنانية، ممن يتخير لنفسه التمر الجيد، فلا يفكر إلا بنفسه!

نلمس رؤية موضوعية، تنتبه للجيد في العادات الفارسية والسيء منها، فقد انزعج (عمرو بن قعقاع) من تنويع خادمه الطعام لضيوفه، فقال له: "هلا جعلته طعام يد، ولم تجعله

طعام يدين!"وقد علّق الجاحظ **"والقعقاع عربي كره لمولاه أن يرغب عن طعام العرب إلى طعام العجم، وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه، وأن الثروة تفنخهم** (تذلهم) **وتفسدهم...(21)**

ينبئ رفض عادات الآخر السيئة عن وعي الشخصية بأصالتها، فتحترم الموروث الديني والسلوكي (عادات الطعام البسيطة) لذلك رفض العربي طريقة الفرس الباذخة، وهذا لا يعدّ رفضاً للآخر وإنما رفضاً لكل ما يشوّه الشخصية، ويدل على التفسّخ الحضاري، مثل المبالغة في الطعام و... ألم يكن الترف أحد أسباب سقوط الدولة العباسية!؟

ثمة في "كتاب البخلاء" صور أخرى للتفاعل الحضاري بين العرب والفرس، تبدّى في امتزاج لغوي بين الفارسية والعربية، خاصة في أدوات الحياة اليومية فيما يتعلق بالطعام (خوان البارجين...) وأصنافه (فالودج، الخشكناه...)

لم تبدُ لنا هذه اللغة غريبة، فهي (معرّبة) أي منسجمة مع السياق العربي ببعديه الاجتماعي والثقافي "جعل طعامه كله فالوذقا" أو قوله "وقد عاب ناس على أهل المازح... بأمور منها: أن خشكنانهم (الخبز الجاف) من دقيق الشعير" والجاحظ هنا يتحدث عن قرية عربية (قرب الرقة) وليس قرية فارسية.

كما استخدم ألفاظاً، تتعلق بمظاهر الاحتيال التي شاعت في العصر العباسي، فيبيّن معرفته بأنواع المحتالين (مخطرانيّ، مستعرض الأقفية، شحاذ، **كاغاني، بانوان...**) وشرح لنا بالتفصيل ماذا تعني كلمة كاغاني (الشحاذ الذي يتظاهر بالجنون، ليستدر عطف الناس) أما البانوان فتعني ذاك الذي يقف على الباب ويسلّ الغلق ويقول: بانوا وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاي (22)

ويبدو لنا الجاحظ متقناً للفارسية إلى درجة تؤهله للدفاع عن الفرس حين اتهموا بفقر لغتهم بكلمات تدل على الخير (كالنصيحة) مما يعني فقر نفوسهم، فشكّك في صحة هذا القول منذ البداية، حين استخدم فعل يحتمل الخطأ "**زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس، أنه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم...ففي لغتهم اسم للسلامة واسم لإرادة الخير وحسن المشورة، وحملك بالرأي على الصواب، فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة، إذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الاسم الواحد في لغة العرب، فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم**"(23)

نلمح، هنا، ثقافة الجاحظ وإتقانه اللغة الفارسية، وانفتاحه المعرفي والإنساني على الآخر، فقد رفض النظرة

الاستعلائية لدى بعض العرب، التي تشوّه صورة الفرس، وتبعدهم عن جادة الخير، فلا نجد مفردة (نصيحة) في قاموسهم، فدافع عنهم، كما دافع عن العرب في وجه الشعوبية في كتابه "البيان والتبيين"

وقد رصد لنا (في بخلائه) وجهاً آخر مشرقاً للتفاعل العربي الفارسي، فها هو ذا أحد الأطباء العرب ويدعى (أسد بن جاني) يشكو من عدم إقبال الناس عليه وإقبالهم على غير العربي، فيقول: **"كان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور، ليقبل الناس على مهنتي"**

يبدو لنا الانبهار بالآخر زمن الجاحظ، كحالنا اليوم، نثق بالطبيب الغريب؛ لذلك أسمعنا صوت الطبيب العربي، يشكو انصراف أهله عنه! فيرصد دقائق النفوس والتصرفات!

يسجل للجاحظ تقديم صورة الآخر في "كتاب البخلاء" عبر رؤية جمالية وإنسانية، بفضل امتلاكه قدرات تخييلية، وثقافة واسعة، تتيح له فهم الواقع، والحوار مع الآخر المختلف باحترام، فاستطاع رصد مرحلة حضارية جديدة، بدأت تفرض قيمها الاجتماعية والاقتصادية غير المألوفة، فتجلت معطياتها الجديدة في سلوك الأشخاص وفي أفكارهم! بغض النظر عن انتمائهم العرقي! إذ بيّن بروح العالم الموضوعية أن أية صفة

سلبية، لم تختصّ بها أمة دون غيرها من الأمم؛ فقدّم لنا مثلاً لتفاعل الأديب مع عصره بشكل مبدع، فقد كان واعياً لدور الأدب في بناء روح المحبة بين الناس جميعاً؛ لهذا يبيّن في مقدمة كتابه "الرسائل" سبب تأليفه له "وكتابنا هذا إنما تكلّفّناه؛ لنؤلف بين القلوب، التي كانت مختلفة، ونزيد الألفة إن كانت مؤتلفة." لهذا أراد أن يسهم في ثقافة الانفتاح على الآخر، فيجعله شريكاً في إغناء الحضارة بعيداً عن لغة التعصب والكراهية! فقدّم صورة لانفتاح الحضارة الإسلامية على الثقافات الأخرى، مازلنا بعيدين عنها اليوم!

***

الحواشي:

1. _ د. شوقي ضيف "العصر العباسي الثاني" دار المعارف بمصر، ط2، 1973ص 587_ 592 بتصرف .
2. _ الجاحظ "كتاب البخلاء" تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ج 2 ص 45
3. _ عدد من المؤلفين "الوجود والزمان والسرد" فلسفة بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،ط1، 1999، ص 104_105
4. _ الجاحظ "البخلاء" المقدمة، ص 15
5. _ المصدر السابق، ج2، ص 43
6. _ المصدر السابق نفسه، ص 58
7. _ المصدر السابق نفسه، ج1 ص 59 بتصرف
8. _ مجموعة من الباحثين "العلاقات العربية الإيرانية: الاتجاهان الراهنة وآفاق المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1996، ص 113
9. _ د. الطاهر مكي "في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية" دار المعارف، القاهرة، ط3، 1997،ص 22

10. _البخلاء، د1 ص 114
11. _ المصدر السابق، ص 82
12. _ المصدر السابق نفسه، ج1، ص 118_119
13. _ أحمد بن محمد أمبيريك "صورة بخيل الجاحظ الفنية" الدار التونسية للنشر، ط1، 1985، ص 66
14. _ "البخلاء" ج1، ص 56
15. _ المصدر السابق، ج2، ص 30
16. _ المصدر السابق نفسه، ج1، ص 46
17. _ أحمد لواساني"العلاقات العربية الإيرانية" ص 61
18. _ البخلاء، ج2، ص 71_73 بتصرف
19. _ المصدر السابق، ص 160
20. _ المصدر السابق، ج1، ص 122
21. _ المصدر السابق نفسه، ص 135
22. _ المصدر نفسه، ص 86 - 97، بتصرف
23. _ نفسه، ج2، ص 152

صورة الآخر لدى ابن قتيبة

213هـ - 276هـ

إن إعادة قراءة التراث بطريقة واعية تضمن لنا فهماً أعمق لذواتنا، إذ نتمكن من الغوص فيها لنكتشف مجاهلها وأدغالها، فنعايش الملامح التي وهبت حياتنا إشراقة الحضارة، وتلك التي جللتها ظلمة الهمجية!!

إننا لن نستطيع كشف ذواتنا وفهمها على حقيقتها إلا عبر لقاء الآخر، فنتبيّن مدى تألقها حين تنفتح عليه، ومدى بؤسها حين تنغلق في جدران ظلمتها! وبذلك تصبح الصورة مرآة تعكس رؤيتنا لأنفسنا، فحين ننزهها عن الخطأ نشوّه الآخر دون وعي منا، عندئذ يحل التوتر محل التواصل الإنساني، وينتفي مبدأ التعارف التي نادى به الإسلام "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(1)

إن حكمة خلق الله بشراً متنوعين تتجلى في روعة لقائهم وتواصلهم على أساس التقوى، التي من معانيها خشية الله والسعي لمرضاته عبر ممارسة القيم العليا في التعامل مع الآخر (العدل، المساواة، الابتعاد عن الظلم...) هنا نتساءل: هل اتسعت آفاق المسلمين وطبقوا هذه القيم؟ هل تخلصوا من تعاليم قبلية متعصبة، تستعلي على الآخر؟

اخترنا للإجابة كتاب ابن قتيبة (المتوفى 276 هـ) "عيون الأخبار" الذي قدّم لنا (عبر أربعة مجلدات) صوراً متنوعة وصادقة لعصره، ولعصور سابقة وعتها ذاكرته، التي هي امتداد لذاكرة أمة، تتيح معايشتها في لحظات انفتاحها ولحظات نكوصها! فقد شكل الآخر حافزاً لتأليف هذا الكتاب، فأكمل ابن دور الجاحظ في الدفاع عن العرب والرد على الشعوبية، على حد رأي الناقد إحسان عباس، بالإضافة إلى كتب، منها "الشعر والشعراء" "أدب الكاتب" و"عيون الأخبار" و"المعارف"(2) فجمع فيها شيئاً من حكمة الفرس والعرب، كي يؤلّف بينهم، ويصرف الشعوبيين عن الكتب الفارسية الخالصة، فيجعل المعرفة أساس الحوار مع الآخر والتقارب معه!

أثر الإيمان في التعامل مع الآخر:

إن المتأمل في نصوص التراث يلاحظ صراعاً مسكوتاً عنه بين قيم الإسلام السمحة، وبين قيم القبيلة المتعصبة للنسب، إذ تأبى قيم الإيمان تقييم الإنسان بنسبه وعرقه أو جنسه أو بما يملك من مال أو سلطة، وبذلك تتجسد أمامنا معاني الآية الكريمة "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" فحين يمتلئ قلب الإنسان بالإيمان يستطيع أن ينبذ التعصب والكراهية، ويمارس في حياته انفتاحاً على الآخر، ينصفه قدر ما ينصف ذاته!

لعل الزواج أبرز جانب يظهر فيه توتر العلاقة الاجتماعية (بين الأنا والآخر) لهذا يمكننا أن نعدّه مقياساً يجسد مدى حساسية العرب في قبول الآخر، إنه اختبار للتعامل معه بندية، تجسد امتثالا لمبدأ التقى الذي دعا إليه الإسلام! وقد وجدنا في "عيون الأخبار" أن بعض المسلمين لم يستطيعوا تطبيق مبدأ التكافؤ الديني والأخلاقي في الزواج، بل سعوا إلى التكافؤ العرقي، لهذا وجدنا سلمان الفارسي حين يخطب ابنة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوافق على تزويجه، لكن ذلك يشقّ على ابنه (عبد الله بن عمر) فيشكو ذلك إلى عمرو بن العاص، فقال "أنا أردّه عنك راضياً، فأتى سلمان فضرب بين

كتفيه بيده، ثم قال: ً لك أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك، فالتفت إليه مغضباً، وقال، أ بي يتواضع؟! والله لا أتزوجها أبداً."(3)

تلفت نظرنا صفة التواضع التي ألحقها عمرو بن العاص، الذي عرف بأنه من دهاة العرب، بقبول الخليفة تزويج ابنته من فارسي! فكأنه يوحي له بتنازل العربي، حين قبله، لهذا رفض الفارسي الزواج، ليعيد الاعتبار لمكانته التي حققها له الإسلام!

نلاحظ هنا أننا لا نستطيع أن نربط المرونة في التعامل مع الآخر بالأجيال الشابة دائماً، كما قد يتبادر إلى الذهن، فالأب (الخليفة) أكثر مرونة، فالمشكلة لا تتعلق بالأجيال، هنا، وإنما هي مشكلة إيمان يتغلغل في القلب، فيتجلى سلوكاً منفتحاً على الآخر! وهكذا يبدو لنا أن تجسيد الإيمان (في الدين وفي غيره) عملاً لا قولاً من أكبر التحديات التي تواجه البشر!

وفي مشهد آخر تتوارى هذه الحساسية العرقية، فنعايش انفتاح الشخصية المؤمنة التي تلغي كل الفوارق، فقد خطب بلال الحبشي لأخيه امرأة من بني حسل من قريش، فوجدناه يعتز بنسبه الجديد للإسلام، الذي رفعه حتى رأى نفسه نداً

لأعرق نسب عربي "نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالين فهدانا الله، فقيرين فأغنانا الله، وأنا أخطب لأخي خالد فلانة، فإن تنكحوه فالحمد لله، وإن تردوه فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا هو بلال، وليس مثله من يدفع، فزوّجوا أخاه، فلما انصرفاً قال خالد لبلال: يغفر الله لك! ألا ذكرت سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله (ص) قال: مه! صدقت فأنكحك الصدق."(4)

استطاعت قيم الإسلام أن تقضي على أي إحساس بالمهانة، لدى بلال الحبشي، إذ محت عزة الإيمان كل الصفات السلبية التي يفخر بها المجتمع القبلي عادة، فلم يعد عبداً فقيراً ضالاً! فلم يخجل من ماضيه في الجاهلية (ذل العبودية، وقهر الفقر، وبؤس الضلالة) بل غمره الإيمان بشعور الندية، ليصاهر أعرق قبيلة عربية (قريش) عُرف عنها الاستعلاء؛ لهذا قال لهم (إن تردّوه فالله أكبر) كأنه يلمح إلى قيم عليا (الإيمان بالله) تجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لهذا إن رفضوا مصاهرته استعلاء، فهذا انحراف عن قيم إسلامية؛ لهذا رفض (بلال) التباهي بماضيه في مواجهة الكافرين، فما يهمه هو إيمانه بهذه القيم، التي تقضي على العبودية للبشر، ليظلّلهم جميعاً بمشاعر الأخوة الإنسانية؛

وبذلك تجاوز بفضل الإسلام عقد نقصه! فقد رفعه الإيمان إلى أعلى منزلة؛ لهذا وافقت قريش على تزويجه إيماناً بقيم الإسلام، واحتراماً لدور بلال في نشر الدين الجديد، خاصة أنه لم يتباهَ بهذا الدور.

وهكذا بدا لنا تطبيق قيم الإسلام السمحة في قضية التزاوج بين مدّ المنفتحين (المؤمنين حقاً) وجزر المتعصبين (المنافقين)

وثّق ابن قتيبة علاقة اجتماعية أخرى (الجوار مع الآخر) في مشاهد، رسمتها قيم الإسلام السمحة، فكان التعامل مع الآخر في الحياة اليومية يتم بعيداً عن عقيدته، وبذلك تجسدت لنا قيم الانفتاح بأجلى صورها "قال رجل لسعيد بن جبير: المجوسي يوليني فأشكره، ويسلم علي فأردّ عليه، فقال سعيد: سألت ابن عباس عن نحو هذا، فقال لي: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه مثله."(5)

هنا نجد الإنسان العادي المخلص لدينه، تؤرّقه العلاقة مع الآخر المختلف (المجوسي) في حضارة، تعجّ بعدة أعراق ومعتقدات؛ لهذا يلجأ إلى رجل الدين؛ ليرشده في شؤون حياته اليومية، فيبيّن له أن مبدأ المعاملة بالمثل هو دليل المسلم في علاقاته مع الجوار! وزاد الأمر وضوحاً حين أورد مثالاً (بصيغة

المتكلم) ليرسّخ وجهة نظره بمثل حي، يعزّز قيم التواصل والمحبة مع الآخر بغض النظر عن إيمانه بدين الإسلام أو عدمه (فرعون)! والملاحظ أن هذه الفتوى أتت على لسان (عبد الله بن عباس) أحد أقرباء الرسول (ص) الذي تعلّم على يديه، كي يؤسس ابن قتيبة لثقافة الانفتاح على لسان أحد المجسدين لروح الإسلام وفقهه.

التعصب وتشويه الذات والآخر:

عايشنا في كتاب "عيون الأخبار" مشاهد تكرّس الانفتاح على الآخر، وفي الوقت نفسه عايشنا مشاهد تشوّه العلاقات الإنسانية لكونها تقوم على التعصب، الذي قد يصل حداً يثير الرعب، وذلك حين يحتقر الإنسان كل من يخالفه الرأي أو الجنس أو العرق!! وبذلك ينغلق على ذاته مستبعداً أي إحساس بالآخر، مما يؤدي إلى قتل نوازع الخير في النفس، فيتمّ تجريد الإنسان من إنسانيته!

لعل أشد أنواع التعصب التي يعاني منها العرب إلى اليوم هو التعصب القبلي، الذي نلاحظ اختلاطه بالتعصب المذهبي، لذلك لم نجد تطبيقاً عملياً لحديث رسول الله (ص) "اختلاف أمتي رحمة" بل كثيراً ما بدا الاقتتال السياسي في التاريخ

الإسلامي مؤسساً على تعصب قبلي، لهذا كانت بعض القبائل هواها مع الإمام (علي كرّم الله وجهه) مثل تغلب وبعض القبائل هواها مع الأمويين مثل القيسية!!

يقدم لنا كتاب "عيون الأخبار" مشهداً مفزعاً للتعصب القبلي، فقد أخبر رجل من الأزد أنه كان مع "أسد بن عبد الله بخراسان، فبينا نسير معه، وقد مرّ نهر، فجاء بأمر عظيم لا يوصف، وإذا برجل يضربه الموج وهو ينادي: الغريق الغريق! فوقف أسد وقال: هل من سابح؟ فقلت نعم، فقال ويحك الحق الرجل! فوثبت عن فرسي، وألقيت عني ثيابي، ثم رميت بنفسي في الماء، فمازلت أسبح حتى إذا كنت قريباً منه، قلت: ممن الرجل؟ قال: من تميم، قلت امضِ راشداً، فوالله ما تأخرت عنه ذراعاً حتى غرق!!!، فقال ابن عياش: فقلت له: ويحك أما اتقيت الله غرّقت رجلاً مسلماً!! فقال: والله لو كان معي لبنة لضربت بها رأسه."(6)

حدث هذا المشهد بعيداً عن الأرض العربية (خراسان) حيث من المفترض أن الغريب للغريب نسيب! إذ لم يشفع للعربي إسلامه، فكان التعصب القبلي أقوى من الإيمان ومن أيّ إحساس بالغربة، بل من أي حسّ إنساني!!!

إننا لا ننفي هذا الحس لدى الأزدي، لأن نية الإنقاذ موجودة لديه (هبط عن الفرس، وخلع ثيابه، ثم ألقى نفسه في النهر لينجد الغريق) لكن المأساة في أن النجدة كانت مشروطة بقيم التعصب القبلي، فرفض إنقاذه، حين اكتشف انتماءه إلى قبيلة معادية (تميمي)!!!

نلمس في هذا المشهد صراعاً بين وجهتي نظر (القبلية) و(الدينية) فمثل هذا التصرف غير الإنساني يلقى نقداً واستنكاراً من رجل متدين، لذلك يخاطبه بلغة دينية (أما اتقيت الله قتلت مسلماً) إذ خالف الأزدي مبدأ إسلامياً أكّد عليه القرآن الكريم "من قتلً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً."(7)

لا يجدي الحوار مع ذلك المتعصب، لأنه يعيش قيماً تربّى عليها منذ طفولته، فتمكّن التعصب من روحه (والله لو كان معي لبنة لضربت بها رأسه) فهو لم يكتفِ برفضه إنقاذ المخالف له في الانتماء القبلي، بل هو على استعداد لضربه لو كان يملك ما يسعفه من أدوات!!! فالتعصب هنا يؤدي إلى مواقف في غاية البشاعة، إذ تتنافى مع القيم إنسانية ودينية!!!

تزداد صورة التعصب القبلي بشاعة، حين تصل إلى أقرب

الناس، حتى يبدو التعصب أقوى من روابط الدم التي لا يستطيع المرء تجاهلها عادة، فقد لاحظنا في مشهد آخر رجلاً من الأزد كان يطوف بالبيت، وجعل يدعو لأبيه، فقيل له: ألا تدعو لأمك؟ فقال: إنها تميمية!! **وبذلك يصل التعصب إلى ذروته، حين يتنكر الابن لروابط الدم، فيصل به الأمر حدّ عقوق أمه، التي تنتمي إلى قبيلة تخالف قبيلة أبيه، فيتغلب التعصب على تعاليم الدين، التي تدعو إلى بر الوالدين، وخاصة الأم.**

وقد لاحظنا في "عيون الأخبار" كيف يتحول التعصب العرقي لدى العربي إلى تعصب لغوي، فوجدنا وصف من يتحدث غير العربية في بلد عربي بالخسة "قال الأصمعي...ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا: رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفِل، أو سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية، أو رأيته في الطريق ينازع في القدر."(8)

لكننا نلاحظ أن روح العالم الموضوعي لدى الأصمعي تحدّ من جموح هذا التعصب، إذ وجدناه يقيّد صفة الدناءة بعدم معرفة الشخص، أي أنه يؤكد ضرورة عدم التسرع وإطلاق هذا الحكم الخطير على عواهنه! لهذا قال "ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا" **فيذكر استثناء يتفق**

والمنطق، فقد يكون الشخص لا يعرف العربية، فهل من الموضوعية أن نحكم عليه بالدناءة لكونه يتحدث لغة لا يعرف سواها!؟ كما يبين أهمية المعاشرة اليومية، فهي الحكم على رفعة الإنسان أو خسته!!

إن التعصب مرفوض بأشكاله كافة، لكن عالم اللغة (الأصمعي) بدا متحمساً للعربية، لكونها ترتبط بالمقدس الديني (لغة القرآن الكريم) لذلك كانت خدمته لغوياً سبيلاً لكثير من العلوم في الحضارة الإسلامية!

قد نلتمس العذر للأصمعي الذي وهب حياته لخدمة اللغة العربية، لكننا لن نجد عذراً لأولئك المتعصبين عرقياً، الذين نأوا عن روح الإسلام وانفتاحه، لهذا نستغرب ما جاء في "عيون الأخبار" بأن الزنج "شرار الخلق وأردؤهم تركيباً لأن بلادهم سخنت فأحرقتهم الأرحام..." (9)

يبدو التعصب ضد الزنج من ناحية اللون (أردأ الناس تركيباً) وقد انسحب على أخلاقهم (فهم أكثر الناس شراً) وبذلك استشرى التعصب وبلغ أذاه شكل الإنسان وباطنه!

رغم هذه الصفات السيئة التي لازمت صورتهم من الناحية الشكلية والأخلاقية، إلا أن ذلك لم يعمِ بصيرة العربي عن

الحق، فلم يلحق بهم كل الصفات السلبية، إذ يذكر صفة إيجابية للزنج وهي أنهم"أطيب الأمم أفواهاً..وإن لم تستن **(تستخدم السواك)**

وقد أثبت الطب الحديث اليوم صحة هذه الرؤية ، إذ يبدو أن العرق الذي ينتمي إليه الزنوج يجعل أسنانهم تقاوم النخر والتسوس، وكذلك تقاوم لثتهم الالتهاب، يضاف إلى ذلك طبيعة نظامهم الغذائي الذي يبتعد عن السكر الاصطناعي، فتحافظ أفواههم على طيب الرائحة! وبذلك لم يشوّه التعصب الصورة بشكل مطلق، فخففت الرؤية الموضوعية غلواء التعصب!

نعتقد أن بعض الناس وخاصة ذوي النفوس الحساسة ، فُطرت على المحبة والعدل، فتتمثّل قيم الدين السمحة ، وتقاوم التعصب وما يجرّه من أحقاد ونزعات أنانية ، وبذلك لا تحصر ذاتها في أسوار الأنانية! بل تسعى إلى بناء علاقة مشرقة مع الآخر (المختلف سواء بالجنس أم بالعرق أم بالدين...) ولعل الأدباء أقدر الناس على تجسيد هذا الرفض وتأسيس روح إنسانية منفتحة بعيداً عن ظلمة الانتماءات الضيقة والهويات القاتلة ، كقول الشاعر العربي:

وكلّهـــم قـــد نـــال شـــبعا لبطنـــه

وشـــبع الفتـــى لـــؤم إذا جـــاع صـــاحبه

إن كلمة صاحب تمدّ ظلالها لتشمل الصديق ورفيق السفر والسكن، وهؤلاء جميعاً قد لا يشاركون العربي العرق والدين، وبذلك يؤسس الأديب العظيم إبداعه على قيم الانفتاح الإنساني، التي يمكن أن ندعوها مع أبي حيان التوحيدي بـ "العصبية الإنسانية"(10)

الآخر اليهودي:

ظفرنا في كتاب "عيون الأخبار" بمشاهد تبيّن لنا كيف تأسست الحياة الاجتماعية بين المسلمين واليهود على المودة والمؤازرة في الشدائد، لهذا وجدنا المسلم (شيب بن شيبة يعزّي صديقا له من اليهود قائلاً: **"أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل ملتك."(11)**

تتوجه صيغة الدعاء إلى (الله تعالى) وبذلك تنطلق مما هو مشترك بين الأديان السماوية، إذ يجمع (تعالى) كل البشر تحت وارف رحمته، فيتوجهون إليه في المحن، لكن الجار المسلم يخص صديقه اليهودي بالدعاء عبر صيغة التفضيل (أعطاك أفضل...صبراً)

نلمس واقعية الخطاب حين أشار إلى انتماء اليهودي (أهل ملتك) إذ نجد المسلم يقيد صيغة الدعاء، ويحصرها بصديقه المتميّز بأخلاقه عن غيره!

لم يهتمّ ابن قتيبة صوت المسلم وانفتاحه على الآخر فقط، بل قدّم صوت الآخر (اليهودي) فقد حدّثنا على لسان (أبي العيناء) قائلاً: **"كان بالبصرة لنا صديق يهودي، وكان ذا مال، وقد تأدّب، وقال الشعر وعرف شيئاً من العلوم، وكان له ولد ذكور، فلما حضرته الوفاة جمع ماله وفرّقه على أهل العلم والأدب، يترك لولده ميراثاً، فعوتب على ذلك، فقال:**

رأيت مالي أبرّ من ولدي

فاليوم لا نحلة ولا صدقه

من كان منهم لها فأبعده

الله ومن كان صالحاً رزقه(12)

أحاطت باليهودي صفات إيجابية فهو (صديق، متأدب، مؤمن، خيّر) وقد برزت فرادة هذه الشخصية وروعتها، حين فضلت القرابة الأدبية على القرابة الدموية، فوزعت ما تملك

من مال على أهل الأدب، أما الأبناء فقد تركوا ليعتمدوا على أنفسهم!!

ولما عاتبه على ذلك أصحابه لافتين نظره إلى حق الولد في الإرث، فيبيّن لهم أنه وجد المال أنفع للإنسان من الولد، الذي فيما يبدو قد خيّب أمله، فقرر توزيع أمواله على أهله الحقيقيين (الأدباء) فالصالح، على نقيض الطالح، يسعى إلى كسب رزقه، لا إلى الإرث!

رغم الحياة المدنية التي شاعت بعد الإسلام، إلا أن المسلم مازال محكوماً بالتقاليد العربية الأصيلة، التي ترحب بالغريب، دون أن تسأل عن هويته، وقد وجدنا في "بخلاء" الجاحظ مصداقاً لهذا القول، فقد صفع شيخ ابنه حين سأل ضيفه عن هويته قائلاً له"**لِمَ لا تدع ما يريبك إلى ما لا يربك، فتسكت إلا عما توقن بأنه يسّره.**"**(13)** فالضيف يكرم في العرف الاجتماعي بغض النظر عن دينه أو نسبه، وواجب الضيافة العربية لا يقتصر على تأمين الطعام والشراب للضيف، وإنما تأمين الراحة النفسية، كي يشعر الضيف أنه بين أهله، لهذا من العيب أن يسأل عن هويته، وعلى هذا الأساس استحق الفتى تأديباً عن إثم ارتكبه بسؤال الضيف عن هويته!! وقد عايشنا في مشهد آخر في "عيون الأخبار"

لحظة انفتاح مدهشة، وذلك حين **"نزل يهودي على أعرابي فمات عنده، فقام الأعرابي يصلي عليه، فقال: اللهم إنه ضيف وحق الضيف ما قد علمت، فأمهلنا إلى أن نقضي ذمامه..."(14)** فالعربي محكوم بعادات، تلزمه القيام بواجب الضيافة، دون النظر إلى العقيدة، حتى إنه يرى أن الصلاة على الميت اليهودي من واجبات الضيافة (نعتقد أن الصلاة هنا تعتمد المعنى اللغوي، فتصبح بمعنى الدعاء له)(15)

وبذلك تقتضي الضيافة أن يحسن مثوى اليهودي، فيدعو له بالرحمة، أما حسابه فهو شأن إلهي!! المدهش في هذا المشهد أن اتساع دلالة الضيافة؛ لتشمل إكرام الميت أي دفنه!

إذاً يمكننا القول بأن العربي يهتم في علاقته مع الآخر بشؤون الدنيا والآخرة، فيلتزم بقيم رُبي عليها، فيمتزج الالتزام الاجتماعي بالديني، هو نسيج الحضارة الإسلامية، التي تنفتح على الآخر، دون أن يفسد الاختلاف في الدين أو ...إلخ العلاقة بين الناس!

الآخر المسيحي:

رسمت للسيد المسيح عليه السلام صورة رائعة في التراث الإسلامي، إنها صورة الزاهد في الدنيا الذي يهتم بخلاص روحه، نسمعه يخاطب بني إسرائيل بقوله: **"أنا الذي أنزلت**

الدنيا منـزلها، ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا أين ...؟ قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، ودابتي رجلي، وسراجي بالليل القمر، وصلائي في الشتاء مشارق الشمس، وطعامي ما تيسر وفاكهتي وريحانتي بقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري الخوف، وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لي شيء، وأمسي وليس لي شيء، وأنا طيب النفس غني مكثر، فمن أغنى مني وأربح؟!"(16)

نلمح هنا رغبة لدى الراوي المسلم أن يقدم للمتلقي شخصية الزاهد الحقيقي (المسيح) وكي يجعل كلامه مؤثراً، أثناء التلقي، يسرد قوله بصيغة الأنا، فيعرّف بتفاصيل حياته اليومية (الأكل، الشرب، الملابس، الأصدقاء...)

تبدو لنا الغاية التعليمية واضحة هنا، فمن أراد طريق الصلاح فعليه أن يسلك طريق الزهد الذي سبقه إليه السيد المسيح، فيبدأ بتنقية نفسه من المفاسد (التكبر والفخر) فلا يلهث وراء متاع الدنيا، همه كل ما يرتقي بروحه (الصلاة، الصوم، الطهارة...) لهذا كان بيته في مكان العبادة، يلفت النظر قوله **(بيتي المساجد)** إذ أسقط الراوي المسلم لغته الدينية على لغة المسيح، مما يؤكد الغاية التعليمية، كأنه يريد أن يبيّن أن بيت الله واحد مهما اختلفت التسمية، وبما أن

الخطاب موجه للمسلمين، لهذا غيّر الراوي اسم مكان العبادة، لأن الله يسكن في قلب المؤمن بغض النظر عن دينه، أو مكان عبادته!!

كما يلفت نظرنا توحد المسيح الرائع مع الطبيعة (يلوذ بدفء الشمس شتاء، ويستتير بالقمر ليلاً...) ليؤكد للإنسان أنه كلما التصق بها ازداد قربا من الله تعالى!

ينفتح السيد المسيح على الضعيف، فيعاشر الفقراء والمرضى، ليساعدهم في محنة الحياة!، بذلك يعلّمنا كيف نرتقي بحياتنا بمساعدة من هو أضعف منا، فلا نلهث وراء الأقوياء لنفوز ببعض المكتسبات، فراحة النفوس بالعطاء، لا بالمطامع، فنعيش أماناً داخلياً، عاشه السيد المسيح (ع) فلا يوجد من هو **(أغنى منه وأريح)** فقد استطاع كبح جماح نفسه وعوّدها الإحساس بالآخر أياً كان.

إن ما ينقص البشر هو تجسيد المثل الأعلى على الأرض، من هنا بدا ذلك حلماً يسعى إليه الإنسان عبر الأنبياء والقديسين والمبدعين؛ وبذلك ألقت شخصية المسيح (ع) أنوار روحها على الجميع، فمثّل أحد أحلام الإنسانية الكبرى (اجتماع المثل العليا يجسدها الإنسان بفعله) فدعاه

دستويفسكي بـ(الطيب الفعّال) الذي ينقذ أرواحنا بفعاليته وأخلاقه!

وقد أتاح لنا "عيون الأخبار" معايشة ذلك في مشاهد يومية للمسيح، الذي **"مرّ بقوم شتموه، فقال خيراً، ومرّ بآخرين شتموه، فقال خيراً، فقال رجل من الحواريين: كلما زادوك شراً زدت خيراً، كأنك تغريهم بنفسك! فقال: كل إنسان يعطي مما عنده."(17)**

لم نجد السيد (المسيح) يتصرف بصفته إنساناً عادياً فيردّ على الإساءة بمثلها، فهو لا يردّ الإساءة بمثلها؛ لكونه نبياً معلّماً؛ يهتمّ بالسريرة، التي هي محك الأعماق، تنبئ عن الجمال أو القبح، وبذلك ينطقه الأديب، بتتاص تراثي حكيم"كل إناء ينضح بما فيه"

أما في مشهد آخر فوجدنا أحدهم يستغرب خروجه من منزل مومس، فيسأله: **"ما تصنع عند هذه؟ فقال: إنما يأتي الطبيب إلى المرضى."** فهو يبحث عن المعذبين في الأرض، والمحتقرين في المجتمع، ليظلّلهم بالمحبة والرحمة، فالمومس امرأة مريضة، تحتاج طبيباً روحياً مثله (ع) يساندها، فتقوى على ضعفها، وتبدأ حياة جديدة تليق بكرامتها الإنسانية!

من اللافت للنظر أنه (ع) قد احتل مكانة مرموقة في الدين الإسلامي! فقد ذكر بالاسم خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم، وهناك سورة باسم أمه (مريم) ولم نجد أية سورة تحمل اسم ابنة الرسول (ص) (فاطمة) أو إحدى زوجاته!

مثل هذه المكانة نجد صداها في الكتب التراثية الإسلامية، التي قدّمت أروع صورة للمسيح وأتباعه الرهبان! ففي "عيون الأخبار" مشهد يلتقي فيه أحد المسلمين براهب، يبكي في (دير حرملة) فيسأله: **"ما يبكيك؟ فقال: يا مسلم أبكي على ما فرّطت من عمري، وعلى يوم مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي...."(18)**

نستطيع أن نلمح هنا تواصلاً إنسانياً يقوم على المودة والإحساس بآلام الآخر، فالمسلم متعاطف مع المسيحي، يهمه أن يعرف سبب بكائه، كي يخفف عنه، فيكتشف أنه يبكي على ضياع أيام حياته دون أن يتمكن فيها من عمل الخير! أو تهذيب نفسه للارتقاء بها؛ ليسير في طريق المسيح (ع)!!

نلاحظ تكرار الأسئلة التي يوجهها المسلم لرجل الدين المسيحي، مما يشي برغبة المسلم ليس فقط في التواصل مع الآخر بل فهمه أيضاً، والتعلّم منه! لهذا وجدنا (زيد الحميري)

يستغرب ارتداء السواد لدى الرهبان، فيسأل الراهب (ثوبان) عن معنى ذلك، فيجيب: **"هو أشبه بلباس أهل المصائب، فقلت: وكلكم معشر الرهبان قد أصيب بمصيبة؟ فقال: يرحمك الله وأي مصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها! قال زيد: فلا أذكر قوله ذلك إلا أبكاني."(19)**

تدهشنا حساسية رجل الدين المسيحي للذنوب، حتى ليعدّها مصيبة عظيمة، تعادل وفاة عزيز، لهذا يعلن حداداً أبدياً عليها!! كما تستوقفنا وحدة المشاعر، وتفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان بغض النظر عن دينه، لهذا شارك المسلم المسيحي البكاء، فهما ينتميان إلى فطرة إنسانية واحدة، يؤرّقها الإثم!

إن الإنسان كلما ازداد حساسية، وامتلك القدرة على محاسبة ذاته، ازداد قرباً من المثل الأعلى الذي جسده الأنبياء! فالأسس الدينية التي أتى بها الرسل تكاد تكون واحدة، لهذا لا يمكن أن يفرقنا اختلاف الدين، كما قد يظن بعض المتسرعين!

نلاحظ في مشهد آخر كيف أصبح الراهب المسيحي دليلاً يهدي المسلم إلى طريق الصواب، فقد سأل قوم ضلوا طريق السفر راهباً، فقال لهم: **"ههنا، وأومأ إلى السماء،**

فعلموا ما أراد، فقالوا: إنا سائلوك أ فتجيبنا أنت؟ قال: سلوا، ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهاد، قالوا: ما الخَلق عليه غدا عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: فإلامَ الموئل؟ فقال: إلى المقدَّم، قالوا: أوصنا، قال: تزوّدوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما بلغ المحلّ، ثم أرشدهم إلى المحجة وانقمع."(20)

إن الحديث مع الراهب يهب الأمان الروحي للمسافرين، فيزيدهم رغبة في معرفة أسرار إيمانه، والتتلمذ على يديه! فكان الدرس الأول الذي قدّمه لهم هو أن يحترموا الزمن أي مادة الحياة، التي تتوقف بموت الإنسان، فأبدى رغبته في عدم إضاعة الوقت في الثرثرة، وطلب منهم إقلال الأسئلة! فيسألونه: كيف يسلكون الطريق الصحيح؟ على أي أساس يتمّ حساب الناس عند ربهم؟ وما هو ملاذهم الحقيقي في الدنيا والآخرة؟ أي يطلبون منه أن يرشدهم المسافرين إلى طريق، يجنبهم الضياع! فينقلهم من المحسوس إلى الغيب (الإيمان والخلاص الروحي) حين يشير إلى السماء أولا، ثم يدلهم على الطريق الصحيح لسفرهم، من هنا بدت لنا اللغة التي يستخدمها الراهب تمزج المجاز بالواقع المعيش! فيتمّ ربط خلاص الإنسان في دنياه وآخرته بالنية الطيبة والعمل الصالح!

لهذا كانت وصيته لهم بأن يتزوّدوا بهذا في حياتهم، التي هي رحلة قصيرة نحو الآخرة!

احترم المسلمون نبي المسيحيين ورجال الدين وشعائرهم، حتى إن أعلى سلطة لدى المسلمين (الخليفة معاوية) لم يستطع أن يمنع دقّ النواقيس في كنائس دمشق، رغم أنها كانت تزعجه وتمنعه من النوم، فأراد أن يحتال لذلك، فقال **"يا معشر العرب، هل فيكم فتى يفعل ما آمره وأعطيه ثلاث ديات أعجّلها له وديتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسان: أنا يا أمير المؤمنين. فقال: تذهب بكتابي إلى ملك الروم، فإذا صرت على بساطه أذّنت. قال: ثم ماذا؟ قال: فقط...فلما صار على بساط قيصر أذّن، فتناجزت البطارقة، واخترطوا سيوفهم، فسبق إليه ملك الروم وجثا عليه، وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقهم عليه لما كفّوا، ثم ذهب به حتى صعد على سريره، ثم جعله بين يديه، ثم قال** (قيصر)**: يا معشر البطارقة إن معاوية رجل أسنّ، وقد أرق، وقد آذته النواقيس، فأراد أن نقتل هذا على الأذان، فيقتل من قِبلَه منا على النواقيس، واللّٰه ليرجعن إليه بخلاف ما ظنّ، فكساه وحمله..."(21)**

لم يجرؤ الخليفة معاوية (المعروف بداهية العرب) على إلغاء طقس من طقوس المسيحية التي كانت تزعجه (دق

النواقيس في الكنائس) مع أنه يقيم في أرض فتحها المسلمون (بلاد الشام) وقضوا على حكامها الرومان (المسيحيين) ومازالوا يخوضون حروباً معهم في الثغور، تتخللها فترة هدنة، لهذا استغل هذه الفترة بدهاء، وفكر بحيلة تنقذه مما يؤرّقه، ويمنع نومه! فأرسل رسولاً يستفزّ القيصر بالأذان أي بالمقدس الإسلامي، فينال هذا الرسول عقاباً يتيح للخليفة الردّ بالمثل، فيستطيع أن ينال من المقدس المسيحي، لكننا نفاجأ أن قيصر الروم داهية مثل معاوية!

إن ما يلفت النظر هو أن الخليفة المسلم وهو أعلى سلطة (روحية وسياسية) يحترم طقوس الآخر المسيحي في البلاد المفتوحة، فلا يجرؤ على منعها، كما نلاحظ حرص الراوي المسلم على تقديم صورة مشرقة لقيصر الروم المسيحي، فهو في دهاء الخليفة المسلم!

ما يدهش حقاً أن هذا الراوي المسلم في "عيون الأخبار" يوثّق ذنباً ترتكبه السلطة السياسية المسلمة في حق الآخر، بل يوّثق لنا النقد الذي وجهه (قيصر الروم) إلى الخليفة جرّاء ذنبه، فقال: **"حدثنا الرياشي قال: لما هدّم الوليد بن عبد الملك كنيسة دمشق، كتب ملك الروم: إنك قد هدمت الكنيسة**

التي رأى أبوك تركها، فإن كان حقا، فقد أخطأ أبوك، وإن كان باطلاً فقد خالفته..."(22)

يستند قيصر الروم على حقيقة تاريخية وثّقها لنا المؤرخون المسلمون وغيرهم، إذ بُني بعد فتح دمشق مسجد إلى جانب كنيسة يوحنا، و"لما ولي **معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق، فأبى النصارى ذلك، فأمسك، ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد، وبذل لهم مالاً عظيماً على أن يعطوه إياها، فأبوا..ثم إن الوليد** (حين خلف أباه) **قال: لئن لم تفعلوا لأهدمنّها..."**(23)

اجتمع في تراثنا وجهان في التعامل مع الآخر: أحدهما مشرق يتمّ فيه احترام مشاعر الآخر وممتلكاته، إذ لم يجرؤ فيه الخليفة على انتهاك حرمة طقس من طقوس المسيحية، وثانيهما مظلم يعامل الآخر بمنطق القوة والقهر، وهذا ما حصل حين هدم الخليفة كنيسة، ليبني مكانها المسجد الأموي، فلم نجده يلتزم باحترام جده (معاوية) وأبيه (عبد الملك) لبيت من بيوت الله!! فلم يقتدِ، كما اقتدوا، بوصايا دينهم الحنيف باحترام أماكن العبادة للأديان الأخرى، لذلك تمّ هذا التجاوز زمن الأمويين.

وتؤكد لنا كتب التاريخ الإسلامي أن النصارى لم يسكتوا على الظلم الذي لحق بهم، واستمروا في الاعتراض، حتى أوصلوا شكواهم (مما فعله الوليد بكنيستهم) إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فتمّ الصلح عليها في عهده.

وهكذا وصلتنا تصرفات الحكام المسلمين بسلبياتها وإيجابياتها في كتب التاريخ "فتوح البلدان" للبلاذري، و "تاريخ الطبري"(24) وفي كتب الأدب "عيون الأخبار" فتمّ توثيق رأي الآخر المتظلم، دون أن تسيطر على الراوي المسلم النوازع السياسية والدينية، فرغم أنه يعيش في كنف السلطة العباسية التي تعادي السلطة الأموية! نجده ينظر بعين العدل إلى رجالاتها، فلا يوقر أحداً لقدمه، ولا يسفّهً لحداثته، كما يقول ابن قتيبة (25)

وعلى هذا الأساس ظفرنا في "عيون الأخبار" بمشاهد متنوعة تبيّن تارة احترام الدين المسيحي عبر احترام نبيه ورهبانه وأماكن عبادته، وتبيّن تارة انتهاك أماكنه المقدسة على يد بعض الحكام! فشتان بين من يمارس روح الدين (التسامح مع الآخر واحترام مشاعره) ومن يمارس قيماً سلطوية (قهر الآخر وعدم احترام مشاعره)

وقد سجل ابن قتيبة تردد الخليفة الراشدي في استخدام النصارى في أعمال الدول الناشئة! فقد **ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة، وكان نصرانياً، فقيل له: لو اتخذته كاتباً. فقال "لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين."**(26)

يبدو هذا الموقف المتشدد في استخدام الآخر في بداية تكوّن الدولة الإسلامية أمراً مبرراً، إذ لم يرسخ الدين في حياة الناس بعد، كما لم تكن الحاجة للآخر ملحة، إذ مازالت البساطة تسيطر على الحياة السياسية والتنظيمية، لهذا لم يلتزم الخلفاء (الأمويون والعباسيون والفاطميون ...إلخ) بهذا الموقف المتشدّد!!

إذا كنا قد لاحظنا تردد بعض الحكام المسلمين في التعاون مع الآخر، فإننا على صعيد العلاقات الاجتماعية لاحظنا التزاور وحسن الجوار بين المسلمين والمسيحيين على مدى العصور، حتى جمعت بينهما علاقات عاطفية، وثّقها الراوي المسلم في "عيون الأخبار"! فقد أحب أحد الشعراء المسلمين امرأة نصرانية، فنالته سهام اللوم من بعض معارفه، فيردّ موضحاً أن الحب لا يعترف باختلاف الدين، وأن كل امرئ، سواء أكان امرأة أم رجلاً، حر في دينه:

يقولـــــــون نصـــــــرانية أم خالـــــــد

فقلـــت: دعوهـــا كـــلّ نفـــس ودينهـــا

فـــــإن تـــــك نصـــــرانية أم خالـــــد

فقـــد صـــوّرت في صـــورة لا تشـــينها

أحبـــــك إن قـــــالوا بعينيـــــك زرقـــــة

كـــذلك عتـــاق الطـــير زرقـــا عيونهـــا(27)

يقدم لنا الراوي هنا مشهداً من المسكوت عنه في حياتنا الاجتماعية سواء أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر، إذ يستغرب المجتمع علاقة حب بين شخصين ينتميان إلى دينين مختلفين، فيسمع المتلقي منطقاً مقنعاً، إذ بالحب يرتقي الإنسان، وتتسع آفاقه، فيعيش معاني الحرية، التي تنطلق به إلى عوالم منفتحة، تقوم على احترام معتقدات الآخرين!

إن مثل هذا المنطق مازال سائداً في حياتنا إلى اليوم، إذ نسمع المثل الشعبي يقول: (كل واحد على دينه الله يعينه) فنعايش الحكمة الشعبية التي تؤكد أن الحساب على أساس الدين شأن سماوي، فالبشر لا علاقة لهم بما ضمر القلب، بل بما ظهر من تصرفات!

هنا لا يأبه الشاعر بكل من يلومه على حب نصرانية، إذ لا يجد فيها ما يعيبها! فقد صوّرها الله بأروع صورة، ويبدو أن بعضهم رأى في زرقة عينيها أمراً معيباً، إذ اتخذوه دليلا على عدم انتمائها إلى العرق العربي (على حد زعمهم) لكن الشاعر يبين خطأهم، لذلك يجعل الطيور العتاق معادلاً فنياً لأصالتها، مبيناً أن زرقة العيون صفة تلازمهما معاً!

وبذلك يردّ الشاعر المحبّ على لائميه الذين تبنوا مقولات تنغلق على الذات، وترفض الآخر (على أساس الاختلاف الديني والعرقي) ويبيّن تهافت منطقهم، فكل إنسان حر في دينه، الذي يختاره منهجاً لحياته، كما أنه من الخطأ اعتماد الشكل الخارجي (لون العيون) مقياساً لأصالة النسب! وبذلك ينتصر الشاعر لقيم الانفتاح والحب، ويخوض صراعاً مع أولئك المتزمتين، الذين يحرمون ما حلله الله (سمح بزواج المسلم من نصرانية أو يهودية)!

لم تقتصر في "عيون الأخبار" سعة الأفق على الإنسان العادي بل وجدناها لدى الحاكم المسلم (الخليفة المأمون) إذ أفسح في مجلسه مجالاً للحوار مع **مرتد** إلى النصرانية، فنجده يسأله، ويصغي إلى نقده لأحوال المسلمين: **"خبّرنا عن الشيء الذي أوحشك من ديننا بعد أنسك به واستيحاشك مما كنت**

عليه...قال المرتد: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم، قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، والتكبير في الجنائز، والتشهد....وهذا ليس باختلاف إنما هو تخيير وسعة وتخفيف...والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت هذا الكتاب، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متَّفقاً على تأويله، كما يكون متَّفقا على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزّل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله، لا يحتاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نرَ شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن هناك تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا، قال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن المسيح عبد، وأن محمداً صادق، وأنك أمير المؤمنين حقاً." (28)

تعدّ فترة الخليفة المأمون إحدى الصفحات المشرقة في تاريخنا، فهو نموذج للحاكم المثقف الذي أدرك أن الحضارة لن تكون إلا بالانفتاح على ثقافة أمم أخرى! فأدرك أهمية تأسيسها على الحوار لا القمع، مما يسهم في توّسع آفاق العقل، ويدل على ثقة الحاكم بنفسه، وتفهم تصرفات الآخر (أحد المرتدين) الذي ترك دين الدولة الرسمي، وقرر العودة إلى دينه الأصلي (النصرانية) فلا يلجأ إلى سيف الإرهاب، بل نسمعه يستفهم بكل تهذيب ممن ارتد عن الإسلام **"خبّرنا عن الشيء الذي أوحشك من ديننا..."**

تدهشنا في هذا المشهد اللغة الراقية للخليفة المسلم، إذ يسأل المرتد عن أسباب نفوره من الدين الإسلامي! ومثل هذا الحوار، مازلنا نفتقده لدى كثير من الحكام!

هنا نلمس نموذجاً رائعاً للحاكم المثقف الواثق بدينه وعلمه، لهذا يرغب في الإصغاء للآخر المخالف لرأيه ورغبة فهمه، يدفعه إلى ذلك إحساس بالعدل، واحترام إنسانية الآخر، التي تتجسد باحترام فكره، وهنا علينا ألا ننسى أن المأمون شجع دعاة العقل (المعتزلة) بل قرّب أحد رموزها (الجاحظ) إذ عيّنه ً له، لهذا لم ينظر للآخر بصفته كائناً تابعاً لجبروته، يشهر سيف الموت، حين يخالفه الرأي أو

المعتقد، وعلى هذا الأساس لن نستغرب أن يحاور النصراني الذي يردّ عليه دون خوف "**أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم**"

فيجيبه الخليفة موظّفا ثقافته الدنيوية والدينية، كي يوضّح له ما أشكل عليه ونفّره من الإسلام "**لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان..وهذا تخير وسعة وتخفيف..**"

يبيّن لمحاوره عبر لغة المنطق أن ثمة نوعين من الخلاف: الأول هو أقرب إلى حرية اختيار المرء لبعض التفاصيل الجزئية، أما الأمور الجوهرية في الدين فقد تمّ الاتفاق عليها، لذلك فإن الخلاف في بعض الجزئيات يجعل الدين أكثر يسراً وسعة، فيختار المتدين ما يناسبه بعيداً عن الإكراه! وبناء على هذه المقدمة يصل إلى نتيجة منطقية: هي أن مصطلح الخلاف هنا غير مناسب، فيحلّ محلّه مصطلح (التخيّر) أ و (السعة) أو (التخفيف).

ثم يبيّن له النوع الآخر من الخلاف الذي يتعلق بـ"**اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا...**"

ثمة اتفاق على أصل الدين والتشريع في الإسلام (القرآن الكريم) لكن المسلمين قد يختلفون في تأويل بعض آياته، وهذا لن يضيرهم، فالرسول (ص) يقول: "**اختلاف أمتي رحمة**"

إذ إن الاختلاف يغني حياتهم، ويوسّع أفقهم! وهذا ليس حكرا على المسلمين، فقد اختلف كل من اليهود والنصارى في تأويل كتبهم المقدسة، وذلك بسبب طبيعة اللغة، التي تمتلك مفرداتها غنى دلاليا، فيتمّ تأويلها حسب الحالة النفسية والثقافية للمتلقي، مما يؤدي إلى تعدد القراءات، التي تنتج عدة دلالات تغني النص الديني، وبذلك لا يجب أن يؤدي تعدد قراءاته إلى السقوط في هاوية المعنى السلبي للخلاف، أي الصراع، إذ إن هذا السقوط، يكون نتيجة عوامل تكمن خارج النص (السلطة السياسية) التي تركّز على إحدى الدلالات، لتوظّفها في خدمتها، فتقمع تعددية الدلالة إعلاء لأحادية، تتبناها! عندئذ يتحول الخلاف إلى نقمة، أي إلى صراع فكري بين السلطة ومن يخالفها التأويل!

إذاً خلاف التأويل لم يتعلق بأركان الدين الإسلامي، التي تؤسس مشاعر الوحدة، وإنما في بعض التفاصيل، التي توحي باتساع الرؤية والفهم! مما يعزّز انفتاح النص الديني على الحياة المتجددة، فيسعى المجتهدون في التنافس من أجل تأكيد حيويته وصلاحيته لكل زمان ومكان، كي يؤسس المؤمن حياته على توازن الدنيا والدين، ويجنّبه المحن والقلق! لكونه يقوم على تعدّد الرؤى وحرية الاختيار، خاصة حين

يبتعد المسلمون عما يشوّه نصهم الديني بانغلاقهم على قراءة واحدة له!!

الآخر الفارسي:

كان التعايش بين العرب والفرس في "عيون الأخبار" يتراوح بين الانبهار (نتيجة إحساس العرب بالنقص تجاه حضارة الآخر) والاحتقار (نتيجة إحساسهم بالتفوق بسبب هيمنتهم عليه)!!

وقد وجدنا بعضهم يعامل الآخر باستعلاء (يرفض زواج ابنته القرشية من سلمان الفارسي) كما وجدنا بعضهم منبهراً بجمال أولاد الفرس يحس بدونية أولاده "قال رجل من أبناء المهاجرين: أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا من جوفها، وأولادنا كأنهم مساجر التنانير."**(29)**

ويبدو هنا التشبيه مستمد من الموروث الديني وتفاصيل الحياة اليومية، إذ شتان بين من انتسب أولاده إلى غلمان الجنة بجمالهم، ومن انتسب القبح والسواد (التنور المكافئ الدلالي للنار)

تنتفي، هنا، أية ملامح عنصرية ضد الآخر، على النقيض ثمة إعجاب به، يصل حد رفعه إلى مرتبة أعلى من

الذات! لذلك برزت لغة التعميم المتحمسة للآخر، التي تعتمد الانطباع لا العقل! لكن المدهش استخدام الموروث الديني في مصلحة الآخر! رغم اعتزاز العرب بكونهم أول من نشر هذا الموروث، لكن في مشاهد أخرى وُظّف بما يوحي بتوتر العلاقة، إذ نجد العربي يقول لأحد الموالي: "رأيت البارحة في منامي كأني دخلت الجنة، فرأيت جميع ما فيها من القصور، فقلت: لمن هذه؟ فقيل: للعرب، فقال رجل عنده من الموالي: أصعدت الغرف؟ قال: لا، قال: فتلك لنا."(30)

صحيح أن هذا المشهد يقوم على المتخيّل الوهمي (المنام) لكنه يفضح صراعاً خفيا بين الفريقين، ورغبة كل منهما في إعلاء منزلته الدينية على حساب الآخر! فيستقويان بالموروث الديني، الذي أصبح ملكاً للعرب وللفرس، يدافع كل فريق به عن نفسه، فإذا كانت القصور في الجنة ملكاً للعرب، فإن الغرف التي جعلها القرآن الكريم سُكنى لأعلى العليين من الأنبياء والصالحين يسكنها الموالي! وبذلك شكّل النص الديني مرجعية أساسية لكليهما!

لعل ملامح التوتر العرقي أبرز ما تتجلى في رفض التزاوج بين العرب والفرس، فقد لاحظنا قبل قليل كيف رفض عبد الله بن عمر تزويج أخته لسلمان الفارسي، على نقيض والده

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتغلبت العصبية على الابن، على نقيض الأب! مع أنهما يجتمعان معاً تحت راية الإسلام!

نجد تمييزاً بين الفرس المسلمين (الموالي) والمجوس (غير المسلمين من عبدة النار) فهؤلاء لا يتركهم ابن قتيبة وشأنهم، بل تُعرض عليهم الهداية إلى الإسلام فقد "صاحب رجل من القدرية مجوسياً في سفر، فقال له القدري: يا مجوسي، ما لك لا تسلم؟ قال: حتى يشاء الله! قال قد شاء الله ذلك، ولكن الشيطان لا يدعُك، قال المجوسي: فأنا مع أقواهما." (31)

تدهشنا هنا حرية التعبير التي يوثّقها لنا رجل متدين كابن قتيبة، كما تدهشنا العلاقات الإنسانية بانفتاحها على المختلف، فالمسلم يرافق المجوسي في السفر، رغم أنه يعتقد بكفره، لكنه لا ينسى دور الداعية، فيحاوره، ويحاول هدايته، فنفاجأ بإصراره على اتباع الشيطان، فهو في نظره الأقوى! وبذلك نعايش انفتاح المؤلف المسلم على الكافر، تُرى هل هي الثقة بالنفس، فالدين قوي لن يهتزّ برأي مجوسي فيه؟!

الملاحظ أن ابن قتيبة في مشهد آخر يرسم صورة سلبية للمجوس، ليس بسبب اعتقادهم الديني فقط، وإنما لكونهم يقومون بممارسات مستهجنة (الزنى بالمحارم) فقد "استعمل

معاوية رجلا من كلب، فذكر المجوس يوماً، فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت عشرة آلاف ما نكحت أمي، فبلغ ذلك معاوية، فقال: قبّحه الله! ترونه لو زادوه فعل وعزله."**(32)**

لم تكن الصورة السلبية من نصيب المجوسي فقط، وإنما وجدنا العربي، الذي يحتل منصب الوالي يتميز بالحمق، لهذا استحق العزل، لأنه لم يتقن فن الحديث، ولم ينتبه إلى دلالات اللغة، التي استخدمها بما يُدينه (حين حدّد المبلغ المعطى له)!

لن تطغى "في عيون الأخبار" الصورة السلبية للمجوس، فقد نظر إليهم ابن قتيبة كالعادة بعين العدل، لهذا أورد مدح مجوسي بلسان أعرابي:

شـــهدت عليـــكَ بطيـــب الحشـــاش

وأنـــــك بحـــــر جـــــواد خِضَـــــم

وإنـــــك ســـــيد أهـــــل الجحـــــيم

إذا ترديـــــــت فـــــــيمن ظلـــــــم

نجد في هذه الصورة كيف منح الشاعر المجوسي صفات إنسانية رائعة (طيبة القلب) كما وصفه بصفات، تعتز بها العرب عادة (الكرم) ثم عمد إلى خصوصيته الدينية، فوصفه بصفة يعتز بها المجوسي (الذي يعبد النار) فهو "سيد أهل الجحيم" دون أن يخل الشاعر باعتقاده، فالجحيم من منظور إسلامي يحمل دلالة سلبية (عقاب للكافرين) تناقض الدلالة بين الإيجابية (لدى الآخر) وبين السلبينة (لدى الأنا) أضفى حيوية على النص أثناء التلقي!!

هناك مشهد مؤثر، لا يفصح عن تشفي العرب المنتصرين بزوال ملك الفرس، واستعلائهم، بل يوحي بالتماس الحكمة، فقد "تذاكر حذيفة وسلمان أمر الدنيا، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدي سرير كسرى، وكان أعرابي من غامد يرعى شويهات له، فإذا كان الليل صيّرها إلى عرصة إيوان كسرى، وفي العرصة سرير رخام كان يجلس عليه كسرى، فتصعد غنيمات الغامدي إلى ذلك السرير."

إن افتتاحية هذا المشهد أنقذته من السياق العدائي للآخر، باعتقادنا، فقد استهل بجملة توحي باستخلاص العبرة "تذاكر ..." التي توحي بالتأمل فيما تقدمه الدنيا من عبر، إذ

إن الأيام لا أمان لها، تهبط بالإنسان من شاهق إلى خفض، فيتحول سرير كان كسرى ينام فيه إلى سرير، تنام فيه الشياه!

إن غدر الزمان ليس موجهاً إلى كسرى فقط، بل يكاد يكون نصيب كل إنسان في هذه الدنيا! مما يدفع المرء إلى التأمل في صروف الدهر! إذ حلّ، مع مرور الزمن، أضعف خلق الله محل أقوى الملوك! وفي هذا التغير تكمن أبلغ العبر! فالهدف الديني واضح، ومنذ الافتتاحية تمّ (تذاكر أمر الدنيا) ليحسب الناس حساب الآخرة! فلا يأمنوا الزمان، ولا تغرهم قوتهم، فالمظاهر الدنيوية لا معنى لها لهذا تحل سرير كسرى إلى حظيرة! مثل هذا التناقض، يؤثر في وجدان المتلقي، فيعيد النظر إلى ذاته وإلى الآخر! إذ دوام الحال من المحال! فالزمن يسرع بنا إلى النهاية مبدلاً قوتنا ضعفاً، فالعاقل من اتعظ بغيره! ونجا بروحه قبل فوات الأوان!

الصين:

بدت صورة الآخر (الصيني) في المخيلة العربية قرينة الحكمة، التي يتعلم منها الإنسان، وخاصة الحكام، تعمّد نصحهم بلغة غير مباشرة، كي ينجو برأسه، فاختار زاهداً، يعلي شأن الدين على الدنيا، فقد حدّث (المنصور العباسي) عن

أحد ملوك الصين "كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى يوماً بكاء شديداً، فحثّه جلساؤه على الصبر، فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم بالباب يصرخ، ولا أسمع صوته، ثم قال: أما إذا ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألا يلبس ثوبا أحمر إلا متظلم... فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شحّ نفسه، وأنت مؤمن بالله، ثم من أهل بيت نبيه أ لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك!"(34)

إذا كان ابن المقفع اختار نصح الحكام على ألسنة الحيوانات، فإن ابن قتيبة جعل النصيحة فعلاً، يقوم به أحد ملوك الصين، فيغدو أمثولة للعدل! رغم كونه مشركاً، فهو يرى "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها" كما يقول الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) لهذا توجه إلى الخليفة بالخطاب صراحة (وأنت يا أمير المؤمنين) ليرسّخ تصرفات الملك الصيني وحبه للعدل في الوجدان الحكام، نكاد نشك بحقيقة هذه القصة لصراحة لغتها، فقد قُتل ابن المقفع، الذي وجّه النصيحة بلسان الحيوان! لكن لا بد أن نعترف بفضل كتاب "عيون الأخبار" الذي عرّفنا على انفتاح

أجدادنا، فجعلوا المشرك العادل قدوة لخلفائهم! فلم نجد لدى المسلمين تعصباً للذات، فقدّموا صورة إيجابية للآخر إلى جانب السلبية، دون أن يسكتوا عن لحظات ضعف تشوب ذواتهم!

كل ذلك يدفعنا للإعجاب بإنجازات ابن قتيبة في مجال تقديم صورة الآخر، فقد حاول أن ينظر إليه بعين العدل!

****

الحواشي:

1. القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية (13)
2. د. إحسان عباس "تاريخ النقد عند العرب" دار الثقافة، بيروت، ط3، 1981، ص104 -105
3. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري "عيون الأخبار" المجلد الرابع، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص267 -269
4. ابن قتيبة "عيون الأخبار" المجلد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص73
5. ابن قتيبة "عيون الأخبار" المجلد الثالث دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص165
6. المصدر السابق، ص112 -113
7. القرآن الكريم "سورة المائدة" آية (31)
8. ابن قتيبة "عيون الأخبار" المجلد الأول، ص296
9. ابن قتيبة "عيون الأخبار، المجلد الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص67
10. أبو حيان التوحيدي "مثالب الوزيرين" تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق، ط1، 1961، ص10

11. "عيون الأخبار" المجلد الأول، ص20
12. المصدر السابق ، ص344
13. الجاحظ "كتاب البخلاء" تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ج2، ص160
14. "عيون الأخبار" المجلد الثاني، ص52
15. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي "مختار الصحاح" المكتبة الأموية، دمشق، بيروت، مكتبة الغزالي، حماة، 1972، راجع مادة صلى ص368
16. "عيون الأخبار" المجلد الثاني، ص 269
17. الصدر السابق، ص370
18. المصدر السابق نفسه، ص297
19. نفسه، الصفحة نفسها
20. نفسه، ص368
21. "عيون الأخبار" المجلد الأول ص39
22. المصدر السابق، ص199
23. الإمام أبو الحسن البلاذري "فتوح البلدان" تحقيق طه عبد الرؤف سعد وعمرو أحمد عطوة، دار ابن خلدون، الاسكندرية، دون تاريخ، ص150

24. راجع "تاريخ الطبري" ج6 لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ط1، 1964، ص499
25. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري "الشعر والشعراء" حققه د. مفيد قميحة، راجعه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985، ص19
26. "عيون الأخبار" المجلد الأول، ص3
27. "عيون الأخبار" المجلد الرابع، ص58
28. "عيون الأخبار" المجلد الثاني، ص154
29. "عيون الأخبار" المجلد الثالث، ص39
30. "عيون الأخبار" المجلد الثاني، ص213
31. المصدر السابق، ص142
32. المصدر السابق نفسه، ص52
33. نفسه، ص371
34. نفسه، ص335

صورة الآخر لدى أبي حيان التوحيدي

في عصر اضطرب فيه النظام السياسي وازدهرت فيه الثقافة ولد أبو حيان التوحيدي (310هـ تقريباً) فقد اختار الحكام الأعجميون (بنو بويه) وزراءهم لمقدرتهم الإدارية والبلاغية معاً(1) كابن العميد والصاحب بن عباد...إلخ فإذا لم يكن الوزير فقد كان من مشجعي الأدب والفكر، ولو تأملنا مجلس أحدهم (أبي عبد الله العارض ابن سعدان) الذي صحبه أبو حيان في ليالي كتابه "الإمتاع والمؤانسة" لوجدناه يشمل تنوعاً عرقياً ودينياً وفكرياً مدهشاً (ابن شاهويه) القرمطي وبهرام المجوسي وابن مكيخيا النصراني...إلخ)

يحسن أن نشير في البداية إلى الاختلاف حول نسبه (عربي أم فارسي) يقول د. إبراهيم الكيلاني وهو أكثر المحققين المهتمين بتراث التوحيدي، يرى **"آراء المؤرخين ...في هذا السبيل بدت جدّ متضاربة، فمن قائل إنه بغدادي، ومن قائل إنه شيرازي أو نيسابوري أو واسطي..."(2)** أما عبد الرحمن بدوي محقق كتاب "الإشارات الإلهية" فيرجح في

مقدمته أنه من الموالي الذين اختلطت دماؤهم، وغلب عليها العرق الفارسي.

لكننا لمحنا في الليلة الأولى (في كتابه "الإمتاع والمؤانسة") قول الوزير ابن سعدان لأبي حيان ما يرجح نسبته لبغداد **"تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنس، لأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزمن...فأجبني عن ذلك كله باسترسال وسكون بال، بملء فيك، وجمّ خاطرك، وحاضر علمك، ودع عنك تفنن البغداديين..."(3)**

قد تكون النسبة إلى بغداد هنا تعني انتساباً لمدينة بغداد (المرجح أنه عاش معظم أيامه فيها) دون أن يعني ذلك بالضرورة أن أصله عربي، وقد يكون انتساباً إلى الطريقة الفنية في الحديث والكتابة (التنميق والمجاملة والاستطراد...)

لقد ضاع نسبه، وأهمل التوحيدي الحديث عنه، وهذا دليل أنه لم يكن مجال فخر، لكننا نستطيع أن نؤكد انتسابه إلى الهوية الإسلامية التي كانت اللغة العربية إحدى أهم تجلياتها!

ثقافته:

تلقى علومه على يد علمائه الذين ينتمون إلى مذاهب دينية وفكرية مختلفة، فاستقى علوماً متعددة (أبو سعيد السيرافي الذي علمه النحو، علي بن عيسى الرماني الذي تلقى على يديه علم الكلام والمنطق، وهو أحد أئمة اللغة الأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة، كما درس الفقه الشافعي على أساتذة ثلاثة: القاضي أبو حامد المروروذي وأي بكر محمد بن علي القفال بن إسماعيل الشاشي، والقاضي أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني)

وتتلمذ في الفلسفة والمنطق على يد أبي زكريا يحيى بن عدي النصراني، كما درس الحكمة والمنطق على أبي سليمان محمد بن نهرام السجستاني، وهما من تلاميذة الفارابي الذي جعل الأخلاق أساساً للسلوك، ونادى بنقاء النفس متأثراً بالتصوف وبالفلسفة اليونانية(4)

إن هذا الانفتاح على الثقافات المتنوعة (دينية، فلسفية، علمية، تصوفية) بكافة تلوناتها (العربية واليونانية والفارسية...) جعلته مثقفاً موسوعياً منفتحاً على الآخر! كل ذلك أهلّه لتقديم أفكار جديدة وجريئة أدت إلى اتهامه بسوء

العقيدة، لكننا حين نقرأ كتابه "الإشارات الإلهية" لا نستطيع أن نقبل هذا الاتهام، إذ نلمس فيه نبرة الإيمان وحرارة التهجد.

معاناته:

رغم ثقافته الموسوعية والمقدرة الإبداعية، عاش فقيراً لم يجد مصدر رزق له سوى الوراقة التي دعاها **"حرفة الشؤم"** ليس لمردودها القليل فقط، وإنما لكونها تأتي على البصر والعمر، على حد قوله، لهذا لاحقه إحساس الغبن، فقد عاش مغترباً منبوذاً من كبار عصره!فطغى هذا الشعور على حياته، حتى إنه يفتتح إحدى رسائله بالدعاء للغريب: **"أطال الله بقاءكم، وأدام كرامتكم ... وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم"**(5)

اجتمعت مصائب الدنيا عليه، فامتلأت حياته غربة وخوفاً، لهذا يبدأ رسالته بدعاء، لا يمكن أن يخطر على بال إنسان، إنه الدعاء لكل غريب بالسلامة من أصحاب السلطة قبل الغنيمة!! ومثل هذا الشعور يزيد الإنسان تعاطفاً مع الآخر وإحساساً بمعاناته وانفتاحاً عليه! ولاشك أن إحساس الغربة يتضخم بالفقر والعزلة، خاصة إذا كان الإنسان مثقفاً موهوباً، يمتلك عقلاً لا يرضيه سوى التساؤل والبحث عن الحقيقة والعدل!

لعل طغيان حس الاغتراب لديه دفعه إلى تأليف أول كتاب في "الصداقة والصديق" في اللغة العربية، بعد أن افتقد الصديق، فوجد فيه تعويضاً نفسياً، لما افتقده في الواقع، فجسّد أرقى مفاهيم الصداقة، ومنحها مكانة رفيعة في الحياة، لعله يسهم في ارتقاء أحد أسسها.

الانفتاح على الآخر في كتبه:

تبدو لنا الثقافة الإسلامية في عصره، قد ألغت الحواجز النفسية والعرقية والدينية لدى المثقف، هاهو ذا التوحيدي يصف لنا كتابه (البصائر والذخائر) **"حوى من الذهن لواقحه، ومن العقل قرائحه، ومن العلم غنائمه... ومن التجربة أعيانها، ومن الأمم ودائعها، ومن الحكمة فرائدها، ومن الأخلاق محاسنها، ومن العرب بيانها، ومن الفرس سياستها، ومن اليونان دقائقها"(6)**

إننا أمام ثقافة الانفتاح على التجارب العلمية والإنسانية، فكل أمة لديها ما يميزها عن الأمم الأخرى، والحكيم من يتعلم منها جميعاً! وهذا ما فعله مثقفو القرن الرابع الهجري/ مما أنتج حضارة متميزة!

لم يكتف التوحيدي بالسماع عن شيوخه المتنوعي الأعراق والثقافات والأديان، بل لجأ إلى الكتب، فبذل جهداً

مخلصاً **"في تنقيتها وتوخي الحق منها"**وهو قبل أن يثبت الأقوال والأفكار كان يعرضها **"على من يوثق بصناعته، ويرجع إلى نقده واختياره"** وبذلك كان حضور الآخر في ثقافته وفي رأيه ونقده حضوراً مؤثراً، فيهتم بالثقافة الفاعلة، التي تفيد الناس في علاقاتهم الدنيوية والأخروية ("الإمتاع والمؤانسة"، "البصائر والذخائر" "الإشارات الإلهية"...) ففي إحدى ليالي الإمتاع والمؤانسة، يطلب منه الوزير أن يخبره بحديث العامة أثناء الأزمة الاقتصادية، التي حدثت في بغداد في عهده، كما لحظنا في كتبه، على حد قول خوان أنطونيو باتشيكو بانياجوا **"سيرة ثقافية ذاتية ... تنضوي تحت كلمة "أدب" تاريخ الأدب، والجدل، والتصوف، ما يمكن أن ننعته بـ"الفرد العالمي"(7)**

لا ينغلق التوجيدي على (الأنا) فبدت معاناته وكأنها معاناة عامة، إذ انفتحت الكلمة لديه على آفاق إنسانية رحبة، كما انفتحت على الفلسفة والأدب، فكان فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، كما وصفه ياقوت الحموي.

ملامح من فلسفته :

شغلت التوحيدي أسئلة الوجود ، فكان دائب التساؤل والحوار مع الآخر (المعلم، الصديق، الوزير...) بحثاً عن الحقيقة، حتى إن كتابه "الشوامل والهوامل" حوار مع مسكويه، يقوم على تساؤلات حول الإلهيات والطبيعيات والإنسانيات، ليعرف علة الشيء "وهو بذلك كله يمهّد لبيئة مناسبة للبحث العلمي، الذي يسترشد بعلامات استفهام فلسفية... فيتمكن من تحريك السكون وغربلة المتوارث، وفتح آفاق جديدة للمعرفة"(8)

لذلك يسأل مسكويه "**عن ماهية النفس، فإن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان!**" فيجيبه محدداً له أهم معالم هويته: **العقل**، فالنفس إذا عقلت العقل صارت المعقول والعاقل لا فرق بينهما، كما أن شواغله الفلسفية البحث عن طريقة، ينشئ بها علاقات إنسانية متوازنة، فألف "الصداقة والصديق" وسأل مسكويه: **ما السبب في تصافي شخصين لا تشابه بينهما في الصورة (العرق) ولا تجاور بينهما في الدار (البيئة)...؟**

فيجيبه: السبب هو التعلق بما هو أصيل وطبيعي (اتفاق النفسين بالمزاج) وسبب عرضي (المودة، المنفعة، اللذة، الأمل، الصناعات، الأغراض ، المذاهب والآراء، العصبيات)

يلفت النظر هذا التفريق بين الجانب النفسي (اتفاق المزاج) الذي هو جوهر العلاقات الاجتماعية، والجانب العرضي!! لهذا بدا مشغولاً بما يعتري الناس من قبيح الأخلاق، كما بدا معنياً بالتواصل الإنساني، يثير أسئلة حوله، ويضع يده على أهم معوقاته، فيقول: **لِمَ ذم الإنسان ما لم ينله؟ ...وعلى ذلك عادى الناس ما جهلوا! لِمَ لم يحبوه ويطلبوه ويفقهوه، حتى تزول العداوة، ويحصل الشرف، ويكمل الجمال...؟**

نجد ضمن هذا التساؤل إجابة التوحيدي التي تؤكد أن العلم هو المخلص الأساسي من القبح الذي يعتري البشر، ويسيء إلى علاقاتهم! وأن الجهل يعزّز الشر والعداء بينهم، فأسمعنا صوت مسكويه، يقول: **إذا أحب الإنسان نفسه أحب صورتها، والعلم صورة النفس، ويعرض من محبة صورة نفسه أن يبغض ما ليس له بصورة...**

هذا ما يتعلق بأعماق الذات الإنسانية وكيفية إصلاحها بالعلم الذي هو منبع الأخلاق، لكن التوحيدي ينتبه إلى العلاقة بين البشر، فيرى ضرورة **المعاونة** التي هي أساس المدنية في رأيه، ومثل هذه المدنية لن تتم إلا بمعايشة الناس ومخالطتهم، وهذا يؤدي إلى **لذة العمر وطيب الحياة**، لذلك

يدعو الإنسان إلى التسامح، فيستخدم لغة المنطق: **"وأنت لم تجد من نفسك _ وهي أخص الأشياء بك_ مساعدة لك على رضاك، ولا من أخلاط بدنك _ وهي أقرب الأمور إليك_ موافقة لهواك، فكيف تلتمسها من غيرك...(9)**

يلفت نظرنا هذا الحوار المباشر للمتلقي، الذي يتماهى مع الذات، فيحاول أن يقنعه بضرورة تحمله لأخيه الإنسان، مثلما يقنع ذاته، التي تتمرد عليه، فيتصارع العقل والهوى، لذا من البدهي ألا يكون الصديق على الصورة التي نرغبها دائماً؟!!

الآخر الفارسي:

انطلق التوحيدي في تقديم صورة الفرس من ثقافته الإسلامية المنفتحة على الآخر، فلمسنا لديه الكثير من الحكم الفارسية والمجوسية ...، إنه يبحث في حكمة الفرس عما يجعل حياة الأمة أفضل **"الفرس تقول: لم يجتمع ضعفاء إلا قووا، ولم يتفرق أقوياء إلا ضعفوا حتى يخضعوا"**

كما تجعل هذه الحكم حياة الإنسان أفضل لذلك تتنوع صيغة الخطاب فيها بين الصيغة العامة التي تستخدم ضمير الجماعة، كما رأينا سابقاً، وبين الصيغة الفردية التي تخص بالخطاب الإنسان نفسه **"كانت الفرس تقول: من قدر على أن**

يتحرّز من أربع خصال، لم يكن في تدبيره خلل: الحرص والعُجب، واتباع الهوى، والتواني.

فنسمع صوت التوحيدي معقباً على هذه الحكمة "**لقد صدقت الفرس في هذا، والأمم كلها شركاء في العقول، وإن اختلفوا في اللغات، ولا أحد قد يطمح إلى الكمال، ويطاول إلى الفضل، إلا وهو يعلم أن الحرص يسلب الحياء، والعُجب يجلب المقت، واتباع الهوى يورث الفضيحة، والتواني يكسب الندامة**"

وبذلك أكّد أن الاختلاف اللغوي لا يعني تبايناً في العقول، فالشعوب جميعاً تملك الحكمة لأنها تملك العقل، كما بيّن كيف احتفى التراث الإسلامي بحكام وعلماء من الفرس، فأورد التوحيدي ما لهم وما عليهم!

1_**رجال السلطة:**

عانى أبو حيان توحيدي من السلطة، فقد نفاه (المهلبي) من العراق لسوء عقيدته، واحتقره كل من ابن العميد والصاحب بن عباد، الذي قال له حين مرّ على ديوان الوراقة (حيث يعمل التوحيدي) وأراد أن يقوم لتحيته: **ليس مثلك من يقوم لمثلنا**!! متجاهلاً مكانته الأدبية، ونظر إليه بصفته

خادماً، ربما لإحساسه بتفوقه عليها في مجال الأدب! وقد ردّ التوحيدي عليه وعلى ابن العميد بإهانة تبقى على مرّ الأيام، في كتابه "مثالب الوزيرين" حتى إنه يخاطب الأخير قائلاً: **هل عندك أيها الرجل المدعي للعقل، المفتخر بالمال والمتعاطي للحكمة إلا الحسد والنذالة؟ تزعم أنك من شيعة أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس... فيا مسكين استحِ فإنك لا مع الشريعة ولا مع الفلسفة وقد خسرت الدنيا والآخرة(10)**

إنه يسلخ ابن العميد عن جميع المكارم، مما يجعله يخسر الدارين، فيستحق لقب (**مسكين**) وأبطل ادعاءه بأنه فيلسوف، يسير على خطا الفلاسفة اليونانيين!

أما ابن عباد، فيخدعه "**الصبي ويخلبه الغبي، لأن المدخل عليه واسع، والمأتي سهل، وذلك بأن يقال: مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه، ورسائل منظومه ومنثوره، ...فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسّم، ويطير فرحاً ويتقسّم... ويحاكي المومسات...**"(11) وقد وصفه في مكان آخر بـ"**المخنث الأشمط**"

يبدو لنا التوحيدي مدركاً لنقاط ضعف ابن عباد، لهذا لم يمدحه متملقاً، بل حاول أن يبرز سعة علمه أمامه، بصفته نداً له، فكان جزاؤه الإهانة! فردّ عليه التوحيدي بأن وصفه

بخفة العقل كالصبي، ونزع عنه الرجولة، حين رسمه بصورة هزلية (كاريكاتورية) تضعه في خانة المومس!! فيصيب منه مقتلاً، إذ يصمه بأفظع إهانة يمكن أن تلحق برجل باعتقادنا!

يعلن التوحيدي بأنه جانب الموضوعية في "مثالب الوزيرين" لكنه يلتمس لنفسه العذر **"إني رجل مظلوم من جهة، وعاتب على معاملتي، وشديد الغيظ لحرماني...فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب... كان الوصف أصدق والصدق به أخلق..."**

وقد كان مدركاً لسطوة الحاكم، لذلك لم ينشر كتابه إلا بعد وفاته **"فإن جانبه مهيب، ولمكره دبيب..."** كما أنه لم يتخلَ التوحيدي عن موضوعيته بشكل كامل، لذلك تحدث عن بعض الإيجابيات: **"إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاw... "**

يلاحظ أنه محق في بعض نقده (تكلّف أسلوبه) حتى إنه أورده بصوت مجوسي، يُدعى الفيروزان: **"... إني أظن لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك!"(12)**

إنه يسخر من لغة لا هوية لها، ليست عربية ولا فارسية، حتى إن ابن عباد لو دعا ربه بمثل هذه اللغة الهجينة لما استجاب له!!

رغم أن الوزيرين المهجوين من فارس، لكننا لم نلاحظ أن التوحيدي عاب عليهما هذه النسبة، فلم يرد هذا الأمر، كما أنه لم يُعِب الأسلوب الفارسي، بل نزّهه كالأسلوب العربي عن هذا التكلف! إذ يهمه قرب اللغة من القلب، لكن حين تحدث عن أخلاق ابن العميد، وصفه بـ**"بغض العرب والأكلة"** لأنه كان بخيلا! فتبدو كراهية العرب في زمنه من مثالب الأخلاق كالبخل تماماً، إذ مازال للعرب بعض الوزن، فقد حاول الحكام الفرس وغيرهم الحفاظ على الخلافة العباسية رغم ضعف خلفائها! لهذا من المستبعد هجومه عليهما لكونهما فارسيين، فقد مدح الوزير البويهي الآخر (ابن سعدان) الذي أكرمه، ومنحه المكانة التي يستحقها، بل جعله نداً له، إذ يشترط عليه؛ كي يبدأ مؤانسته أن يستخدم في حواره معه **"كاف الخطاب، وتاء المواجهة"** فالكلفة في الخطاب وتفخيم المخاطب ترهق نفس المتكلم، كما تذكّر رجل العلم (التوحيدي) بأنه دون رجل السلطة.

وقد سمح له الوزير قائلاً "**إن الله تعالى على علو شأنه، وبسطه ملكه، وقدرته على جميع خلقه_ يواجه بالتاء والكاف...وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، والأنبياء ...وإني أعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه، ويحتسبون أن في ذلك ضعة أو نقيصة ...وأظن ذلك لعجزهم وفسولتهم**"(13)

لاحظنا لدى التوحيدي كبرياء المثقف، الذي مكانته الأدبية، تؤهله للمساواة مع الحاكم، على الرغم من مخالطته للعامة وحبه للغرباء، وما يعانيه من فقر!!

إذاً بدا معجباً (ابن سعدان) لكونه يتمثل الروح الإسلامية السمحة، التي تلغي الفارق بين الحاكم والمحكوم، كما بدا معجباً بوزراء آخرين كـ(خالد بن برمك) الذي يصفه بأروع الصفات "**ما رأيت مثل خالد بن برمك، بلاغته أعرابية، وطاعته أعجمية، وآدابه عراقية، وفصاحته شامية...**"(14)

يبدو لنا إعجاب التوحيدي بآل برمك كان كبيراً، لكنه لم يصرح به مباشرة، فقد كان يأتي بأخبارهم عبر إسناد لا ندري إن كان وهمياً أم أنه يستند إلى ذوي العلم والأدب؟ يقول مثلاً "**حدثني كرامة قال: قدم علينا رجل من ولد معدان بن عبد المغني، وكان شاعراً قد نال من**

البرامكة، فقلنا له: كيف تركت آل برمك؟ قال تركتهم وقد أنست بهم النعمة حتى كأنها منهم أو بعضهم."

ولو عدنا أكثر إلى الوراء، إلى زمن العداء بين الإسلام والفرس، يحدثنا التوحيدي عن ذكاء القائد الفارسي (الهرمزان) الذي هُزم في معركة القادسية، وحين أراد الخليفة قتله **استسقى ماء، فأتي به، فأمسك القدح في يده واضطرب، فقال له عمر: لا بأس عليك، إني غير قاتلك حتى تشربه، فألقى القدح من يده، وأمر عمر بقتله، قال: أو لم تؤمّني؟ قال: كيف أمنتك؟ قالت: قلت لا بأس عليك حتى تشربه، فقولك: لا بأس، أمان، ولم أشربه، فقال الزبير وأنس وأبو سعيد الخدري: صدق يا أمير المؤمنين، فقال عمر: قاتلك الله، أخذت أماناً ولم أشعر!"(15)**

ينتهز القائد الفارسي الرغبة الأخيرة المتاحة له قبل الموت، فطلب قدح ماء، ليجعله سببا في حياته، فيأخذ الأمان حتى يشرب الماء، فيرميه، وبذلك يسعفه ذكاؤه ونزاهة المسلمين، إذ يفسّرون قول الخليفة لصالحه، فلم يجاملوه!!

وفي المقابل قدّم ملك الفرس (أنو شروان) حكيماً متسامحاً، فقد رفع له أن النصارى يعيبونه ويتهمونه بالتجسس، فقال: **"من لم يظهر ذنبه لم تظهر منا عقوبة له"**

فهو لا يأخذ الناس بما يظهرون، حتى لو كانوا أعداء ومخالفين له في الدين!

تتضح هذه المعاملة الراقية التي تقترب من روح الإسلام المتسامحة، التي تجعل قيمة الإنسان في عمله **"اصطناعنا له لا لنسبه"(16)** بهذا يردّ الملك الفارسي على العامة، التي نقدته لتقديمه رجلاً لا شرف له ولا نسب! بل إن (أنو شروان) يتستر على رجل سرق جام ذهب في مجلسه، وحين تفقده صاحب الشراب، ولم يجده قال: لا يخرجن أحد حتى يفتش، **فقال أنو شروان: لا تعرضوا لأحد، فقد أخذه من لا يرده، ورآه من لا ينمّ عليه"**

يبدو لنا أن حكمة هذا الملك وأقواله شكلت جزءاً من الثقافة الإسلامية، إلى درجة يستشهد بها الأدباء، فنجد الحسن بن مسلم يقول لصديقه الذي عاتبه لابتعاده عنه **"غير أني أحيا بالتذكر والرجاء مدى النأي إلى اللقاء، وأجد عقلي بما أفدت منك متقوّتا زمناً طويلاً، كقول أنو شروان: قوت العقول الحكم، وقوت الأجساد المطعم"(17)**

كذلك ردّد التوحيدي أقوال الوزير الحكيم (بزرجمهر) التي تتعلق بالعلاقات بين الناس، وبما أنه عانى من توتر علاقته بهم، ركّز على ما يداوي جراحه، إذ يتوجب عليه

معاملتهم حسب مستواهم الثقافي **"عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، والعامة بالرغبة والرهبة، وسوسوا السفلة بالمحاور** (الخشبة) **صراحاً"**

افتقد التوحيدي معاملة الأحرار، وعومل معاملة الخدم، فانتقى حكماً تنصفه، وتعزّيه، كقول بزرجمهر **"مما يدل على أن القدر حقّ تأتي الأمور لأهل الجهل، وتحرفها عن العلماء مع علمهم"(18)**

ونظراً لأهمية أقواله أخذ المعجبون بها، ينسبونها لمن يستحقها، كما يخبرنا التوحيدي **"حدثني ثقة أنه رأى رجلاً من أصحاب الإمامية، يضع على حكم بزرجمهر أسانيد أهل البيت رضوان الله عليهم، فقيل له: ما هذا؟ فقال: ألحق الحكمة بأهلها!"(19)**

إن تعصب أحدهم لآل البيت، دفعه للتزوير، فأنطقهم كلاماً شريفاً (لبزرجمهر) يتناسب ونسبهم الشريف!! كأنه يضنّ على الآخر أن يقول الحكمة، لهذا فضح التوحيدي مثل هذا الانحراف!

2_علماء من فارس:

قدم لنا التوحيدي في كتبه النشاط العلمي الذي كان منتعشاً في القرن الرابع الهجري، ولو تأملنا العلماء الذين أبدعوا في علوم اللغة العربية لوجدنا معظمهم ينتسب إليها بالثقافة لا بالدم، فبدا هؤلاء (علماء مسلمين) معتزين بنسبهم، وقد حدثنا التوحيدي عن تلميذ للكندي، ومولى للخليفة المعتضد، هو **"أحمد بن الطيب لا يحب أن يخطئ أحد اسمه واسم أبيه، وولاءه، والبلد الذي فيه مولده ومولد أبيه** (خراسان) **ثم بعد ذلك قيمته ومقداره من العلم..."** وفي الوقت نفسه نجد هؤلاء العلماء يحبون اللغة العربية حتى إن البيروني نجده يقول **"أن أهجى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية"**

لعل أهم شيوخه هو (أبو سليمان السجستاني) الذي يصفه في كتبه بأروع الصفات، وهو حين يقارنه بعلماء زمانه نجده يقول: **"أدقهم نظراً وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولكنة ناشئة عن العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد في الخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز..."(20)**

تبدو لنا الحاسة النقدية، لدى التوحيدي فيبين محاسنه ومساوئه، لكن اللافت للنظر، هنا، نقد لهجة أستاذه ولكنته وأسلوبه، صحيح أنه من أفضل العلماء وأعمقهم، غير أنه لا يعرف سيولة الحديث بسبب لكنته الأعجمية، لهذا تبدو جمله متعثرة !!

يبدو أنه يتلقى علومه عن طريق سماع معاصريه، أما السابقون له فعن طريق (القراءة) لذلك نسمعه يمتدح كتاب (أبي زيد البلخي) فيقول **"لم أر في القرآن كتاباً أبعد مرمى، ولا أشرف معان من كتاب لأبي زيد البلخي، وكان فاضلا يذهب رأي الفلاسفة، ولكنه تكلم في القرآن بكلام دقيق لطيف ...ويقال له "جاحظ خراسان"**

لنلاحظ التمازج الثقافي بين البلاد الإسلامية، فعندما ينبغ عالم في خراسان يقرن اسمه بعالم نبغ في بغداد في زمن مضى هو الجاحظ!

أما علاقته بأبي سعيد السيرافي فتجتمع فيها الصداقة بالعلم، لهذا منحه أروع الصفات العلمية والإنسانية **"عالم العالم، وشيخ الدنيا، ومقنع أهل الأرض"** لذلك يصف علاقته به قائلاً **"وأما سيدي أبو سعيد (السيرافي) فوالله إني لأجد به وجداً أتهم به نفسي، ... وإني أرى حديثه آنق من المنى إذا**

أدركت، ومن الدنيا إذا ملكت، وإن تمازجنا بالعقل، والروح، والرأي، والتدبير، والنظر، والإرادة، ، والاختيار، ، والعادة ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم، وتراضعا من ثدي، ونوغيا في مهد..."

إننا أمام علاقة فريدة من نوعها بين معلم وتلميذ، ارتقت حتى أصبحا روحاً في جسدين! فاختلط المعلم بالصديق! روحياً وعقلياً مع صديقه، يبلغ هذا التمازج أقصاه حين يشبه علاقته به بعلاقة التوأم بأخيه، فيجعلها أقوى من رابطة الدم في أنصع تجلياتها (التوأم)

يدهشنا هذا الوصف لأستاذه الذي تترقرق فيه عاطفة نبيلة، تجعله يرى حديثه أجمل من أمنيات تتحقق!

وقد كان معظم علماء عصره أصدقاء له، حتى إننا وجدنا لديه ظاهرة التأليف المشترك التي مازلنا نفتقدها إلى اليوم، فقد كان كتابه "الهوامل والشوامل" نتيجة جهد مشترك بينه وبين مسكويه، وقد بناه على شكل أسئلة يطرحها التوحيدي عليه، لكن حين نتأمل هذه الأسئلة نجدها ليست تلك التي يطرحها تلميذ على أستاذه، بل هي أشبه بحوار ندي، وهو رغم إعجابه بمسكويه يرى ما يعيب العالم فيه، فيقول **"أكره له المشاغبة في كل ما يجري، لا يجد في نفسه**

من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءه في فن آخر هو فيه قصير الباع، بليد الطباع ، وصاحب هذا المذهب ممكور به، مصاب بجيد رأيه، وقد أفسده قال المهلب...قال ابن العميد...وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين، والتشيع بذكر الرجال واضع من قدر الرجال"(21)

ينتقد مسكويه لمحاولته ادعاء العلم في كل شيء، لأن ذلك يفضي به إلى عدم الدقة في القول، ومما يفسد آراءه أيضاً محاولته الاستقواء بأقوال ذوي السلطة (المهلبي، ابن العميد...) كأنه يريد بذلك أن يمنح آراءه قوة خارج سياقها، فيمارس نوعاً من الإرهاب الفكري على السامع، وفي هذا إساءة إلى شخصية العالم وإزراء بها! لأن المعرفة هي المرجع الأساسي لرجل العلم، وليس أقوال ذوي السلطة حتى لو كانوا من الأدباء!

نلاحظ أنه يشترط أن يكون العالم، إلى جانب كونه أخلاقيا، خفيف الروح، أي منفتح على الحياة والآخر، صاحب مروءة ودين! لهذا وصف أبا بكر القومسي الفيلسوف "**وهو بجهله مع خفة روحه، وقبح وجهه أدخل في العين، وألصق بالقلب من غيره مع علمه، وثقل روحه، وحسن ظاهره**" فهو ينتبه إلى قضية الحضور الجذاب للعالم، الذي يؤثر في المتلقي

بشكل أقوى، ولا ننسى أن المعلم هو الوسيلة الأساسية لبث العلم في ذلك العصر.

ثمة بعض التناقض في وصفه لبعض رجالات عصره، فإذا كان قد وصف القومسي في "الصداقة والصديق" بالجهل فإنه يصفه في "الإمتاع والمؤانسة" بـ**"العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة، كثير التردد في الدراسة..."(22)**

لعل المقصود بصفة الجهل التي أطلقها التوحيدي على القومسي أنها مرادفة لعدم الابتكار، ومحدودية الأفق، إذ يهمه الجمع والتصحيح، فكانت قريحته ترابية، وبذلك تنتفي صفة التناقض لدى التوحيدي.

لم تقتصر هذه الصورة الحية على علماء الفرس، بل شملت البسطاء من الناس أيضاً، فقد حدثنا عن شيخ خراساني يسوق الجمال عائدا من الحج، وشاهد الوزير ابن بقية مصلوباً على جذع (صلبه الملك عضد الدولة) فقال: **لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقل المفكّر في عبرها وغيرها، عضد الدولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض!** وبفضل كلمات هذا الشيخ الحكيم تمّ دفن ابن بقية!

3_مظاهر الصراع العربي الفارسي:

ظهر الصراع العربي الفارسي منذ العصر الأموي، واستمر في العصر العباسي، فالجاحظ واجه الحركة الشعوبية في كتابه "البيان والتبيين" لكنه قدّمهم بطريقة موضوعية في "البخلاء" وهذا ما لحظناه لدى تلميذه التوحيدي، إذ سجّل لنا في "الإمتاع والمؤانسة" أشد لحظات الصراع الفارسي العربي أثناء الفتوحات، فنسمع الحوار بين سعد بن أبي وقاص (قائد المسلمين) ورستم (قائد جيش الأعاجم) فنقل لنا وجهة نظر الفرس الذين قاتلوا المسلمين، الذين تبدى لهم الجانب المادي (الغنائم) لا الروحي في الفتوحات الإسلامية، أي تلك التي تسيء للمسلمين دون أي حرج، بل نقل لنا احتقار رستم للعرب، وتشبيهه العرب بالذباب.

كما سجّل التوحيدي لنا نبض الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري، فتعرّفنا على مظاهر الوفاق بين العرب والفرس، ومظاهر الصراع بينهما، وكيف اتسم بالتوتر والبغضاء أحياناً، فذكر كتباً، تذم العرب، وتسبّهم (كتاب الجيهاني) فرأى في هذا سفهاً، يسيء إلى العقل، ونفياً للعدل وإزراء بالعالم، لأنه يحرض الآخر على الردّ بالطريقة المقذعة نفسها، وهذا يؤدي إلى العصبية

الفكرية، التي لا تعترف بالحوار، فتقضي عليه، وتهبط به من علياء الفكر، لتحوله إلى مهاترات، وقد بيّن لنا أن العصبية في الحق ممجوجة، تسيء لصاحبها، فكيف إذا كانت عصبية تقوم على الباطل، وهنا يلمح إلى أن عصبية الجيهاني للفرس باطلة، وينزّه نفسه من أن يكون متعصباً مثل خصمه، إنه يحاول أن يرى الحق فيمدحه، ويرى النقص فيشير إليه، وبذلك يجسد لنا صورة العالم الحقيقي الذي يعزّ نفسه بالحق، ويبعد عنه الجهل والتقصير، إذ يرى من واجبه الإشارة إليهما.

لذلك الوزير (ابن سعدان) يسأله: **"أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟"** فيجيبه، بشكل دبلوماسي موضوعي، على لسان الأديب الفارسي (ابن المقفع) في تفضيل العرب، لأنهم **"أعقل الأمم لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم"** في حين وجدناه يصف الفرس على لسانه **"قوم عُلموا فتعلموا، ومثّل لهم فامتثلوا...ليس لهم استنباط ولا استخراج"** وبذلك يوهم المتلقي بحياديته في البداية، فقد جاء تفضيل العرب على الفرس على لسان أديب فارسي!

لذلك يمكننا القول بأنه قد اجتمعت لديه صفات عالم النفس وعالم الاجتماع معاً، فقد استطاع أن يوضح لنا في الليلة نفسها أن الناس في تفضيل أمة على أمة لم يصلوا إلى اتفاق لأن "**الفارسي ليس في فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في حيلة العربي وديدنه أن يقرّ بفضل الفارسي...** " لكنه يقرّ حقيقة إنسانية خالدة "**لكل أمة فضائل ورذائل**" ولا يكتفي بهذا الكلام النظري العام، بل نجده يلجأ إلى التخصيص، فيبين فضائل كل أمة "**فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللروم العلم والحكمة، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأناة، وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكدح والفرح، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان**"

ألا يلاحظ المرء، هنا، ميله للعرب، رغم السياق الموضوعي الذي يتحدث فيه عن فضائل جميع الأمم، فنجده يمنح العرب من الصفات ما يجعلها تتفوق على غيرها من الأمم!

لكنه رغم ذلك يذكرنا أن حال الأمم في تبدل حسب الفترة التاريخية التي تعيشها الأمة فـ**كل أمة لها زمان على ضدها...ولهذا قال مسلم صاحب الدولة، حين قيل له: أي**

الناس وجدتهم أشجع؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتهم شجعان!...وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم..." كأن التوحيدي، هنا، يشير إلى ما يسمى بالحس العام واللاشعور الجمعي، الذي ينتشر بين الناس ويكوّن وجدانهم ويحفزّهم على العمل المشترك، ويمنحهم صفات متقاربة! تختلف حسب قوة الأمة وضعفها.

ثم يبين لنا حقيقة إنسانية أن هذه الفضائل التي تتمتع بها أمة ما "**ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها من هو عار منها جميعها**" فهو يوضح لنا أن التباين لا يكون بين الأمم فقط، بل ينسحب على الأفراد في كل أمة، وبذلك يرفض تعميم المكارم أو الرذائل على جميع الناس، ويشير إلى وجود قرابة خفية بين الأفراد الذين ينتهجون مكارم الأخلاق، كما تنشأ قرابة بين أولئك الذين يتبعون الرذائل! فالطيور على أشكالها تقع!

هناك ملاحظة دقيقة، يمكن أن تندرج أيضاً في علم النفس الاجتماعي معاً، تشمل علاقات الإنسان الفرد بغيره من الأفراد، كما تشمل العلاقات بين الدول، إذ ينتبه إلى أن إصلاح الأمم يكون بوجود عدو رقيب، يحصي العيوب ويشيعها، فتحاول الأمة حماية نفسها وتوقي المساوئ، لذلك

شـاعت مـآثر العـرب لكـونهم يعيشـون في منـاخ عـدائي، فيضـطرون للـدفاع عـن أنفسـهم، لـذلك يلجـؤون إلى **"تـوقيهم المعاير والمعايب ...ولم يخل أحد قط من ولي مـؤدب، أو عـدو مؤنب، أو تقريع بخطأ أو تهجين بنقص إلا مـن أهمل نفسـه، ومـن عـادة الإهمـال الهـلاك "** علـى حـد قولـه في "الصـداقة والصديق"

إن الإنسـان، مثله مثل الأمم، بحاجـة إلى الإحسـاس بـأن هناك من يترصد عيوبه (سـواء أكـان عـدواً أم منافسـاً) لـذلك يحـاول تجنـب مـا يسـيء إليـه، ولا شـك أن العلاقـة المتـوترة مـع الأمـم الأخـرى تـدفع الأمـة إلى إصـلاح ذاتهـا، لمواجهـة العـدو، كـذلك نجـد أن الإنسـان يحتـاج إلى إحسـاس المراقبـة (آخـر: مؤدب، عدو) فيحاول أن ينأى بنفسه عن العيب.

اسـتطاع التوحيـدي أن ينقـل لنـا مشـاهد حواريـة تنقـل لنـا لقطـات مـن الحيـاة الاجتماعيـة والثقافيـة في عصـره، فنعـايش فيها بعض مظاهر الصراع بـين العـرب والفـرس، خاصـة أولئـك الـذين لم يؤمنـوا بالـدين الإسـلامي، ويـدعوهم بـ**الثنويـة** ففـي "الإمتاع والمؤانسة الجزء الثالث" نجد عربياً يعير رجلاً من أبنـاء الأعاجم قائلاً **"ما يقول الشعر منكم إلا من كانت أمـه زنـى بها رجل منا، فنـزع إلينا، فقال له الثنوي: وكـذلك كـل مـن**

لم يقل الشعر منكم، فإنما زنى بأمه رجل منا، فحملت به، فنزع إلينا ومن ثمّ لم يقل الشعر"

ينقل لنا هذا المشهد مظاهر صراع ثقافي اجتماعي خفي بين العرب والفرس، إذ يفخر العربي بقول الشعر، وأن الفارسي الشاعر، فمشكوك بنسبه، فيردّ الفارسي عليه من جنس الاتهام؛ فينتقص العربي الذي لم يقل الشعر.

يلفت نظرنا أن الثنوي رغم عدم إيمانه بالإسلام إلا متعمقاً بالإسلام، مما يسعفنه في الرد على العربي الذي يقول له: **رأيت في النوم أني دخلت الجنة فلم أر ثنوياً فقال له الثنوي: أصعدت الغرف؟ قال: لا، قال: فمن ثمّ لم ترهم، هم في الغرف"** وبذلك يردّ على المسلم الذي يحاربه ويتباهى عليه من منطلق إسلامي، وبلغة القرآن الكريم نفسها!

رغم ما لحظناه في الليلة السادسة من دفاع التوحيدي عن العرب، فإننا نجده في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" يتعجب من أمر العرب **"تأمر بالحلم مرة، والصبر والكظم مرة، وتحث بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر..."** لكنه سرعان ما يبين أنه ليس في جميع الأخلاق شيء واحد يحسن في كل زمان ومكان، ومع كل إنسان، بل يتوجب على الإنسان مراعاة الظرف والحال، إذ ثمة أمور في الحياة لا يمكن أن نحكم عليها بآلية!

وهكذا فإن الباحث الموضوعي يسمح بذكر الأفكار التي ربما كانت تناقض رؤيته، انتصاراً للحقيقة، وبذلك تتسع أفقه لسماع ما يناقض قناعاته دون أي حرج، والدليل أنه يحاول جاهداً الوقوف عند المحاسن والمساوئ للأمة التي ينتمي إليها، فإذا وجدنا من يشك في الانتماء للعرب، فإننا لن نجد من يشك بانتمائه للثقافة الإسلامية، فقد تحدث عن العرب في "المقابسات" قائلاً: **"ألا ترى أن الشبع غريب عندهم، والرعب مذموم منهم؟ وهذه هي الحال التي فرقت بين الحاضرة والبادية، وقد زادتهم جزيرتهم شراً، لكنهم عوضواً الفطنة العجيبة والبيان الرائع..."**

وفي موقع آخر، من هذا الكتاب، ينتفي التمييز بينهم، ويجعلهما أمة ذات صفات واحدة، فقد وجدناه يسأل ابن خليل: **ما الأفخران؟ قال: العرب والعجم"** وبذلك يقيم تصالحاً بين القوى المتصارعة، فيدعوهما باسم تفضيل واحد مستمد من الفخر! بل وجدناه في "الهوامل والشوامل" يجعلهما صراحة في خانة واحدة ويصفهما بالصفات نفسها، **فيتساءل: لِمَ اغترت العرب والعجم في مواقف الحروب وأيام الهياج؟ والاغتراء هو الانتساب إلى الآباء والأجداد وإلى أيام مشهورة، وأفعال مذكورة؟...**وقد كانت إجابة مسكويه تتسم بصيغة عامة،

تشمل أي إنسان **"الغضب يكون في الإنسان بالقوة إلى أن يخرجه إلى الفعل..."(23)**

إن هذه النظرة المنفتحة على المعرفة والإنسان تؤكد لنا أن لصراع بين العرب والفرس لم يكن صراعاً حاداً، كما قد يظنه المتعصبون اليوم، فقد كان لهؤلاء جميعاً هوية إسلامية تجمع بينهم، كما كان هناك عدو مشترك (الروم) يؤلف بين القلوب، خاصة في لحظة الخطر!

4_ مظاهر التمازج الحضاري بين العرب والفرس:

يلاحظ أن التوحيدي رصد لنا بداية التمازج الحضاري، مع بداية الإسلام، فالصداقة التي جمعت سليمان الفارسي وأبي الدرداء تتيح لهذا الأخير أن يذهب لخطبة امرأة من قريش لصديقه **"فذكر سلمان وسابقته في الإسلام وفضله، فقالوا: أما سلمان فما نزوجه، ولكن إن أردت أنت زوّجناك، فتزوجها أبو الدرداء، فلما خرج قال: يا أخي قد صنعت شيئاً وأنا أستحي منك وأخبره، فقال سلمان: أنا أحق أن أستحي منك أخطب امرأة كتبها الله لك"**.

قد نلمح في هذه القصة بوادر تعصب (رفض القرشيين خطبة الفارسي) لكن روح الإسلام هي التي تطغى على العلاقات الاجتماعية (الصداقة) وتزيدها تقارباً وقوة، فقد

لاحظنا إيمان الفارسي بالقضاء والقدر، أي بما كتبه الله للإنسان، إذ إن الروح الدينية من أهم الدعائم التي تؤسس لأخلاق رفيعة، وتؤلف بين النفوس المؤمنة رغم اختلاف أعراقها!

وقد حدثنا في كتابه "الصداقة والصديق" عن صداقات قامت بغض النظر اختلاف الأعراق والبلدان... (مثل العالم السجستاني وبين القاضي ابن سيّار العربي ...إلخ) فالمهم أن يكون بين الصديقين أساس روحي، يكافئ الخلق الرفيع!

وكذلك بدت **اللغة العربية** أبرز مظاهر التمازج الحضاري، في القرن الرابع الهجري، بين العرب والفرس، وغيرهم من الأقوام، فقد كانت لغة عالمية، تشمل الفنون والعلوم المختلفة، لم تكتسب أهميتها، في ذلك العصر، من الموقع السياسي للعرب، إذ باتت مقاليد الأمور في يد الفرس، وإنما لكونها لغة الدين الإسلامي، الذي أصبح يشكل هوية البلاد المفتوحة.

وضع التوحيدي اللغة العربية في أرفع مكانة، فقد رآها لغة مثلى بألفاظها ومعانيها وأصواتها، حتى يمكننا القول بأنه كان مأخوذاً بها، إلى درجة يظن المرء المتتبع لبعض كتبه (وخاصة "البصائر والذخائر") أنه أمام عالم لغوي، أو أمام

معجم متنقل للغة العربية، لذلك حين نسمع رأيه في تفضيل العربية على غيرها، لا نحس بأنه يعلن رأياً متعصباً، وإنما رأي عالم متبحر، فها هو ذا يقول في (الإمتاع والمؤانسة) **"سمعنا لغات كثيرة...فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده في حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها، والمساواة التي لا تجحد في أبنيها..."** وقد استخدم **صيغة الجماعة على** لسان علماء عصره، ليؤكّد إجماع العلماء على مكانة العربية، فهي تجمع البعد التقديسي والجمالي معاً **"العربية عندنا أحسن الألفاظ مخارج، وأخفها على اللسان، وأوصلها إلى الآذان، وكل هذه المحاسن تابعة للشريعة التي جعلها الله تعالى تمام الشرائع ..."(24)**

يدحض هذا القول إحدى التهم التي رمي بها التوحيدي (الزندقة) إذ نسمع، هنا، صوت الإنسان المؤمن الذي يدعو الله أن يكون يوم القيامة مع الرسول وأمته وزمرته، لا ننسى أن ترتيل القرآن بالعربية إحدى العبادات المهمة في الإسلام.

يحاول التوحيدي ألا يظهر لنا أنه متفرد في إعجابه بها، إذ يشاركه علماء عصره، الذين كان معظمهم من الفرس، فقد سأل أستاذه (أبا سليمان) **"فهل بلاغة أحسن من بلاغة**

العرب؟" فقال: هذا لا يبين إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى نأتي على آخرها ... ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعني من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا لم نجد كالعربية، وذلك لأنها أوسع مناهج، وألطف مخارج، وأعلى مدارج، حروفها أتم، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل...ولها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنطق من العقل..."(25)

يأتي التوحيدي، هنا، بكلام عالم العلماء (السجستاني: الفارسي) ليبعد شبهة الانحياز للعربية عنه، فيبرز الموضوعية أثناء الإجابة، التي تحتاج إلى اطلاع على سائر لغات العالم لتحديد أكثرها بلاغة، وبما أن ذلك مستحيل فإنه اكتفى بالسماع عن فصحاء اللغات الأخرى، ليصل إلى نتيجة نزيهة، هي تفضيله العربية لبلاغتها، وقد عدّد الأسباب التي دفعته لاتخاذ هذا الرأي، أما الحماسة لها فقد ظهرت حين أحاط العربية بأفعال التفضيل.

سنجد الأديب (ابن العميد أبا الفتح) الملقب بذي الكفايتين (الوزارة والقلم) يجيب على تساؤل العالم اللغوي (ابن فارس) **أين مزية كلام العرب على جميع ما لأصناف العجم؟...إن الغرض الأول في الكلام الإفادة، وجلّ الأمم على**

هذا، والثاني: تحسين الإفادة، والتحسين تارة يكون بمعاني التوكيد، وتارة بمعاني الحذف...وهو للعرب خاصة ولباقي الأمم عامة، وقد اشتمل القرآن على هذا كله... "(26)

إن البلاغة، هنا، تكمن في الانتقال بالكلام من مستوى العادي إلى مستوى الجميل، عن طريق التحسين، وهذا ما فعله العرب (والمسلمون عامة) بعد نزول القرآن الكريم بلغتهم، إذ قدّم لهم طرائق جديدة في التعبير، والبلاغة لفهم جماليات لغة المقدّس؛ لهذا اندفع العرب والفرس (سيبويه، ابن فارس، السبراي...) إلى إتقانها!

لعل المدهش في ذلك العصر أن الحكام (غير العرب) اشترطوا إتقان العربية، وقد أورد التوحيدي مشهداً من العصر الأموي بصوت (محمد بن شهاب الزهري) **" كنت عند عبد الملك بن مروان، فدخل عليه رجل حسن الفصاحة، فقال له عبد الملك: كم عطاؤك؟ قال: مئتا دينار، قال: في كم ديونك؟ قال: في مئتي دينار، قال: أما علمت أني أمرت أن لا يتكلم أحد بإعراب؟ قال: ما علمت ذلك، قال: أمن العرب أنت أم من الموالي؟ قال: يا أمير المؤمنين إن تكن العربية أبا فلست منها، وإن تكن لساناً فإني منها، قال: صدقت، قال تعالى "بلسان عربي مبين"(27)**

قد يستغرب البعض أمر الخليفة بعدم الإعراب، لكن هذا الخليفة المؤرق بالفصاحة، الذي كان يقول: **شيّبني صعود المنابر"** بدأ يلاحظ الضعف يشيع في اللغة العربية، بعد أن دخل الإسلام الكثير من الموالي، فأوقف الإعراب لكثرة الخطأ فيه، لكنه يفاجأ بإنسان من الموالي فصيح، يعلن انتماءه الروحي للغة العربية، رغم أنه ينتسب لغير العرب، مما يوحي للمتلقي بإقبال العامة على إتقان العربية، حتى إن الخليفة يظن الفارسي عربياً!

ويبدو أنه في عصر أبي حيان بدأنا نلمح ظاهرة عدم إتقان نطق العربية، لدى بعض الوزراء أو كبار القوم، ففي "الصداقة والصديق" يحدثنا عن صديقه أبي الوفاء أن **"ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة ... أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا تخرسن كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد..."(28)**

كان عدم إتقان العربية عائقاً اجتماعياً يمنع الإنسان من مجالسة الناس ومسامرتهم، ونظراً لمعاشرته أصدقاء من الفرس، لاحظ أن اللكنة الفارسية المشوبة بالعربية ثقيلة على السمع والقلب، في حين اللكنة العربية المشوبة بالفارسية أحلى!

وقد وجدنا التوحيدي يذم اللكنة الأعجمية لدى العلماء وعدم فصاحتهم من أمثال أبي حامد المروروزي، كما كان يذمها لدى الوزراء من أمثال (الفضل بن سهل) وزير المأمون.

تتجلى دقة ملاحظة التوحيدي وموضوعيته في كونه لاحظ أن الركاكة اللغوية ليست وقفاً على الفرس، وإنما بدأت تنتشر لدى العلماء العرب، فقد وصف الفقيه الشافعي البغدادي الذي يدعى (الداركي) بأنه "ركيك اللسان"

إنه يعرّض بالعرب والعجم معا، فالعرب فقدوا الطبع بسبب بعدهم عن جزيرتهم، والعجم لم يتبعوا القواعد التي أوجدها العلماء لحفظ العربية وانتشارها بصورة صحيحة.

كما وجدناه يبين أن الإساءة للغة قد تأتي من الأدباء الذين يبالغون في السجع، إنه يريده أن يكون **في الكلام كالملح في الطعام...متى زاد عن المقدار ضارع كلام الكهنة من العرب أو كلام المستعربين من العجم..."(29)**

إنه يريد لغة عربية نقية، يغلب عليها الطبع، ويرفض لغة التكلف التي يراها بعيدة عن الأسلوب القويم، الذي لا يمت للعربية بصلة، إنه كلام غريب أشبه بلغة ميتة كان يستعملها الكهنة العرب، أو لغة هجينة يستعملها العجم، لذلك يقول

التوحيدي **"نعوذ بالله من العجمة المخلوطة بالتعريب، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم"**

إن التشويه الأسلوبي، الذي ينتج عن المبالغة في السجع وعن اختلاط العجمة بالتعريب والعربية بالتعجيم لم يؤثر على الأسلوب دون المعنى، بل على كليهما! مما يدلّ على ضعف في الفكر، ولا يلجأ إليه إلا من هو متهم بعقله من أمثال (الصاحب بن عباد)

وبذلك نجد أن **اللغة والدين** شكلا أسس الثقافة الإسلامية، وقد كانا من أهم عوامل التمازج الثقافي بين العرب وغيرهم من الأمم منذ بداية الإسلام، فقد أبرز التوحيدي ذلك في شعر أورده على لسان سلمان الفارسي أول من أسلم من الفرس (30)

أبي الإسلام لا أب لي سواه

إذا افتخروا ببكر أو تميم

بدعوى الجاهلية لم أجبهم

ولا يدعو بها غير الأثيم

دعـــــيّ القـــــوم ينصـــــر مدعيّـــــه

ليلحقـــــه بـــــذي الحســـــب الصـــــميم

مع بداية ظهور الإسلام حلّ التباهي بالدين لدى المسلم محل التباهي بالنسب الذي كان شائعاً بين العرب، وقد يبين لنا سلمان الفارسي أن مثل هذا التباهي أبعد ما يكون عن الإسلام، وأقرب ما يكون للجاهلية، فقد بات النسب إلى الدين هو النسب الحقيقي، وهذا ما يحقق أرقى درجات التمازج الحضاري بين الأمم.

اللغة الفارسية:

لعل التبادل اللغوي أبرز مظاهر التمازج الحضاري بين العرب والفرس، الذي هو تمازج لغوي، فقد وجدنا مفردات فارسية في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ويبدو أن هذه المفردات كانت شائعة في الحياة العربية، فقد روى التوحيدي أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال لسلمان الفارسي **"اتخذ لنا سورا"** أي طعاماً كطعام الوليمة.

إن ما لحظنا لدى الجاحظ، لحظناه لدى التوحيدي، من حضور اللغة الفارسية في مناحي الحياة الاجتماعية وأدوات

الطعام، والملابس، والسلوك...وقد بيّن أن هذا الاستخدام، لم يقتصر على الناس العاديين، بل لدى علماء العربية **"قال ابن الأعرابي: يقال للذي إذا أكل استظهر بشيء يضعه بين يديه، ويضع يده اليسرى عليه، ويأكل باليمنى: الجرد بان"** (معرب: كرده بان، أي حافظ الرغيف)

المدهش أن نجد التوحيدي قد أظهر لنا سعة انتشار اللفظ الفارسي، حتى إنه أورده على لسان ملك اليونان (الإسكندر) فقد **"أشير على الإسكندر بالبيات** (أي أن يوقع بأعدائه ليلاً دون أن يعلموا) **في بعض الحروب، فقال: ليس من آيين الملك استراق الظفر"** وقد شرح لنا التوحيدي المقصود بآيين قائلاً: **لفظ فارسي يراد به السيرة والصورة والزي والرسم وما تعرفه العرب** من عادات.

يبدو أنه كالجاحظ على معرفة باللغة الفارسية، حتى إنه يستخدمها ويشرح بعض مفرداتها للمتلقي، دون أن يعني هذا أنه يهتم بهذا الشرح بشكل دائم!

وقد تأتي اللفظة منسجمة مع سياق عربي، **"قال أبو دلف: دخلت على الرشيد وهو في طارمة، وعلى بابها شيخ جليل قد ألقيت له طنفسة خارج الطارمة..."(31)**

(الطارمة: بيت من خشب كالقبة والجمع طارمات، الطنفسة: البساط والحصير من سعف عرضه ذراع، معرّب عن تنبسه بالفارسية والجمع طنافس)

وبذلك نستطيع القول بأن الاختلاط الاجتماعي والثقافي ولّد اختلاطاً لغوياً، مازالت آثاره في حياتنا اليومية والثقافية إلى اليوم.

العادات:

اشتد التمازج الحضاري بين العرب والفرس في العصر العباسي، بفعل الهجرة والتزاوج على المستوى الشعبي وعلى مستوى السلطة، إذ إن **كثيراً من الخلفاء والوزراء قد اتخذوا المؤدبين من الفرس لتأديب أبنائهم وتعليمهم السياسة، حتى وجدنا الرشيد يقول للكسائي الذي كان مؤدباً لابنه "قد أحللناك المحل الذي لم تبلغه همتك، فروّنا من الأشعار أعفّها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند"(32)**

ثمة تمازج ثقافي بين الأنا والآخر، يؤسس للحضارة، لهذا اتسعت لفظة آداب، فشملت مجموعة العادات والمعارف والحكم والسلوك الذي يعلي شأنها المجتمع العربي وغيره.

ويبدو لنا أن آداب الفرس كانت مسيطرة في العصر العباسي، بسبب تغلغلهم إلى عمق الحياة الاجتماعية والسياسية، حتى إننا وجدنا أبا جعفر المنصور، يتخذ حاجباً له من الفرس، يفرض عاداتهم ، حتى إنه يضرب من شمّت الخليفة (أي دعا له بالرحمة عند العطسة) وحين شُكي إلى المنصور، قال "**أصاب الرجل الأدب وأخطأ السنة**، فيعلق التوحيدي قائلاً: **وهذا هو الجهل، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب، بل الأدب كله في السنة، وهي الجامعة للأدب النبوي والأمر الإلهي، ولكن لما غلبت عليهم العزة، ودخلت النعرة في آنافهم، وظهرت الخنزوانة** (الكِبر) **بينهم، سمّوا آيين العجم أدباً وقدموه على السنة**".

يبدو لنا أن الحديث مع الإنسان العاطس، حتى لو كان دعاء، مستهجن في عادات الفرس، في تلك الفترة، وقد بدت هذه العادات سائدة أكثر من السنة النبوية في مجلس الخليفة، حتى إن الحاجب يتجرأ على ضرب من يمارس السنة (التشميت) وهذا انحراف كبير يسوء التوحيدي، لأنه يراه نتيجة الجهل بأحد أصول الدين الإسلامي (السنة) التي هي آداب النبوة، وانتشار عادات فارسية تدعى (آداباً) ويبين أن من أهم أسبابه التكبر لدى رجال السلطة وإعجابهم بعادات

الآخرين، وهذا يكون، غالباً، نتيجة التربية التي تلقاها الخليفة، إذ كانت معظم أمهاتهم من الأعاجم، فطغت عادات غريبة جعلتهم يبتعدون عن أحد أصول الدين، مما أدى إلى انزعاج التوحيدي! ومهاجمة أولئك المتكبرين الجهلة، حتى لو كانوا من الخلفاء!!

لكن التوحيدي يمتدح هذه العادات حين لا تتعارض مع الدين الإسلامي، يقول مثلا في ("البصائر والذخائر" المجلد الأول) "**رئيس سنن العجم: الخلال** (أي السواك، الذي يتخلل الأسنان بعد الأكل) **وغسل اليد قبل الطعام وبعده**" مثل هذه العادات الفارسية في النظافة دعا إليها الإسلام، وجعلها وضوءاً، ومن علامات الإيمان.

كذلك يلاحظ مشاركة العرب الاحتفال بالأعياد الفارسية، التي من أهمها عيد النيروز **وهو مبدأ السنة الشمسية، وكان يتمّ بتبادل الهدايا، فكان الخليفة في بغداد يفرّق على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر، ومنها ورد أحمر(33)** كما يتلقى هدايا بسيطة من الناس!

وهكذا قدّم التوحيدي صورة اجتماعية وثقافية حية، تبرز مدى التمازج الحضاري بين العرب والفرس في القرن الرابع الهجري، فلم يكتفِ فيه العرب بالأخذ، كحالنا اليوم، بل

قدّموا للآخر ما يفيده، ويعزّز الرحمة، التي أسّس لها الخطاب القرآني في الوجدان!

صورة اليونان:

لم تكن صورة اليونان، لدى التوحيدي، بغنى صورة الفرس، ربما لأن الاختلاط بهم كان محدوداً، فقد تمّ عبر الكتب المترجمة بعيداً عن العلاقات الاجتماعية والدينية، واقتصرت العلاقة على الثقافة! حتى إن الترجمة إلى العربية، لم تهتم بالأدب، بل كانت مقتصرة على كتب العلم والفلسفة، وقد أُعجب التوحيدي بها، فاستطاع أن يقدّم لنا صورة مشرقة لفلاسفة اليونان، وكيف تمثّلها أدباء القرن الرابع الهجري، واقتدوا بها، مثل ابن العميد الذي زعم أنه من شيعة هؤلاء الفلاسفة، لكن التوحيدي يقصيه بعيداً عنهم قائلاً: **"والعجب من بخل هذا الرجل ونذالته مع تفلسفه وتكثّره بذكر أفلاطون وسقراط...على علمه بأن القوم قد تكلموا في الأخلاق وحدودها، وأوضحوا خفاياها، وميزوا رذائلها وبيّنوا فضائلها وحثّوا على التخلق باليسير، وبذل الفضول للمحتاجين إليه... "(34)**

إن الفارق الأساسي بين ابن العميد وهؤلاء الفلاسفة، انسجام أقوالهم العظيمة مع أفعالهم الأخلاقية، ومثل هذه

الصفات لا يستطيعها إلا إنسان متفرّد، لذلك صوّر ابن العميد مدّعياً الحكمة، لسلوكه نقيضها!

وقد وجدنا (في "الصداقة والصديق") إعجاب أحد المترجمين (ابن زرعة) بهؤلاء الفلاسفة، إلى درجة أنه يذكرهم في مجالس الشراب (التي يشهدها أبو حيان) الأمر الذي يستنكره قائلاً **"مجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب"** ثم يخاطب ابن زرعة **"يا نائم، يا غافل، يا ساهي، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء؟ أسيرتك سيرتهم؟ ..."** وبذلك يجلّ التوحيدي هؤلاء الفلاسفة أرفع مكانة أي مجالس العلماء لا مجالس الشراب العابئة! لكونهم ينفتحون على الإنسان، أياً كان، وعلى الأخلاق، التي تبتعد عن الهوى **"قيل لديوجانس، وكان يونانياً، أملك الروم أفضل أم ملك الفرس؟ فقال: من كان فيهما أملك لهواه"**.

لم يعزّز هذه الصورة المشرقة لدى علمائهم فقط، بل لدى ملوكهم أيضاً وخاصة الإسكندر، الذي لاحظنا أخلاقه الرفيعة في التعامل حتى مع أعدائه، حين رفض مهاجمتهم ليلاً، كي لا يسرق النصر، ولم يجبن، وحين حذّره أحد رجاله بكثرة عسكر العدو الفارسي أجابه: **"إن الغنم وإن كثرت تَنزل لذئب واحد"**.

وقد حاول أن يطلعنا على أفكار اليونانيين وعلومهم عبر كتبهم، فإقليدس **"عالم من علماء الروم يسمى بهذا الاسم، وضع كتاباً فيه أشكال كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة، يشحذ الذهن، ويدقّق الفهم، ويلطّف المعرفة، ويصفّي الحاسة، ويثبّت الروية، ومنه أُنتج الخطّ وعرف مقادير حروف المعجم"**

يلاحظ أن ثمة رغبة كامنة في أعماق التوحيدي وهي الاستفادة من الفلسفة في الجمع بين العقل والشريعة، لذلك روى عن إخوان الصفا قولهم **"متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال"** لهذا قدّم صورة سقراط، وقد اختلطت بصورة مسلم متدين، يعرض جسده للشمس، فأتاه الملك ليسأله: **يا سقراط ما الذي منعك من إتياننا؟ فقال له: الشغل أيها الملك بما يقيم الحياة، فقال الملك: لو أتيتنا لكفيناك، فقال سقراط لو علمت أني أجد ذلك لزمتك ما لزمتني الحاجة إلى ذلك، فقال الملك: فسل ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تزيل عني ظلك فقد منعت عني الشمس..."(35)**

إننا أمام صورة زاهد، يقترب من روح الإسلام ومبادئه، فالمادة والمظاهر والملذات لن تقوّي الروح؛ لهذا لن يقيم وزناً

لعطايا الملك، ويبحث عمّا يمتّع أعماقه، هنا نتساءل: هل فرض المؤلف المسلم معتقداته على الفيلسوف اليوناني، ليقنع المتلقي بأهمية تعاليم دينه، حتى إنها التقت مع آراء حكيم غير مسلم!! بل استخدم لغة، تسخر من حضور السلطة، يمنع عن الفيلسوف نور المعرفة، ويغرقه في توافه الحياة.

كما أسبغ هذه الروح الإسلامية في خاتمة قصة شاعر يوناني (كنتس) الذي كان في طريقه إلى الملك ثيودوسيوس، فاعترضه لصوص، وهمّوا بقتله، فلم يجد أمامه معيناً، فنظر إلى السماء فوجد كراكي (طائراً) فدعاه للمطالبة بدمه، وقد استطاع ذلك، فختم التوحيدي هذه القصة بقول لأبي سليمان **"إن كنتس وإن كان خاطب الكراكي، فإنه أشار إلى ربّ الكراكي وخالقها، ولم يطل الله دمه، ولا سدّ عنه باب إجابته، فسبحانه كيف يهيئ الأسباب ويفتح الأبواب"(36)**

ثمة رغبة لدى الناقد التراثي في إضفاء الطابع الإسلامي على كل ما يسرده للمتلقي، كي تبدو له صورة الآخر غير المؤمن بإله واحد منسجمة مع معتقده الإسلامي!

صورة الآخر: الذمي

يعترف آدم متز بأن الحضارة الإسلامية قد تميزت بتسامحها مع غيرها من الأديان، ومثل هذا التسامح **"لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم"(37)**

إن التسامح الإسلامي لم يكن نتيجة الحاجة إلى المعيشة المشتركة فقط، كما يرى متز، وإنما نتيجة لمعتقدات إسلامية، تعزّز الانفتاح الإنساني على الآخر والاعتراف بحريته الفكرية والدينية، والحفاظ على حقوقه، وقد ذكر لنا التوحيدي أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما استُخلف بيّن للناس، أن الإسلام بني على أربع خصال عليه أن يسير على نهجها الأولى: مخافة الله في كسب المال وإنفاقه، الثانية: الابتعاد عن الحرام، والثالثة: رعاية المهاجرين، والأنصار (و**الرابعة: أهل الذمة أفي لهم بعهدهم، وأقاتل من ورائهم، ولا أكلّفهم إلا طاقتهم**) وبذلك يجعل الخليفة المسلم بأهل الذمة في مرتبة المهاجرين والأنصار، الذين وقفوا إلى جانب الرسول (ص) وساندوه في نشر الإسلام، لذلك من واجبه رعايتهم، فلا يكلّفهم فوق طاقتهم .

كما أورد التوحيدي جواب الخليفة عمر بن عبد العزيز حين سُئل: هل يُسلّم على أهل الذمة؟ **فقال: يردّ عليهم السلام ولا بأس أن يبدؤوا به" لقوله عز وجل "فاصفح عنهم وقل سلام"** فيشمل التسامح حتى المسيء منهم؛ لهذا استخدم فعل الأمر المستمد من القرآن (اصفح) ليؤسس قيماً، تصنع الحضارة! تؤلف قلوب البشر، فتصبح الحياة أكثر رقياً!

1_**اليهودي:**

وقد استمر هذا الانفتاح في العصر العباسي، حتى إننا وجدنا مناظرات مختلفة بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة إذ ثمة مناظرة، حدثت بين الوزير المسلم والعالم غير المسلم، في موضوع شديد الحساسية (إعجاز القرآن) بين ابن عباد وبين يهودي يدعى "رأس الجالوت" الذي ينفي هذا الإعجاز بل ينفي النبوة أي الدين الإسلامي! وكي يخفف من وطأة جرأته، يتملق الوزير بذكاء، ويضع أدبه في مرتبة النظم القرآني! رغم أنه يمتدح عدوّه (ابن عباد) منحه صفات إيجابية (عالم، حبر، سعة الحيلة، الثبات في الحوار...) بل ينادى بلقب إسلامي (يا شيخ)

لا يجادل الوزير اليهودي في مسائل نظرية فقط، وإنما يعترض على الخليفة في مسائل معيشية، فقد حدثنا التوحيدي قائلا: **قال أبو عمر الجوني: جاء يهودي إلى عمر بالشام، فقال: يا أمير المؤمنين أ هذا في العدل؟ أخذتم كسبي وأنا قوي، حتى إذا كبرت سني، ...تركتموني أهلك! فقال عمر: ما أنصفناك، ففرض له فريضة...**"(38) أي راتباً شهرياً!

يتهم اليهودي رأس الدولة (الخليفة) بالظلم (أخذ منه الجزية في شبابه، وأهمله حين ضعف، المدهش اعتراف الخليفة عمر بن عبد العزيز بالظلم، وإنصاف المشتكي الذمي!!

لا يكتفي اليهودي بنقد الخليفة فقط، بل يواجه الخليفة بالفخر بقومه "**قال أبو العيناء، قال الأصمعي، دخل ابن شعبة اليهودي على معاوية، فأنشده:**

ولكنمـــــا دهـــــري رواق تحفّـــــه

ثمـــانون ألفـــا مـــن كمـــيّ ومُعْلَـــم

يقـــودون قـــود الخيـــل أوتارهـــا القســـي

إذا اســـتمطرت جـــادوا سمـــاءك بالـــدم

ســـأطلب مجـــدا مـــا حييـــت وســـؤددا

بمـــاء شـــبابي أو يولـــول مـــأتمي(39)

تحمل هذه الأبيات تهديداً خفياً، إذ نلمس عبر الفخر بالعدد والعدة لليهود، الإمكانيات الكبيرة التي يملكونها، وهذا يعدّ منتهى الجرأة في دولة تفخر بدين الإسلام، لكن قوله (إذا استمطرت جادوا سماءك بالدم) يوحي للخليفة بأنهم على استعداد لبذل دمائهم فيما لو احتاج إليهم.

نلمح لدى التوحيدي الصورة التقليدية لليهودي الجشع والأناني، والتي وجدناها في الأدب العالمي ("تاجر البندقية" لشكسبير، "أوليفر تويست" تشارلز ديكنز...) إذ نجد اليهودي الراجل، أثناء السفر، يلتقي بمجوسي راكب، فسأل كل واحد الآخر عن عقيدته، فاحتال عليه هذا اليهودي، حتى أخذ بغلته، وهرب! وهذه القصة مألوفة في كتب التراث!

نعايش، هنا، صورتين نقيضتين (صورة اليهودي في مقابل صورة المجوسي) فالأول محصور بذاته وبقومه، يرى الآخر عدواً يحلّ دمه وماله؛ فأباح لنفسه سرقة البغلة، في حين أنطق المجوسي لغة إسلامية (تعلن إيمانها إله عادل، يعلم ما يخفى،

فيجزي المرء حسب عمله...) لهذا عوقب اليهودي بالوقوع عن البغلة!

لن نستغرب هذه الصورة الإيجابية للمجوس، فقد عوملوا في القرن الرابع الهجري، كما يقول آدم متز، معاملة أهل الذمة، يلاحظ، هنا، ثمة رغبة لدى الراوي المسلم استخدام كل ما هو إيجابي لصالح الإيمان بالله تعالى، لنتأمل مفهوم الرحمة، التي هي إحسان للآخرين يمارسها المؤمن وهو على ثقة بأن الله لن يضيع ثوابه، لذلك أنقذ المجوسي اليهودي من الموت بعد أن أوقعته البغلة، كما كانت الرحمة بالآخر شكرا على نعم الله تعالى، لهذا أنقذ المجوسي اليهودي رغم خيانته، فقد سمع اعتذاره (التربية التي تلقاها مسؤولة عن أنانيته، وافتقاده القدوة الصالحة، فقد أُنشئ على رفض الآخر المخالف في الدين...)

اللافت للنظر هذه الحرية والصراحة التي عبّر كل من اليهودي والمجوسي عن نفسه، وعن معتقده، ولعل من أهم جماليات هذه القصة تجسيد هذا المعتقد عبر السلوك (فاليهودي/ متعصب، يسرق/ المجوسي منفتح، يسامح سارقه) بل أتاح له (المؤلف) فرصة الدفاع عن ذاته، فيتفهم المجوسي

وجهة نظره، ويرحمه ثانية، وبذلك يؤسس لثقافة الانفتاح على الآخر!

إذا كانت الصورة التقليدية لليهودي هي صورة منفرة أنانية، فإن هذه النظرة لا تشمل الدين اليهودي، إذ ينظر إلى المقدس (التوراة) نظرة مساوية للقرآن الكريم، وهذا ما أثبته لنا التوحيدي فقد قال **"علي بن الحسين رضي الله عنهما: ليس في القرآن "يا أيها الذين آمنوا" إلا وفي التوراة "يا أيها المساكين"** فيثبت أن الخطاب القرآني مكافئ للخطاب التوراتي، وأن الإيمان رديف للتواضع والمسكنة، فيبيّن المشترك في الدين الإسلامي واليهودي.

ومن مظاهر الانفتاح لدى التوحيدي أيضاً، استخدام بعض مفردات اللغة العبرية أثناء سرده قصة الراهبة مع الرجل، الذي ادّعى أنه ملاك، وحين قالت له: أراك بلا جناح، قال لها: **"نحن معاشر الكروبيين** (سادة الملائكة) **لا يكون لنا جناح"**

كذلك حين يسقط ابن غيلان البزاز مغشياً عليه إثر سماع أغنية، فجاء من يقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين ورقى **بهياً شراهياً** (معناهما في العبرية يا حي يا قيوم)

من الملاحظ أن استخدام مفردات اللغة العبرية كان يأتي ضمن سياق لا تبدو فيه غريبة، وإنما هي جزء من اللغة اليومية، المتداولة في عصره.

2_**صورة النصراني:**

يبرز لنا التوحيدي (في الجزء الثاني من "الإمتاع والمؤانسة") الصلة الوثيقة بين الإسلام وبين المسيحية، فقد ذكر حديثاً موثّقاً عن ابن عباس **"أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كتب إلى النجاشي أصحمة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، فكتب النجاشي أصحمة بن أبخر: سلام عليك يا نبي الله من الله تعالى ورحمته وبركاته"**

ثمة اعتراف بالآخر وبمقدسه (المسيح) على لسان نبي الإسلام (ص) لذلك نعايش لغة توحد أتباعهما، مثل صفات الله تعالى (الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن...)

تزخر كتب التوحيدي بأقوال عيسى (ع) التي تعزّز صورة مألوفة له، تقوم على المحبة، إذ قال لتلامذته **"علامتكم التي تعرفون بها أنكم مني، أن يودّ بعضكم بعضا"**

تبدّى إعجاب التوحيدي بقوله أكثر من قول أحد المتقدمين: **"اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً"** فيعلّق: **كلام منمق لا يرجع إلى معنى محقق، أين هو من قول المسيح (ع): الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بعد أحدكم عن أحدهما قرب من الآخر، ومتى قرب أحدكم من أحدهما بعد عن الآخر"(40)** إذ فضّل التوحيدي، هنا، قول المسيح، لكونه أكثر واقعية، وأكثر بساطة، إذ يصوّر الدلالة بعيداً عن التنميق، فما يهمه هو التعبير عن صعوبة التوازن بين الدنيا والآخرة، ويجسد حالة القلق التي عاشها لإيجاد مثل هذا التوازن، لذلك بدا لنا هذا القول أقرب إلى حالته النفسية، فهو تارة متصوف، وتارة يستجدي على أعتاب الوزراء والأغنياء.

يلاحظ أن التوحيدي ،كغيره من الكتاب المسلمين كان يسبغ على أقوال السيد المسيح (ع) الطابع الإسلامي، ليسقطه على لغته، فيحوّل الكنيسة إلى مسجد، **"قال عيسى بن مريم كن في الدنيا ضيفاً، واتخذ المسجد بيتاً"**

وكما يعتمد التوحيدي في نقده الدلالي على راوٍ مسلم، بعد أن أورد رواية نصراني **"حكى لنا ابن زرعة النصراني قال: قيل للمسيح: ما بال الرجلين يسمعان الحق فيقبله أحدهما ولا**

يقبله الآخر؟ فقال: مثل ذلك مثل الراعي الذي يصوّت بغنمه، فتأتيه هذه الشاة بندائه، ولا تأتيه هذه! قال أبو سليمان: هذا جواب ليس له سنن، ولعل الترجمة قد حافت عليه، والمعنى انحرف عن الغاية، وليس يجوز أن يكون حال الإنسان كيف كان حال الشاة في إجابة الداعي وإبائها، فإن له دواعي وموانع عقلية وحسية".

انتقد هذا القول استنادا إلى المنهج العقلي الذي يتبعه التوحيدي مترسماً خطا أستاذه (أبي سليمان) ويلاحظ أنه لم يتناول الناحية الجمالية فقط، بل انتبه إلى عدم منطقيته (المسيح نبي المحبة) يشبه الناس بالحيوانات، وبذلك تبرز موضوعية المؤلف، إذ يستضعف هذا القول، ويرى فيه تحريفاً، قد تكون الترجمة مسؤولة عنه!

لم ينل المسيح (ع) إعجابه فقط، بل بأتباعه الزهاد أيضاً، فقد قيل لراهب: "**كيف سجنت نفسك عن الدنيا، قال: أيقنت أني خارج منها كارهاً، فأحببت أن أخرج منها طائعاً**".كما حدّثنا عن راهبة رغم انقطاعها للعبادة، لم تتوقف عن أعمال الخير!

شهدت العلاقة الاجتماعية بين المسلمين والنصارى قليلاً من التوتر، لكن سرعان ما تعود إلى صفائها، فقد روى أنه

"كان للحسن البصري جار نصراني، وكان له كنيف على السطح، وقد ثقب ذلك في بيته، وكان يتحلّب منه البول في بيت الحسن، وكان الحسن أمر بإناء فوضع تحته... فمرض الحسن ذات يوم فعاده النصراني، فرأى ذلك، فقال يا أبا سعيد مذ كم تحملون مني هذا الأذى؟ فقال: منذ عشرين عاماً، فقطع النصراني زناره وأسلم."(41)

إن تحمل المسلم أبشع أنواع الأذى (مياه الصرف الصحي) من جاره، دون أن يعاتبه، وفي المقابل يبدو لنا النصراني حريصاً على عيادة جاره المسلم، فيكتشف الأذى الذي يصدر منه، وكيف صبر عليه، فلمس رفعة أخلاقه؛ لذلك أعلن إسلامه.

كذلك لم تجد الطبقة الحاكمة مانعاً في الاستعانة بخبرة أهل الذمة، إذ كان معظم أطباء الخلفاء والوزراء من النصارى، وقد حدثنا التوحيدي عن أبي الفضل بن العميد في أذربيجان، الذي ظفر بطبيب نصراني **"حسن الحذق، بارع الصناعة، مشهود له بصواب الرأي، وجودة التدبير، فأدناه أبو الفضل ورضي هديه... فكان من أمره أن أبا الفضل شرب قدحاً من شراب الرمان، وبقي في أسفل القدح قليل، ومدّ يده إلى الطبيب يناوله تكرمة له ويقول له: اشرب هذه البقية!**

فقال له الطبيب: نهى نبيكم عن سؤر الكلب (البقية) **فاصفرّ وجه أبي الفضل ولم ينطق بكلمة..."(42)**

بدا الطبيب النصراني محاطاً بصفات إيجابية (حسن الحذق، بارع الصناعة، صواب الرأي، وجودة التدبير، الثقافة الإسلامية...) لكن الصفة اللافتة هي الكبرياء في مواجهة الوزير (يرفض بقايا كأسه) مستعيناً بثقافته الإسلامية، التي تنتصر لكبريائه، ويلمح أن من آداب النبوة ألا يقدم للضيف بقايا كأس، فامتصّ الوزير غضبه، وصمت! وبذلك تبدو لنا الثقافة الإسلامية ثقافة العصر، أتقنها المسلم والذمي، فكانت خير شفيع للطبيب.

كذلك حدثنا التوحيدي عن أساتذته وأصدقائه من العلماء النصارى الذين عاصرهم، فقدم لنا صورة موضوعية، تبيّن محاسنهم ومساوئهم، فـ(يحيى بن عدي) **"كان شيخاً لين العريكة فروقة، مشوّه الترجمة... لكنه كان متأتياً في تخريج المختلفة...وكان مبارك المجلس"**

تتبدى للمتلقي النزعة النقدية، التي يمارسها التوحيدي على أساتذته المسحيين (يحيى بن عدي) والمسلمين (السجستاني) لهذا تفرّد عنهم، واستطاع تجاوزهم.

يبدو لنا أن أكثر العلماء النصارى، عملوا بالترجمة من اليونانية إلى العربية، وكانوا متقنين لها بشهادة التوحيدي، لكنه لاحظ عدم تفرّغ بعضهم للعلم وانصرافهم للتجارة والدنيا، مما أساء إلى إنتاجهم، فافتقدوا العمق الفلسفي، وقد لاحظنا أن ابن الخمار يعاني من المشكلة نفسها، فهو رغم أنه يعد فصيحاً **"مديد النفس، طويل العنان، مرضي النقل، كثير التدقيق، لكنه يخلط الدرة بالبعرة، ويفسد السمين بالغث...ويشين كل ذلك بالزهو والصلف، فما يبديه من الفضل يسترجعه بالنقص، ..."(43)**

وهو يشير إلى سبب افتقاد العالم للمحاسن **"وأما ابن مكيخيا، فرجل نصراني أرعن خسيس ...يتحسّى دنّ الشراب في نفس أو نفسين، ثم يسقط كالجذع اليابس"**

يلاحظ المتتبع لنقد التوحيدي اعتماده على التصوير الفني في تقديم الشخصية (يسقط المخمور كالجذع اليابس) وفي تقويمه لا يعزل الأخلاق عن السلوك والعلم، فكأنه يريد أن يؤكد أن العالم الحقيقي من يستطيع أن يجمع مكارم الأخلاق بالمعرفة.

الآخر: العبد

يتسع مفهوم العبودية في التراث الإسلامي، ليشمل من يفتقد الحرية، ومن يلغي عقله من أجل شهوته، ومن يلغي كرامته من أجل جمع المال والمركز، لهذا يقول التوحيدي: **"العبيد ثلاثة: عبد الرق، وعبد الشهوة، وعبد الطمع".**

صحيح أن الإسلام لم يلغ الرق إلغاء تاماً، إلا أنه ساعد على تحريره، وجعل للعبد حقوقاً، ترقى بالنظرة إليه، فقد روي عن الرسول (ص) قوله **"شرّ الناس من أكل وحده ومنع رفده، وضرب عبده"** بل نجد هناك من يدعو أن يكون السيد صديقاً للعبد، فقد أورد لنا التوحيدي في "الصداقة والصديق" قول الشاعر:

إن كنت تطلب فضلاً

إذا ذكرت ومجدا

فكن لعبدك خلّاً

وكن لخلّك عبدا

وكان سببهما أن صديقاً لي ضرب عبداً له، فحضره صديق له، فمنعه الصديق فلم يمتنع، فكتبت إليه هذين

البيتين أذكره بحق الصديق في عبودية الطاعة، وأخوة العبد في حق الإيمان، قال تعالى "إنما المؤمنون إخوة"

ينطلق في معاملة العبد من اللغة الدينية، إذ هناك أخوّة في الإيمان والإنسانية، تجعل العبد مساويا لسيده، وهذا ما أكّده الخطاب القرآني.

وقد احتل العبيد والإماء مكانة رفيعة في العصر العباسي، خاصة أصحاب الموهبة، وقد حدثنا عن أحدهم في ("البصائر والذخائر"المجلد الرابع) فقد **"اشترى اسحاق بن علي بن عبد الله بن العباس غلاماً فصيحاً، فبلغ الرشيد فأرسل إليه يطلبه، ، فقال لم أشتره إلا لك، فلما وقف الغلام بين يديه، قال الرشيد: إن مولاك قد وهبك لي، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين مازِلت ومازُلت، قال: فسر، قال: مازلت لك وأنا في ملكه، ولازُلت عن ملكه وأنا لك، فأعجب الرشيد وقدّمه".**

ثم نجد التوحيدي، يعلّق معلياً شأن العقل والفصاحة، ويحلها محل النسب الرفيع **"وبمثل هذا البيان والعقل يتقدّم العبد على الحر والوضيع على الشريف".**

ورغم أن الإسلام جعل ابن الأمة حراً، وهذا نقيض الديانات الأخرى، إلا أن العرب، فيما يبدو، مع بداية

الإسلام، كانوا يحتقرون أبناء الإماء، بتأثير الموروث الجاهلي، حتى تزوج الصحابة منهم، وأنجبوا أولاداً، نالوا احترام الناس، **قال الأحنف: لم تزل العرب تستخفّ بأبناء الإماء حتى لحق هؤلاء الثلاثة بهم: علي بن الحسين (بن علي بن أبي طالب) والقاسم بن محمد (بن أبي بكر) وسالم بن عبد الله (بن عمر بن الخطاب)**

وبذلك غيّر الإسلام النظرة الجاهلية، رغم أن الحياة الاجتماعية ظلت تعاني من وطأتها، فجاء زواج أبناء الصحابة الكبار من الإماء؛ ليجسد روح الإسلام السمحة ويعلّم الناس كيف يتجاوزون النظرة الدونية للآخر العبد.

سمات منهجه:

لعل أهم سمات منهج أبي حيان التوحيدي في النظرة إلى الآخر، هي المرونة الفكرية التي تبرز قبولاً للمختلف، وهذه ليست سمة خاصة به، وإنما هي جزء من ملامح عصره، فقد اتبع في ذلك خطا أساتذته، فقد علّمه (السيرافي) أن تنوع الآراء ووجهات النظر سمة إنسانية، لهذا كان من الصعب أن تتفق الآراء في تفضيل أمة أو بلد أو إنسان، لكن ثمة معاني تقرّب بين الناس، إذ ثمة جوهر واحد، وحين يدخله التنوع،

يثري الحياة، وبذلك لا يؤثر على المعاني اختلاف اللغات **"لأنها حاصلة بالعقل والفحص والفكر"**

ونتيجة هذا الوعي نجد التوحيدي يرفض العصبية، التي بدأت تنتشر بين العامة وبعض علماء عصره، فـ**"قد دبّ فيهم داء الحمية، واستولى عليهم فساد العصبية حتى صار الغيّ متبوعاً والرشد مقموعاً..."**

يرفض الوهن الفكري الذي بدأ يشيع في عصره على شكل عصبية لعرق أو مذهب، مما يخلق هوة بين الإنسان وبين روح الإسلام، لذلك كان حريصاً على تبيان معالم العصبية وتعريفها للناس، عبر استخدام العبارة البسيطة والدقيقة، إنها انحراف عن الحق، وخلل في الرؤية، وفساد في العقل، فـ**"يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين"**

وقد ركّز التوحيدي على **الحرية الفكرية**، ودعا الإنسان أن ينطلق منها في تعامله مع أفكار الآخرين، حتى إنه يطلب ذلك من المتلقي (في كتاب "البصائر والذخائر") فيتناوله برؤية نقدية حرة **"فكن - أيدك الله - شاكرا لصواب ما يمرّ بك في هذا الكتاب، محاذراً في خطأ ما يلوح لك، واعمل بحكم الحرية وعصبية الإنسانية، في نشر جميل أنت أولى بنشره..."**

يبتكر التوحيدي مصطلحاً دقيقاً **"عصبية الإنسانية"** التي هي رد يف **"الحرية"** فالإيمان، على حد قوله، يوحش من رقّ العبودية، ويهيئ خلعة الحرية(45) وقد وجدناه يحرض المتلقي لامتلاكها، فيستطيع عندئذ أن يقبل ما يفيده ويرفض ما لا يفيد، وبذلك تعني انفتاحاً على الإنسان بغض النظر عن جنسه، وعن دينه ومذهبه، فيرتقي الفكر بعيداً عن الانغلاق والخوف من النقد!

لعل هذه المقولة "العصبية الإنسانية" تنطلق من روح صوفية، لا تقيم الإنسان بما يظهره من قول أو يدّعيه من تدين، بل بما يكمن في أعماقه! فقد استشهد بأحد المتصوفة، حين سأله أحدهم: أيّ الصلاة أفضل، حين أسبل يديّ أم حين أرفعهما إلى صدري؟ فأجابه: المهم أن ترفع قلبك إلى الله! وبذلك ألغى التصوف الفروق ليس بين المسلمين (سنة وشيعة) بين الأديان جميعاً!

كما بدا للمتلقي تأثره بالفكر المعتزلي، وبأستاذه الجاحظ؛ لهذا اهتم بالعقل، وبأهم أدواته (الحوار) إذ ترتقي به النفوس، وتتطور العقول، وتنطلق الألسنة معبرة عن الأفكار والعواطف **"النفوس تتقادح، والعقول تتلاقح، والألسنة تتفاتح"** فيصبح أداة معرفة، تطوّر العقل وتوسّع الآفاق، تتهذب روحه.

إن ما يؤسس لهذه الروح المنفتحة، تميّز الإنسان عن غيره من الكائنات بـ**"العقل"** وقدراته في المحاكمة المنطقية وسعة الأفق (على المستوى الفكري والروحي) فتتسع لدى المرء صفات أكثر إنسانية!

هناك سمة أخرى تكمّل الموضوعية، التي لحظناها لدى التوحيدي، هي الاهتمام **بالحوار مع الآخر**، سواء أكان أستاذاً أم صديقاً متفقاً معه في الرؤية الفكرية أم مختلفاً، لهذا أسس معظم مؤلفاته على هذا الحوار ("الهوامل والشوامل" " المقابسات" "الإمتاع والمؤانسة"...) في مجالس العلماء ومجالس الوزراء، فتعرفنا على الغنى المعرفي الذي ساد في القرن الرابع الهجري، كما تعرفنا على آداب الحوار في ذلك العصر، حيث يتاح للرأي المعارض فرصة التعبير عن نفسه واحترام اختلافه! لهذا أكّد لنا التوحيدي، على لسان موريس اليوناني، مبدأ التعددية في الفكر والمنهج **"إني لأعجب من ناس يقولون: كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد، وهذا لا يستقيم، ولا يقع به نظام"**

إن مجالسة الآخر، أي الحوار معه، مصدر تعلم الحكمة وتنوعها؛ مما يؤدي إلى غنى الشخصية، وقد شبه هذه المجالسة والحوار بمصباح ينير ظلمة الحياة، وهو لا ينكر

المتاعب التي تصادف الإنسان من معاشرة الناس، لكنه يؤكد أن المرء يستطيع أن يتعلم منهم رغم ذلك، فيأخذ بمحاسنهم، ويبتعد عن مساوئهم.

وبناء على ذلك لن نستغرب **الموضوعية** التي شهدناها لدى التوحيدي في نظرته للآخر، حتى في كتابه الذي يحمل عنوانا ذا دلالة غير موضوعية **"مثالب الوزيرين"** والذي يوحي لنا باهتمام التوحيدي بجانب واحد من صفات الوزيرين هو المساوئ، لكننا ندهش حين نجده يذكر محاسنهما، في عدة مواضع من الكتاب!!

وبذلك استطاع التوحيدي أن يتخلص من الرؤية المتعصبة، التي كانت قد بدأت تقرّح جسد الأمة الإسلامية، في عصره، إذ تحصّر الكمال في وجهة نظر واحدة، تنغلق في شخص واحد أو أمة، لهذا رأى أن **الفلسفة العالية** تقوم على التعدد والتنوع، إذ إن الحكمة نزلت **"على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين"**

من هنا كان منطلقه الإنسان، مهما كان مستواه الاجتماعي متديّناً، فإنه يملك سمة تجعله متميّزا بها عن غيره، ومثل هذا التميز، يؤدي إلى تميز الأمم.

وبذلك لمسنا في كتبه دعوة إلى حوار الحضارات، إذ لا تستطيع أمة أن تملك بمفردها الحكمة والمعرفة والأدب والصناعة، فكانت هناك ضرورة ملحة للحوار بين الأمم، أي الأخذ والعطاء فيما بينها، وبذلك يتمّ تحقيق التكامل الإنساني أي الحضارة.

***

الحواشي:

1. أبو حيان التوحيدي "مثالب الوزيرين" تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق، 1961، المقدمة.
2. أبو حيان التوحيدي "الصداقة والصديق" دراسة وتحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار طلاس، دمشق، 1981، ص 28_27
3. أبو حيان التوحيدي "الإمتاع والمؤانسة" (ج1، ج2، ج3) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص19
4. أبو حيان التوحيدي "الصداقة والصديق" تحقيق وتعليق د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1998، مقدمة المحقق ص17 بتصرف
5. "رسائل أبي حيان التوحيدي" ص 324
6. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" مجلد (3) جزء (2) تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، دون تاريخ، ص12
7. خوان أنطونيو باتشيكو "أبو حيان التوحيدي أو العالمي الفرد" مجلة فصول، الجزء (1) المجلد الرابع عشر، العدد (3) خريف، 1995، ص48

8. حامد طاهر "فلسفة السؤال والتساؤل عند التوحيدي" مجلة فصول، الجزء (2) المجلد الرابع عشر، العدد 4) شتاء، 1996، ص140، بتصرف
9. أبو حيان التوحيدي ومسكويه "الهوامل والشوامل" تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صفر، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص2_3
10. "مثالب الوزيرين" ص215
11. "الإمتاع والمؤانسة" ج(1) ص54
12. "مثالب الوزيرين" ص74
13. "الإمتاع والمؤانسة" ص20_21
14. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" المجلد (2) الجزء (1) تحقيق د. إبراهيم، مكتبة أطلس، دمشق، دون تاريخ، ص254
15. "الإمتاع والمؤانسة" ج (1) ص120
16. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" الجلد (2) الجزء (2) تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، دون تاريخ، ص298_299
17. "الصداقة والصديق" ص135

18. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" المجلد (1) تحقيق د. إبـراهيم كيلانـي، دار أطلس، دمشـق، ط1، 1964، ص24
19. المصدر السابق، المجلد (2) ج (2) ص533
20. "الإمتاع والمؤانسة" ج (1) ص33
21. "الصداقة والصديق" ص78_79
22. "الإمتاع والمؤانسة" ج(1) ص34
23. "الهوامل والشوامل" ص255
24. "البصائر والذخائر" المجلد (1) ص363
25. أبو حيان التوحيدي "المقابسات" تحقيق حسن السندري، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2000، ص83
26. "مثالب الوزيرين" ص294
27. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" مجلد (2) جزء (2) ص332
28. "الصداقة والصديق" ص77
29. "البصائر والذخائر" المجلد (1) ص364_365 بتصرف

30. المصدر السابق، المجلد (2) الجزء (2) ص600
31. المصدر السابق" المجلد (3) الجزء (1) ص325
32. عيسى العاكوب "تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي، في العصر العباسي الأول" دار طلاس، دمشق، ط1، 1989، ص193
33. آدم ميتز "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريد، المجلد (2) دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1976، ص293
34. "مثالب الوزيرين"ص215
35. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر" المجلد (3) الجزء (2) تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، دون تاريخ، ص553_554
36. "الإمتاع والمؤانسة" ج(1) ص16
37. آدم ميتز "الحضارة الإسلامية" المجلد (1) ص75
38. "البصائر والذخائر" المجلد (3) الجزء (1) ص103
39. المصدر السابق المجلد (2) الجزء (2) ص827
40. "الإمتاع والمؤانسة" الجزء (1) ص15

41. المصدر السابق الجزء (2) ص129
42. "مثالب الوزيرين" ص303
43. الإمتاع ج3، ص187
44. المصدر السابق، ج1، ص33
45. راجع أبو حيان التوحيدي "الإشارات الإلهية" حققه وقدّم له عبد الرحمن بدوي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ط1، 1981، 228

صورة الآخر في كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ

يعدّ "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري (488 -584 هـ) من أهم كتب السيرة الذاتية في تراثنا، إذ أرّخ لغزو الفرنجة بلاد الإسلام، فسلّط الضوء على الذات مع الآخر في حالتي الحرب والسلم! فوثق لمواجهة غير مسبوقة، مازالت تسهم في توتر العلاقة بيننا وبين الغرب، وأدّت إلى تشويه صورتنا وصورته معاً!

لمسنا في سيرة أسامة بن منقذ تألقنا الحضاري، فترة الحروب الصليبية، وعايشنا ضعفنا العسكري الذي أتاح للمعتدي البقاء في أرضنا حوالي مئتي سنة، لهذا لم تطغَ طيلة تلك الفترة العلاقات العدائية، بل تخللتها علاقات إنسانية، كما قدّمت لنا تصويراً للمجتمع المضطرب، "ووصفت معاناته من غزو الفرنجة، لهذا يعدّ هذا الكتاب وثيقة حية من وثائق

حروب الإفرنج _ وهي أطول حروب التاريخ إلى اليوم_ لا نعرف لها شبيهاً، كما أن أسامة لم يكن يعبأ فيه بأخبار المعارك والتأريخ لها، على نحو ما نعرف من كتب التاريخ التي أرّخت لها، ولكنه كان يصور عن طريق السرد الحكائي واستحضار الوقائع والمواقف وحياة الناس التي تجري تحت سطح الأحداث الدامية، ويقف عند الصور العميقة المؤثرة منها."(1) على حد قول د. عبد الكريم الأشتر.

إن ما يلفت النظر في "كتاب الاعتبار" أن أجدادنا لم يطلقوا على أعدائهم اسم (الصليبيين) الذي أطلقه الآخر على نفسه، كي يعزز في وعي المتلقي أسباب غزوه الدينية، وإنما أطلق المسلمون عليهم اسم (الإفرنج) فنسبوا أعداءهم إلى المنطقة التي أتوا منها، لا إلى رمزهم الديني، لهذا سألجأ في دراستي إلى استخدم مصطلح (الإفرنج) وأبتعد عن مصطلح (الصليبيين) رغم شيوعه اليوم! لأنه أكثر موضوعية باعتقادي!

لعل أهمية "كتاب الاعتبار" تكمن في تعريفنا كيف **"حاكت الحروب الصليبية علاقات التعايش والتحالف والصداقات، وهو ما يضيف إلى الصورة بعض الازدواجية بين العداء والإعجاب .."(2)** .

وبذلك استطاع هذا الكتاب أن يمحو عن أذهاننا ما تخلفه الحروب من علاقات متوترة مع الآخر، وينقل لنا حقيقة، غالباً ما تغيب عن أذهاننا، وهي أن الإنسان يتوق إلى حياة إنسانية وادعة، تنفتح على الآخر بعيداً عن الحرب!

صورة الآخر بين السلبية والإيجابية:

نلمح في هذا الكتاب معايشة حقيقية للآخر أيام الصلح، فرسم ابن منقذ لنا ملامح علاقة إنسانية تتراوح بين الصداقة الحميمة وبين اللقاء العابر!

ما يدهش في هذه العلاقة أن الفارس المقاتل يتوق، أثناء الهدنة، للتعرف على الآخر المسلم، الذي حاربه قبل قليل، فيأتي برسالة توصية من ملكه صاحب إنطاكية، تقول "**هذا فارس محتشم من الإفرنج...يريد الرجوع إلى بلاده، وسألني أن أسيّره إليكم، يبصر فرسانكم...فاستوصوا به، وكان شاباً حسن الصورة، حسن اللباس، إلا أن فيه آثار جراح كثيرة...**"(3)

من الواضح أن هذه الجراح كانت بسبب قتاله المسلمين! رغم ذلك استقبله هؤلاء المسلمون، حتى إن ابن منقذ يصفه بحسن الصورة واللباس، رغم أنه أحد الأعداء، فيذكر

محاسنه (فارس محتشم، يرغب بالتعلم من أعدائه، حسن الصورة ...)

كما حدثنا ابن منقذ عن أحد ملوك الفرنجة (دنكري) بعد صلحه مع المسلمين أرسل يطلب منهم فرساً جواداً، أعجبه أثناء القتال، وقد كان يركبه البطل (حسون) أحد غلمان عم (ابن منقذ) فلما أرسله أعجب به (دنكري) وفرسانه، وخلع عليه، فطلب منه حسون الأمان إذا ظفر به في القتال، فأعطاه أمانه **"على ما توهم حسون، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ما ندري ما يقولون..وحين أخذ أسيراً عذّب أنواع العذاب .."(4)**

نلاحظ أن العداء لم يكن مستحكماً بين الطرفين، ما إن يتوقف القتال، حتى يتحول العدو إلى صديق يطلب التعرف على ما كان قد أدهشه في ساحة الحرب! فيحرص المسلمون على تلبية رغباته، رغم أنهم قاتلوه قبل قليل!

ما يدهشنا هنا هو تلك اللغة الموضوعية التي تصور الآخر الذي نكث العهد مع (حسون) فقد أعطاه ملك الإفرنج الأمان **"على ما توهم حسون"** إذ من المحتمل أن يخطئ (حسون) كونه لا يفهم لغة الإفرنج! لهذا كان نكث الأعداء للعهد أمراً مشكوكاً فيه، وذلك بسبب جهل لغتهم، مما يفسح مجالاً لسوء الفهم، فيبتعد عن إساءة الظن بهم!

لكنه قد لا يستخدم، أحياناً، ضبط نفسه، فتسيطر عليه لغة متوترة تشي بحالة العداء التي عايشها ابن منقذ مع الإفرنج، فتبدو انعكاساً لساحة القتال، فمثلاً نجده يصف طعنة عظيمة **"طعنها فارس من الإفرنج، خذلهم الله، فارسا من أجنادنا...قطع له ثلاثة أضلاع من جانب اليسار، وثلاثة أضلاع من جانب الأيمن، وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل! ومات لساعته"(5)**

لا يكتفي بمدح طعنة فارس من الأعداء بل نجده، في موضع آخر، يوثّق لشجاعتهم التي تجعل فارساً منهم يلحق الهزيمة بأربعة فوارس من المسلمين!!

وهو رغم هذه اللغة التي هي وليدة صراع طويل مع الإفرنج، لم يتخل عن موضوعيته في رسم صورتهم **"والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا الفرسان..."(6)**

لهذا حين تعترض الملك أية مشكلة نجده يحكّم هؤلاء الفرسان بصفتهم مستشارين! فيحكمون بالعدل في مشكلة قطعان الأغنام التي سرقها صاحب بانياس من المسلمين، فيأمرون بردّها وبدفع غرامة لقاء ما أُتلف منها!

لكن هذا الحكم لا ينفي تخلفهم في القضاء، فقد حكموا على أحد المسلمين الذي كان يحتال لقتلهم بأن يربط من كتفيه بحبل، ويرمى في برميل ماء، فإذا كان بريئاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل! وإن كان مذنباً يطفو فوقه!

ويورد ابن منقذ أمثلة على جهلهم في مجال الطب كمداواة الرجل المصابة بدملة بقطعها! أما مداواة البله لدى المرأة فيكون بشق رأسها الذي دخله الشيطان، وسلخ وسطه حتى يظهر العظم، وحكّه بالملح، مما أدى إلى موتها! وحين جاء مريض يطلب علاجاً من قس، صبّ الشمع على أنفه وسدّه، فمات، قال القس: سددت أنفه حتى يموت ويستريح!

ثمة رؤية موضوعية في مشهد آخر، يظهر نجاعة الخل الحاد في مداواة جراح الملك!

كما يحدثنا عن جانب مشرق في ممارسة الطب لدى الفرنجة، وهو ربط عمل الخير بالمداواة ، فقد رأى أحدهم رجلاً مسلماً مع ابنه المصاب بقروح صعبة (تدعى خنازير) فقال له: تحلف بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ أجرة المداواة من أي مصاب بهذا الداء! فحلف فوصف له الدواء وشفي ابنه!

إذاً رغم أجواء الحرب لم تصاحب هذه اللغة المتوترة ابن منقذ في الكتاب كله، إذ لكل مقام مقال، تختلف اللغة أيام السلم عن أيام الحرب، فتصبح معادية، لهذا وصفهم بـ(البهائم) وحين يذكر أفعالهم السيئة لا بد أن يدعو عليهم بـ(لعنهم الله، خذلهم الله...)

أما في أيام السلم فتتكشف له إنسانيتهم، لذلك من الطبيعي أن تختفي تلك اللغة المستفزة! فمثلاً حين تحدّث عن غزو تعرضت له الرقة من جند (جوسلين) فهرب (نجم الدولة) صاحب الرقة إلى (جوسلين) الذي لم ينس المعروف الذي كان قد قدّمه له (نجم الدولة) فأطلق أسراه وردّ الغنائم التي أخذها!

من هنا يمكننا القول بأن تلك اللغة لم تكن وليدة تحيّز ابن منقذ لقومه ضد الآخر، فقد أورد حوادث تدلّ على جهل كل من الفريقين المتصارعين، فمثلاً قرر مئة من المسلمين حرق معسكر الأعداء، فخرجوا بالنار غربي الخيام في الزرع، فساقتها الريح إلى خيامهم، فصار الليل كالنهار، عندئذ رآهم الإفرنج، فهجموا عليهم، وقتلوا أكثرهم! فعلّق ابن منقذ قائلاً **"هذه آثار الجهل وعواقبه"** وبذلك فضح قومه، ومارس نوعاً من النقد الذاتي!

كما يروي لنا حادثة أخرى تثبت جهل الطرف الآخر (الإفرنج) ففي بانياس ضرب البطرك خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها، يتولى خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والخيش، فكثرت البراغيث، حينئذ رأى الشماس أن يحرق الحلفاء والخيش لتحترق البراغيث، فحرقت الخيمة، يعلّق ابن منقذ : **"فهذا لم يحضره العقل"**(7)

نلاحظ أن تعليق ابن منقذ على الحادثتين كان واحداً، فكلا الطرفين افتقد العقل في تصرفاته، واستسلم للجهل، فناله السوء، بل الأدهى أنه آذى نفسه، مع أنه في حالة حرب من الواجب أنه ينتبه أكثر من أي وقت آخر!

يدهشنا في هذه السيرة الأحداث الغنية التي يرويها، والتي ترصد لنا الحياة بكل تنوعها وانفتاحها على الإنسان دون النظر إلى انتمائه الديني أو العرقي، فكان يوثق حوادث حقيقية تبرز سمو العلاقات الإنسانية عن تلك الانتماءات القاتلة! لهذا حدثنا على لسان غلامه كيف أنقذ رجل نصراني يدعى (يونان) القافلة من الهلاك، حين حماها من قطاع طرق يعرفهم، وأوصلها مأمنها! مع أن علاقته به اقتصرت على اكتراء بغل فقط!

علاقة (أنا) المؤلف بالآخر:

لعل ميزة "كتاب الاعتبار" أنه قدّم لنا سيرة حية، تضم واقعاً عاناه ابن منقذ بكل علاقاته الملتبسة، فعكس لنا الفضاء المظلم للحرب، كما عكس فضاء مشرقاً نسجته روح سمحة لدى المسلم (ابن منقذ) ولدى الإفرنجي معاً، حتى تحوّلت الصداقة إلى أخوة **"كان في عسكر الملك فُلك FULK بن فلك فارس محتشم إفرنجي، قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي، وصار ملازمي، يدعوني "أخي" وبيننا المودة والمعاشرة."**(8)

تحول الآخر العدو إلى صديق، صحيح أنه يحمل صفة الفارس الملازمة للمقاتل، لكنه محتشم، لا علاقة له بالحرب، جاء ليحج ويعود، لكن الصداقة التي نشأت بينه وبين ابن منقذ دفعته للبقاء إلى جانبه، لذلك أسبغ صفات إيجابية عليهما معا، فاستخدم لفظة (بيننا) ليوحي، عبر ضمير الجماعة، بتوحد الأنا بالآخر عبر مشاعر الحب والمعاشرة اليومية!

وقد وجدناه يحدثنا بلسان صديق له، لبّى دعوة أحد الإفرنجيين (وهو من أوائل الفرسان الذين أتوا بلاد المسلمين) في إنطاكية، وحين وضعت المائدة لاحظ تردد المسلم في تناول

الطعام، إذ يبدو أنه لم يستطع التخلي عن نسق عقائدي تربى عليه (أن يحتوي الطعام ما يخالف الشريعة) فطمأنه صديقه بأنه تخلى عن عادات الإفرنج في صنع الطعام، إذ لا يدخل داره لحم خنزير، وأن لديه طباخات مصريات، فقال ابن منقذ: **"أكلت وأنا محترز"(9).**

نلمح هنا آثار العلاقة المتوترة مع الآخر، فقد جامل المسلم الإفرنجي وأكل من طعامه، لكنه لم يكن مطمئن القلب! المهم أنه لبّى الدعوة أيام السلم! لكنه لم ينسَ أيام الحرب، التي تورث عدم الثقة والقلق! خاصة أنه يتناول الطعام عند شخص يقابله للمرة الأولى في حياته!

لم تكن العلاقة الودية مع الآخر أمراً طارئاً، فقد حدثنا ابن منقذ عن تلك العلاقة التي نشأت بين والده وعمه وبين صاحب أنطاكية، الذي كان أسيراً لديهما فعاملاه معاملة حسنة، وحين صار والياً، ردّ الجميل، لهذا يقول ابن منقذ: **"صار أمرنا في إنطاكية نافذا"**

وقد أرسل صاحب أنطاكية فارسا من فرسانه في مهمة سرية إلى القدس، فطلب من عم ابن منقذ (صاحب شيزر) أن يؤمن له خيولاً توصله إلى هدفه آمناً، المدهش أن هذا الفارس قد أسرّ بمهمته للمسلم (عمه) مبيناً له سبب ثقته به، فقد

وجده رجلاً حكيماً، واستدلّ على ذلك من عمارة بلاده، في حين كانت البلاد التي مرّ بها خربة!

هذا لا يعني أن العلاقة ودية دائماً، إذ خالطتها مشاعر العداء أحياناً، لم تتجلَ في ساحات القتال فحسب، وإنما في أيام السلم، فحين أرسل ابن منقذ أهله إلى الشام، عانى من نقضهم للعهد، رغم أن الملك العادل أخذ له الأمان من ملك الإفرنج في البر والبحر، فقد أرسل هذا الملك من يكسر بالفؤوس المركب حين اقترب من عكا، عندئذ أسرع أحد غلمان ابن منقذ إليه ليريه الأمان، قال الملك **"هذا رسم للمسلمين إذا انكسر مركب لهم على بلد نهبه أهل ذلك البلد، فقال: أ فتسبينا؟ قال: لا، وأنزلهم، لعنه الله، في داره، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهن...فهوّن عليّ سلامة أولادي وأولاد أخي وحُرَمِنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت."**(10)

لقد وجدنا ابن منقذ عبر سيرته الذاتية يقدّم لنا نموذجين من ملوك الإفرنج الأول يحترم مواثيقه مع المسلمين والثاني لا يحترمها!

نلاحظ أن الهدف من نقض العهد المال والنفائس، التي من بينها الكتب، لهذا لم يتعرض ملك الإفرنج لحياة المسلمين، بعد أن حصّل بغيته!

وقد استسهل ابن منقذ خسارته المادية مقابل سلامة أهله، لكن فقدان ثروته الحقيقية (الكتب) قهره مدى حياته! وبذلك تجلت لنا أهمية الكتب لدى المسلم ولدى الإفرنجي الذي بدأ يدرك قيمتها! لهذا يعدّ غزو بلاد المسلمين أحد عوامل النهضة في أوروبا!

عايشنا في موضع آخر من السيرة الذاتية صداقته لأحد الملوك الذي يقول له "**يا فلان! بحق ديني، لقد فرحت البارحة فرحا عظيما، قلت: الله يفرح الملك! بماذا فرحت؟ قالوا لي إنك فارس عظيم، وما كنت أعتقد أنك فارس" قلت يا مولاي، أنا فارس من جنسي وقومي**" (11)

نلاحظ سيطرة الذهنية العسكرية على الملك الإفرنجي، حتى في فترة الهدنة التي أتاحت الفرصة لنشوء صداقة بينه وبين ابن منقذ، لهذا أفرحه فروسية صديقه المسلم!! وما يلفت النظر هو تذكير ابن منقذ للملك بانتمائه لقومه! كأنه يلمح إلى اعتداده بذلك، وأن الصداقة مع الإفرنجي لن تتناقض مع اعتزازه بأهله!

وقد وصلت الصداقة بين ابن منقذ وأحد الإفرنجيين أن عرض عليه، حين أراد العودة إلى بلاده، أن يأخذ معه ابنه (مرهف) **"يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل!** (يوضح لنا ابن منقذ) **إن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج!"(12)**

ألقت الحرب ظلالها السوداء على العلاقة الودية بين الطرفين، لذلك بدا سوء التفاهم، حين جرّد الإفرنجي ابن صديقه من العقل والفروسية؛ في حين رأى المسلم في سفر ابنه إلى بلاد الآخر نوعاً من الأسر، فالذاكرة الحربية طبعت العلاقة بينهما بالتوتر، مما أدى إلى تشويه التواصل معه، لم تستطع مشاعر الصداقة أن تبددها! ففي مشهد آخر فسّر تصرفات الإفرنج انطلاقاً من تلك الذاكرة، فقد حدثنا عن رجل من المتصوفة يصلي على سطح مسجد، وحين جاء الإفرنج، وصعدوا إليه، ردد ابن منقذ مع أصحابه **"لا حول ولا قوة إلا بالله! الساعة يقتلونه، فلا والله ما قطع صلاته، ولا زال من مكانه، وعاد الإفرنج فنزلوا، ركبوا خيولهم، وانصرفوا، وهو واقف مكانه يصلي، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أعماهم عنه، وستره عن أبصارهم. فسبحان القادر الرحيم."**(13)

يتضح أثر العلاقة المتوترة في استخدام ابن منقذ لغة قاسية (أعماهم عنه) والتأكيد على أن ثمة قدرة إلهية أبعدت الإفرنج عن المتصوف، فقد يكون عدم رؤيته إحدى كراماته!

هنا نتساءل: ألا يمكن أن يكون الإفرنج احترموا صلاة المسلم وتركوه وشأنه؟! أليست العلاقة المتوترة بين الإفرنج والعرب دفعت ابن منقذ إلى ذلك التفسير الغيبي! فاستبعد ذلك التفسير الذي يمكن أن يعطي صورة مشرقة عن الإفرنج!

يريد ابن منقذ أن يعزّز موقع المتصوف في المجتمع، لهذا سلّط الضوء على قدرات استثنائية يتمتع بها، إذ من المعروف أنه حين **"بدأت حركة الاسترداد الإسلامية تشتد استخدم الأيوبيون الحركة الصوفية لتعبئة المشاعر ضد الأعداء."(14)**

ومما يلفت الانتباه أن ذلك التفسير لا يعني ابتعاد ابن منقذ عن الموضوعية، إذ إن العلاقة المتوترة والمصبوغة بالدماء، لم تمنع ابن منقذ من رؤية الآخر بصورة أقرب إلى الحياد حتى في ساحات القتال، فقد وثّق لنا كيف هزم ابن منقذ وابن عم له ثمانية من فرسانهم، ثم لحق بهما رويجل، وهزمهما، في لحظة أحسا فيها بالعزة، إذ قاما بأمر لا يستطيعه غيرهما! لذلك يقول: **"وانصرفنا وفي قلبي، من ذلك**

الراجل الذي هزمنا، حسرة...، كيف هزمنا راجل واحد، وقد هزمنا ثمانية من فرسان الإفرنج."(15)

يكتب ابن منقذ سيرته الذاتية، دون أن يجمّل نفسه، ويشوّه عدوّه، كما يفعل معظم كتّاب السيرة العرب اليوم، ألم يكن باستطاعته أن يحدثنا عن أمجاده ويصمت عن هزائمه؟!

صورة المرأة في الحروب الصليبية:

رغم أن المرأة المسلمة كانت بعيدة عن معارك المواجهة مع العدو، إلا أنها لم تعفِ نفسها من فريضة الجهاد! رغم أنها تقيم في بيتها، لكنها تبتكر وسائل تواجه بها العدو الداخلي، فقد قتلت امرأة زوجها لتجسسه لصالح الفرنجة، ثم قالت لابن منقذ: **"غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر!"**

كما ابتكرت المرأة المسلمة أساليب لقتال الفرنجة، فقد حدثنا ابن منقذ عن امرأة أخرى كان تستدرج رجالهم إلى بيتها، ثم تنادي جيرانها كي يقتلوهم!

وهكذا استطاعت المرأة أن تسهم في مواجهة الفرنجة، وهي في بيتها! إذ يحظّر عليها الخروج منه، نظراً للأذى، الذي

تتعرض لها في الحروب (السبي، الاغتصاب...) فابتكرت أساليب، تناسب نسقها الاجتماعي! فهي لم تقنع بدور المتفرج أثناء قتال الفرنجة! ولم نجد لدى ابن منقذ تلك النظرة الدونية للمرأة، فيعلق على قول أمه: إنها تفضل أن ترمي ابنتها في الوادي على أن تصبح أسيرة! "**فهذه نخوة أشد من نخوات الرجال**".

يلاحظ أن ابن منقذ لم يجرد المرأة الإفرنجية من تلك الحمية لصالح المرأة المسلمة، بل وجدناه يوّثق لبطولتها، فهي تسهم في القتال بأدوات منزلية بسيطة، فقد ذكر لنا كيف أن امرأة إفرنجية انتقمت لزوجها الذي قتله أحد المسلمين، فهجمت على قاتله بكوز، وجرحته!

نلمح النزعة الموضوعية لدى ابن منقذ، فهو لم يجرد نساء العدو من الفضائل، حتى إنه في صورة أخرى حدّثنا كيف أن امرأة إفرنجية سبيت، لكن عزة نفسها، جعلها تفضل حياة الفقر بين قومها على حياة أميرة بين المسلمين! فقد تزوجها الأمير شهاب الدين، وولدت له ولداً أسماه (بدران) وحين مات والده تولى إمارة البلد، فكانت أمه الآمرة الناهية، رغم ذلك **واعدت قومها، وتدلّت من القلعة بحبل**، وهربت لتتزوج من إسكافي من قومها!(16)

قدّم لنا ابن منقذ، هنا، نموذجاً نسوياً فذاً، إذ لم تجد المرأة شيئاً يمكن أن يعوضها عن فقدان الحرية والكرامة، رغم أنها أصبحت زوجة أمير، ومع مرور الزمن أصبح ابنها أميراً، لكن ذلك لم يكن ينسيها حياة الأسر، لهذا صبرت حتى واتتها الفرصة، فهربت مخاطرة بروحها (تدلّت بحبل) من أجل حريتها، وبناء على ذلك لن نستغرب أن تتزوج المرأة الحرة إسكافياً، بعد أن آذاها شعور الأسر بين المسلمين، رغم مرور زمن طويل على إقامتها بينهم، ورغم مكانتها الاجتماعية بينهم! ومثل هذا الخيار يعكس مدى التوتر بين الفرنجة والمسلمين!!! كما يعكس مشاعر أصيلة تنبض في أعماق الإنسان سواء أكان رجلاً أم امرأة!

صورة الآخر والأنا:

إننا لن نستطيع أن نرى الآخر بمعزل عن ذواتنا، إنه مرآتنا، التي تعكس محاسننا وعيوبنا، فنرى أنفسنا فيها في لحظة قوة ننعم بالحضارة، فنرى الآخر عبر (أنا) موضوعية، تتحيز للحقيقة، لا تعرف مجاملة الذات على حساب الآخر! لهذا لم يغرق ابن منقذ في الذاتية، بل كثيراً ما اختلطت لديه (الأنا) بـ(النحن) نظراً لطبيعة حياته، التي لم تعرف العزلة،

فشارك في القتال، كما شارك في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية!

صحيح أننا قد نلمح في "كتاب الاعتبار" أحياناً، نبرة استعلائية، فيصف الآخر العدو بصفات سلبية (بهائم، جنس ملعون...) فقد ارتكب أبشع المجازر مستغلاً حالة ضعف (الأنا) المسلمة! رغم ذلك استطاع ابن منقذ أن يلفت نظرنا إلى أن ثمة إحساسا بالتفوق، تجلى ليس فقط باستخدام كلمات استعلائية، وإنما من خلال رسم صورة للآخر المنتصر عسكرياً، والمهزوم حضاريا، فبدت لنا (الأنا) واثقة بنفسها، فهي تنتمي إلى حضارة تشع حتى على أعدائها، لهذا رأى **"كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلّدوا وعاشروا المسلمين."(17)**

يستخدم ابن منقذ لفظة (تبلّدوا) أي استوطنوا في بلد الإسلام، وتأقلموا مع عادات أهلها المسلمين نتيجة معاشرتهم أيام السلم! وبهذا تنعكس مقولة ابن خلدون (المغلوب مولع بتقليد الغالب) إذ نجد الفرنجة المنتصرين قلّدوا المسلمين المهزومين، فسعوا إلى الاستيلاء على كتبهم وعادات طعامهم!

وبما أن إحساسهم بالتفوق الحضاري كان كبيراً، لهذا كان وقع الهزيمة شديداً، فبذلوا جهدهم لمقاومة الغزو، ولم

يعرف اليأس طريقه إلى قلوبهم! فقد كانت الهزيمة حافزاً لتغيير الذات واسترداد الكرامة! وقد وثّق لنا ابن منقذ هذا الإحساس، حين حدثنا عن جماعة من المسلمين هزمهم فارس إفرنجي واحد، **"فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا يطمعون بها، فاشتهروا في الحرب، وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة!"**(18)

يجسد لنا ابن منقذ لحظة تاريخية هُزمت فيها الذات، لكنها رفضت الاستسلام، وامتلأت عزيمة، أصرّت بها على النصر!

وقد منحهم إيمانهم العميق ثقة بالله، لذلك كان قتال الفرنجة دفاعاً عن النفس والعقيدة والوطن معاً، خاصة أن أعداءهم، حين تاجروا بالدين (الصليب) استفزّوا فيهم مشاعر دينية؛ لهذا وصف ابن منقذ نصرهم على الإفرنج بقوله: **"نصر الله، سبحانه وتعالى، الإسلام"** وبذلك اتسعت دلالة النصر على الأعداء، فباتت نصراً لدين الله!!

وقد عايشنا في "كتاب الاعتبار" بفضل هذا التوحد مشاهد بطولية رائعة، يكاد يصعب تصديقها! لكن الأنا المؤمنة، التي أحست أن الآخر يهدد كيانها أي كل ما تعتزّ به، لجأت للدفاع عن ذاتها باذلة كل ما يمكنها بذله! حتى

بدت أمامنا هذه الأنا أشبه بشخصية أسطورية في حماستها وتضحيتها! فمثلاً حين خبثت رجل علي بن فرج قطعها، ولم يمنعه ذلك من مواصلة القتال "**فكان يركب في سرجه بركاب واحد، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبته، ويحضر القتال، ويطاعن الفرنج، وهو على تلك الحال...**"(19)

وآخر ينتزع، أثناء المعركة مع الإفرنج، رمحاً من فخذه رماه به الأعداء، ليوجهه إليهم مرة أخرى، غير مبالٍ بجرحه، وحين استدعى الأمير أحد العميان ليعلّمه التجويد والفقه، فوجئ بقوله: "**ظننتك تأمر لي بفرس للقتال.**"!!

تبدو لنا هذه (الأنا) في لحظة تاريخية استثنائية، أحست فيها أن الآخر يهدد كيانها ومعتقداتها، مثلما يهدد أرضها، فحاولت بذل أقصى ما يمكنها كي تستطيع الحفاظ على هويتها! فالتألق الحضاري لن يكون بالعمران فقط، بل ببناء إنسان يرفض الذل، حتى إنه يفضل الموت على عار الاستكانة للأعداء! لهذا لمسنا لدى ابن منقذ شخصيات، تبتكر وسائل فذّة للدفاع عن ذاته (انتزاع الرمح من الفخذ وردّه للأعداء) بل إن الرغبة في المقاومة تراود الأعمى قبل البصير!

الخاتمة:

وهكذا تحولت السيرة الذاتية في "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ إلى سيرة جمعية للأمة، اندمجت فيها (الأنا) بـ(النحن) فلمسنا روح الأمة في لحظة نادرة من التاريخ! كبونا فيها وناضلنا لننهض ثانية!

كما عايشنا صورة حية للذات والآخر، سلطت الضوء على مرحلة تاريخية متوترة بيننا وبين الآخر، فلم تجدها مصبوغة بالدم دائماً، فبعيداً عن ساحات الحرب نشأت علاقات إنسانية، لعل أحد تجلياتها التبادل اللغوي بين اللغة العربية والإفرنجية، فقد استعار ابن منقذ، مفردات من لغتهم (سرجند sergeant ليبين رتبة أحد الجنود، وهو لم يأخذ منهم لغة الحرب فقط، بل استخدم البرجاسية bourgeoisie أي التجار والصناع الذين يشكلون الطبقة الوسطى!

لهذا فضّل الكثير من الإفرنج بعد هزيمتهم الاستقرار في الشرق، فقد جذبتهم الحضارة الإسلامية التي تفتح صدرها لكل الناس بغض النظر عن عقيدتهم أو عرقهم! وكما يقول تييري هنتش: إن التعايش بين الإسلام والمسيحية يشكل جزءاً من الإرث العربي والإسلامي.(20)

الحواشي:

1. أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار" مذكرات دقق نصوصها وفصّل فقرها وقدّم لها وعلّق عليها د. عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، ط2، 2003، المقدمة ص19
2. مجموعة من الدارسين "صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1999، ص224
3. "كتاب الاعتبار" ص141
4. المصدر السابق، ص136
5. المصدر السابق نفسه، ص113
6. نفسه، ص 135
7. نفسه، ص162 -163، بتصرف
8. نفسه، ص219
9. نفسه ، ص231، بتصرف
10. نفسه، ص96
11. نفسه، ص136

12. نفسه، ص219
13. نفسه، ص171
14. د. قاسم عبده قاسم "ماهية الحروب الصليبية" سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ع149، شوال 1410، أسار، 1990، ص209
15. "كتاب الاعتبار" ص126
16. المصدر السابق، ص217 -218، بتصرف
17. المصدر السابق نفسه، ص252
18. نفسه، ص139
19. نفسه، ص238
20. تييري هنتش "الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ت د. مي عبد الكريم، دار المدى ،ط1، 2006، ص99

صورة الآخر في ألف ليلة وليلة

إن دراسة صورة الآخر، تؤدي إلى معرفة الذات، على المستوى الفردي والجمعي، إذ يتمّ بفضلها ملاحظة العقد والمكبوتات، التي تتجلى في لغة الحلم والإحباط، الذي يعاني منه الفرد والأمة على السواء! إذ لا يمكن أن يكون الخيال الذي يشكل أبرز ملامح الصورة مجرد أوهام لا علاقة لها بالواقع، أو بمشاعر، وذكريات، تشكلها مؤثرات تاريخية وبيئية وتجارب يومية وأحلام شخصية! قد تبدو معتدلة موضوعية، أو تتجلى في رهاب من الآخر أو هوس به، لعل مصدرهما عقد نقص أو استعلاء، تتربّع في الذات، فتؤثر في انحراف النظرة إلى هذا الآخر!

لذلك تهتم دراسة الصورة ليس بواقعيتها فقط، وإنما بمطابقتها لنسق معرفي موجود قبلها في الثقافة الدارسة، وليس في الثقافة المدروسة، فيتمّ التعرّف على عناصرها ووظيفتها الاجتماعية!(1)

إن الآخر في "ألف ليلة وليلة" هو الذي يختلف عن (الأنا) العربية المسلمة الحرة (الفارسي، الهندي، الإفرنجي، العبد) كما يختلف عن الأنا الأرضية (الجني) والأنا الذكورية (المرأة)! ولكن هل كتاب "ألف ليلة" ينتمي فعلاً للأنا الحضارية العربية الإسلامية؟

إشكاليات انتماء ألف ليلة وليلة

شكّك بعض الباحثين في انتماء كتاب "ألف ليلة وليلة" للثقافة العربية الإسلامية، إذ رأوها ترجمة للكتاب الفارسي "هزار أفسان" أي ألف خرافة، وقد أعجب به الخلفاء والولاة، فنسج الرواة المسلمون قصصاً على منواله، وقد ضاع أصل الكتاب، وبقيت ترجمته العربية! لكن يلاحظ في المقالة الثامنة (في كتاب "الفهرست" لابن النديم على لسان محمد بن اسحق) أن محمد بن عبدوس الجهشياري حاول أن يؤلف كتاباً فيه ألف سمر، فاختار له من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، لكن وافته المنية، ولم ينجز سوى أربعمئة وثمانين ليلة.

إذاً من المرجح أن الإطار العام لليالي مأخوذ من (هزار أفسان) لكن أبناء الحضارة العربية الإسلامية، بغض النظر

عن أعراقهم، اشتركوا جميعاً في تأليفها، وما يؤكد هذا القول أن الفضاء المكاني الذي تتحرك فيه الشخصيات كان، في معظم الأحيان، حواضر عربية (القاهرة، بغداد، دمشق...)

هنا قد يعترض أحدهم قائلاً: هل استخدام المهاجر لغة البلد (الذي هاجر إليه) يعدّ انتساباً له!؟ أي هل يمكن أن يعدّ ما كتبه الفارسي أو اليوناني أو ... بالعربية أدباً عربياً؟

نجد الإجابة واضحة في الحضارة الإسلامية (التي اعتمدت في تشريعاتها القرآن الكريم والحديث الشريف) فقد لاحظنا تأكيداً على أن إتقان اللغة العربية، يعني انتماء للعروبة، فالحديث الشريف يقول: **"ليست العروبة من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي"** (رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل) وبذلك تلغى النظرة العرقية الضيقة، خاصة أن العربية باتت لغة الحياة الروحية، يُتعبّد فيها في كل صلاة ودعاء! كما أنها لغة الثقافة والتجارة!

وعلى هذا الأساس، لن نستغرب شيوع اللغة الدينية على لسان شخصيات "ألف ليلة وليلة" أبدعها عدة كتّاب من أبناء الحضارة العربية الإسلامية، تتابعوا حتى فترة متأخرة من العصر المملوكي، خاصة أن بناءها الحكائي كان مفتوحاً،

يستطيع استيعاب الكثير من القصص المتفرّعة عن القصة الرئيسية (التي نلاحظ فيها شهرزاد الراوية تنقذ روحها من بطش شهريار بتشويقه إلى متابعة حبكة قصة) لهذا قد نجد في الليلة الواحدة أكثر من حدث فرعي، يتداخل مع القصة الرئيسية دون أن يؤدي ذلك إلى خلخلة البناء!

من هنا يلاحظ اشتراك مؤثرات كثيرة في مدّ الليالي بالقصص، فقد أورد ابن النديم في "الفهرست" عناوين بعض كتب الأسمار الفارسية والهندية والبابلية، التي شكّلت، برأينا، معيناً لليالي! على هذا الأساس يمكننا القول: بأن فكرة كتاب "ألف ليلة" قد تنتمي إلى حضارات سابقة، لكن الروح، التي منحته هويته الخاصة هي روح إسلامية منفتحة على الآخر! لهذا لا يمكن أن نقبل رأي المشككين الذين استندوا في نفي هذا الانتماء إلى بعض الأفكار المتسرعة كاحتوائه على بعض الأسماء الأعجمية التي تتعلق بالأشخاص أو بالأمكنة، فباتت دليلاً، في نظرهم، على انتماء الليالي لثقافة الآخر (الفارسي أو الهندي ...) دون أن ينتبهوا إلى السياق الحضاري، الذي هو سياق إسلامي، تحركت في فضاءاته معظم الشخصيات، لهذا فإن تغريب الاسم ليس بالضرورة تغريباً للدلالة، فمثلاً نجد البطلة الرئيسية ذات الاسم الفارسي

(شهرزاد) تقول لأبيها في الصفحات الأولى قبل أن تبدأ الليالي: **"يا أبتي زوّجني هذا الملك فإما أن أعيش وإما أن أكون فداء لبنات المسلمين وسبباً لخلاصهن من بين يديه"**(2) فهي تتبنى مفاهيم إسلامية؛ تدفعها إلى فكرة التضحية بنفسها من أجل بنات، يشاركنها الانتماء الديني نفسه!

من هنا يبدو هذا الكتاب صورة لامتزاج أبناء الحضارات السابقة (الفارسية، الهندية، اليونانية، الرومانية) بالحضارة العربية الإسلامية، التي بدت لنا منفتحة على ثقافة الآخر، فلم ترفض إلا ما يخالف التعاليم الدينية؛ لكن كيف تمّ الاحتكاك بالآخر؟

لاحظنا أنه تمّ عن طريقين: الأول هجرة أجناس مختلفة إلى المراكز الحضارية العربية؛ والثاني هجرة معاكسة من المركز إلى الأطراف، حيث يعود أبناء هذه الحضارة من الرحالة والتجار (3) إلى بلادهم حاملين قصص الآخر، الذي سافروا إليه!

وقد حدث اللقاء بين الأنا (العربية الإسلامية) والآخر في عالم لم يعرف الحدود، كما لاحظنا في الليالي؛ مما أسهم في غنى المخيلة والتجارب الإنسانية بالإضافة إلى الغنى المعرفي؛ خاصة أن معظم أبطالها من التجار وأبنائهم، الذين امتازوا

بولعهم بالسفر! فكان السعي وراء الرزق وجهاً آخر للمغامرة والمعرفة ومعايشة الآخر المختلف! لهذا وجدنا السندباد في الليلة (550) بعد أن ملّ المقام في بغداد، يقول: **"اشتقت إلى مصاحبة الأجناس"**

لم تعانِ الليالي فقط من التشكيك في انتمائها إلى الثقافة الإسلامية، بل عانت أيضاً من نظرة الاحتقار لدى بعض التقليديين، فوصفها ابن النديم بأنها **"كتاب غث بارد الحديث"**(4)

ومن الملاحظ، مع الأسف، أن العرب في العصر الحديث لم يهتموا بها إلا بعد أن احتفى بها الغربيون، وقد بيّن جبرا إبراهيم جبرا أن من أهم أسباب احتقارهم لهذا الكتاب أنه يكاد يكون مكتوبا بلغة عامية الصيغ، فيردّ عليهم بأن اللغة فيه قد لا تتوهج لفظا، ولكنها تتوهج بما فيها من شعر ومحتوى، وهم لم يلتفتوا إلى جمال التركيب، وخطورة الفكر والصور المبثوثة في "ألف ليلة وليلة" ومما يثير دهشة المتلقي، أن العرب، لم يلتفتوا إليها إلا في هذا القرن إلى الجوانب النفسية والاجتماعية والجمالية، وإذا كان التقليديون، يحتقرونها لكونها أدباً شعبياً، فإن المحدثين يعلون من قيمتها للسبب نفسه، فهي تمثل فوران المخيلة على

نطاق الأمة، الذي هو فوران دون حدود...(5) كما تمثل نبض الحياة بكل تفاصيلها اليومية!

إذاً لا نستطيع أن ننظر إلى "ألف ليلة وليلة" على أنه كتاب تسلية فقط، بل هي كنز يزخر بمتع جمالية، وبحقائق تمس الوجود الإنساني في أي زمان وأي مكان (الطموح لعالم المثل، الشوق للمغامرة والتجدد، الحلم بمقاومة الظلم والفقر، الرغبة في الانتصار على كل تحديات الحياة من كوارث وحروب، والعيش بأمان...) فهي محصلة للإنسان الذي عاش عصراً مضطرباً (العصر المملوكي والأيوبي) فعايشنا تجاربه وأحلامه وخيباته وعلاقاته مع الآخر!! لهذا تشكل ليالي ألف ليلة **"لوحة إسقاطية غنية بتعابيرها التي تعكس مختلف أبعاد العالم النفسي الشعبي الواعي واللاواعي، مما يتيح لنا في الوقت نفسه معايشة حميمية للفضاء الشعبي! بعيداً عن إطار السلطة وخطابها الرسمي، إنها باختصار تداعيات اللاوعي بأجلى وأغنى صورة..."**(6)

وبذلك نعايش في الليالي هوية الأنا في تماسكها وتفككها، فتبدو لنا صورتها على حقيقتها بعيدة عن الزيف والتجميل! وهي تعيش في لحظة تاريخية مأزومة، إذ تعاني

انحطاطاً في المجال السياسي والاقتصادي، لكنها تعيش ازدهاراً ثقافياً!

لهذا ليس مستغرباً أن تجسد الليالي (الأنا) العربية الإسلامية في لحظة قهر بسبب ما تعانيه من كوارث وغزو واستبداد، فتبدو مؤرقة بأمجادها الحضارية، تسعى لاستردادها عبر الحلم، مادام الواقع محبطاً، لهذا سلّطت الضوء على سياق تاريخي زاهٍ وقوي (عصر هارون الرشيد) يعدّ من أبرز العصور، فشكل تعويضاً عن سياق، يعيشه مبدعو حكايات ألف ليلة وليلة!

هوية الأنا في "ألف ليلة وليلة":

إن أي إبداع أدبي لا بد أن تتجلى فيه الهوية الثقافية للأنا الجمعية، التي لا يمكن أن تكون واحدة أو نقية تماما، إلا إذا كانت مغلقة ومريضة بالعصاب، كما لا يمكن أن تكون خالية من كل الثوابت الحاكمة إلا حين تكون مستلبة من قبل الآخر (7)

وبما أن كتاب "ألف ليلة وليلة" قد كتبه عدة مؤلفين، فقد بدا لنا صورة للتنوع الثقافي، وأتاح لنا في الوقت نفسه، فرصة معايشة المخزون اللاواعي الذي يشكل وجدان الإنسان وثوابت هويته! أي مجمل القيم التي يؤسس عليها حياته!

وقد بدت لنا اللغة الدينية سمة أساسية من سمات الشخصية، تشكّل بنية اسمها، كما تشكّل جزءاً من لغتها اليومية! فيتردّد فيها ذكر لفظ الجلالة على لسان العامة، مثلما نجد التناص القرآني على لسان المثقف وغيره "زين لهم الشيطان أعمالهم..." "والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس..." بالإضافة إلى القصص القرآني (النبي موسى وشعيب وسليمان...)

تمتلك العبارات الإسلامية في الليالي (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون...) قوة معنوية، تقف إلى جانب الإنسان وتحميه من الأذى، لهذا تشيع على الألسنة، وحين لا تردّدها، نجدها تضيع! فمثلاً نجد المارد يحذر أبا محمد الكسلان (في الليلة 300) من ذكر الله، كي يصل إلى مبتغاه، لكنه لا يستجيب لنصحه، فينجيه هذا الذكر، إذ يبدو أقوى من إرادة المارد، في نظر الراوي المؤمن، وبذلك يحقق البطل ما يبتغيه، مخالفاً أفق توقع المارد، أما في الليلة (573) فنجد أن الشيخ (عبد الصمد) لم يسقط ميتاً كغيره في مدينة النحاس، إذ صرف عنه كيد الشيطان ببركة **"بسم الله الرحمن الرحيم"**.

لم يشكل الدين عامل إنقاذ فردي، وإنما جماعي أيضاً، فحين سأل الملك وزيره الحكيم النصح في الليلة (929) فدعاه إلى الاهتمام بحقوق الله تعالى في العبادات وبحقوق رعيته في العدل، ونصحه بملازمة الشفقة على خليقته الذين استأمنه عليهم! وبذلك يغدو الخطاب الديني ملاذ الإنسان، يستطيع عبره أن يواجه السلطة المستبدة، التي تخالف أوامر الله وتظلم شعبها!

لم تكن اللغة الدينية لغة الإنس فقط، وإنما بدت لنا لغة الجن والسحرة أيضاً، لذلك نلاحظ أن نجاح سحرهم أو إفشاله لا يكون إلا بإذن الله.

تحاط اللغة الدينية، لدى البطل، بدلالات إيجابية، لهذا نجده في الليالي، كما نجده اليوم، يبدأ "باسم الله الرحمن الرحيم" أي قول أو أي فعل! فالصياد سمّى الله ثم رمى الشبكة، فحالفه التوفيق! وقد شكلت هذه اللغة وجدان المسلمين كافة (ابن الفقير وابن الملك! والمرأة والرجل...)

إن هذه اللغة تحمل مفاهيم تشكل أركان الإسلام، وتؤسس دعامة من دعائم الحياة اليومية، ففي لحظة انهيار المسلم إزاء خسارة تجارية لا يجد أمامه سوى لغة الإيمان بقضاء الله وقدره، إذ يعزّيه أخوه قائلاً: "**يا أخي قدّر الله عزّ وجل...**" (كما حصل في الليلة الثانية)

يتحكم الإيمان في تصرفات الشخصية تجاه الآخرين، فالبحار ينقذ السندباد، وحين يقدم له المال، يرفض، لأن عمل المعروف، يكون لوجه الله تعالى!

حرص الراوي على إبراز الشخصية وهي تمارس عبادتها بكل تفاصيلها (الوضوء، الغسل، الصلاة...) وعاداتها اليومية (الدعاء والاستخارة) أو واجباتها الدينية ذات الصلة بالمجتمع (الزكاة والصدقة) لهذا نجد السندباد حين يعود من مغامرته يكسو الأيتام والأرامل، ويتصدق على الفقراء!

وحين ينتهك (علي نور الدين) أوامر الله تعالى، تعنّفه أمه قائلة **"ويلك يا ولدي ، هل بلغ بك السفه إلى هذا الحد حتى تشرب الخمر!"**(8)

يتدخل الخيال لرسم فظاعة عقوق الوالدين الذي ترتكبه الشخصية (الذي يعدّ من أكبر الكبائر في الإسلام) فحين يضرب الابن أباه، تسيل عينه على خدّه! ليس فقط بسبب هول الفعل! بل من هول الإثم، مما يجعله يحسّ بالضياع والتشوّه لارتكابه مثل هذا الإثم!

من هنا نجد الآخر غير المسلم ما إن يسمع بهذا الدين، ويرى أخلاق أبنائه حتى يسارع إلى الإيمان به، اللافت للنظر أننا وجدنا مدحاً له منذ الليلة الأولى، فنجد الشيخ يقول

للتاجر المسلم الذي وفى بعهده، وعاد إلى العفريت؛ ليعاقبه بالقتل: **"يا أخي ما دينك إلا دين عظيم...."**

شاعت في الليالي أحداث مستمدة من التاريخ الإسلامي وسيرة عظمائه (الخلفاء الراشدون، عمر بن عبد العزيز، هارون الرشيد...) كما شاعت قصص نساكه، لهذا بدت الليالي قريبة من وجدان المتلقي، الذي تتجسد أمامه تفاصيل تاريخه، كما تتجسد فيه قيماً علياً، أطّرت حياته اليومية وجعلتها أكثر إنسانية! دون أن يعني ذلك إغفال فئة من الناس، استغلت الخطاب الديني، كما فعلت العجوز (شواهي ذات الدواهي) بالملك عمر النعمان (في الليالي 79 -84) حين أرسلت إليه الجواري، اللواتي علّمتهن أصول الدين والفقه، كي يسهل عليها خداعه!

لهذا لمسنا في الليالي مظاهر إعجاب الآخر بثقافة (الأنا) الذي من الممكن أن يكون من مظاهر هيمنة أنا المؤلف (المسلم) وثقافته وعاداته على الآخر، كما لمسنا مظاهر تعايش (الأنا المنفتحة) مع الآخر؛ وبذلك تعرّفنا على ملامح الذات في لحظة هيمنة تارة، ولحظة انفتاح إنساني تارة أخرى! وقد لاحظ أندرية ميكيل أن من المحتمل أن بعض الليالي قد أظهرت عادات عربية معروفة قبل الإسلام!(9)

ومن أجل فهم صورة الآخر يتوجب علينا التوقف عند هذين المظهرين، لأن الذات تتشكل، ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، كما يقول جاك لاكان(10) وبذلك تتيح لنا الليالي فرصة فهم الذات ونقدها!

الأنا المهيمنة:

نجد في الليالي هيمنة للدين الإسلامي على المعتقدات الأخرى! لا بد لمن يعتنقه من الفوز، ولمن يرفضه من العقاب! وبذلك صارت المرأة (بستان) في الليلة (236) **"من أهل السعادة"** حين انتقلت من المجوسية إلى الإسلام، وكذلك القائد رستم حين **"نطق بالشهادة صار من أهل السعادة"**.

كما تظهر ملامح الأنا المتفوقة حين تجسد الليالي الصراع بين الأنا والآخر، فتحقق، في أغلب الأحيان، الأنا انتصاراً على أعدائها، وتفرض شروطها على الآخر (المجوسي، الجني...) الذي غالباً ما يكون كافراً، لهذا يردد البطل المنتصر (غريب) عبارة **"أسلم تسلم"** وينصح جنده قائلا: **"من أسلم فأبقوه، ومن أبى فاقتلوه...وأقام غريب في كشمير الهند أربعين يوماً حتى مهد البلاد وأخرب بيوت النار، وبنى في مواضعها مساجد وجوامع. وقد حزم رعد شاه من الهدايا والتحف شيئاً كثراً لا يوصف، وأرسله في المراكب...** "(11)

يبدو هنا صوت البطل (غريب) هو صوت القوة المنتصرة التي تريد أن تفرض على الآخر دينها بحد السيف، ويتماهى، هنا، مع صوت كثير من القادة المسلمين، الذين بحثوا عن أمجاد دنيوية (الغنيمة) وارتكبوا المجازر باسم الدين! فتخلوا عن روح الدين، وتناسوا أوامر الله تعالى لنبيه **"ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"**(القرآن الكريم، سورة النحل، آية 125)

تبدو لنا الأنا المتفوقة للراوي المسلم مندفعة لتطبيق تعاليم دينها وطقوسه على فترة ما قبل الإسلام، مع أن (الجاهلية) لم تعرف تلك الطقوس، فمثلاً تتحدث الليلة (738) عن زواج بنت الملك عبد القادر (حياة النفوس) من ابن كسرى فارس (أزدشير) وفق تعاليم الإسلام (أحضروا القضاة وكتبوا كتاب بنت الملك)

تصل الهيمنة إلى حد اختيار اسم الشخصية وأسلمته، مع أن الشخصية تنتمي إلى عصور أقدم من الإسلام! فالملك الذي ينتمي لزمن الجاهلية يفرض عليه الراوي الذي يملؤه إحساس بالتفوق اسماً إسلامياً هو (عبد القادر) إذ من المعروف أن

(القادر) هو أحد أسماء الله الحسنى! كما أن اللغة (كتبوا كتاب) وما يتبعها من طقوس، لم تكن معروفة قبل الإسلام!

وقد لاحظنا هيمنة الأسماء ذات الطابع الإسلامي على معظم أبطال الليالي (علاء الدين، نور الدين، مجد الدين، محمد، محمود، أحمد، حسن...)

حتى في مجال السحر في الليلة (755) نجد الساحر المسلم، الذي يلتقي به الملك (باسم) يتفوق على الساحرة الكافرة (الملكة لاب).

الأنا المشوهة:

نعايش في الليلة (989) صفة الكرم التي تلتصق عادة بالأنا العربية، حيث يرفض الشاب أن يغادره ضيفه الشاعر (جميل بثينة) قبل انقضاء ثلاثة أيام، لكن هذا الشاب أسير نظرة مسبّقة، تشوّه البدوي، لهذا يتعجب من رقة مضيفه، إذ لم يُعرف **"الظرف في البادية"** فقد اقترنت الخشونة والفظاظة في ملامح صورتهم!

كما تجسد الليالي صورة نمطية ما تزال منتشرة حتى اليوم عن أهل البادية، إذ تلصق بهم السذاجة، التي تصل حدّ الغباء، فنرى دليلة المحتالة، تقنع أحدهم أن يصلب عوضا

عنها، لأن ذلك أقرب طريق للزلابية التي يشتهي أن يأكلها في المدينة!

الملاحظ أن لفظة عرب حين تلحق بمدينة ما "عرب بغداد" "عرب البصرة" لتعني قطاع الطرق الذين يهاجمون القوافل التجارية والدينية، التي تمرّ في الصحراء قرب المدن، ويسلبون ما تحمل من متاع، ويقتلون أصحابها! لهذا كانت أبواب المدن، تغلق مع قدوم الليل!

وفي (الليلة 32) نجد، أحياناً، لقباً ذا دلالة سلبية يلحق بهذه اللفظة "أوباش العرب" خاصة حين يتصرفون بوحشية، ويقطعون شفتي أحد الرجال، لأنه لا يملك مالاً!

هنا نتساءل: هل هذه الصفات السلبية وليدة القريحة العربية أم غير العربية، التي غالباً ما نراها تهدف إلى النيل من العرب؟ خاصة أن "ألف ليلة" كتبها عدة رواة، قد يكون بينهم العربي وغير العربي! أم هي وليدة واقع بائس، فرض على البدو الغزو والسلب، ليتمروا في الحياة؟

1 - **الآخر الفارسي:**

تنوّعت منافذ اللقاء مع الآخر الفارسي، بسبب الجوار الجغرافي، مما سهل انتقال الناس عبر الحدود، فنشأت

علاقات منفتحة، توحي بعمق التمازج الحضاري، كما نشأت علاقات متوترة بسبب الحروب التي كانت بين العرب والفرس قبل الإسلام وبعده!

يلاحظ أن الراوي المسلم في "ألف ليلة وليلة" قد أضفى الطابع الإسلامي على الشخصيات الفارسية حتى تلك التي تنتمي إلى فترة ما قبل الإسلام، فنجد مثلاً في بلاد خراسان في (قديم الزمان) تاجرا اسمه (مجد الدين) وهذا ما فعله الراوي أيضاً مع شخصيات عربية تنتمي إلى العصر الجاهلي!

لم نجد الليالي أسيرة للصورة النمطية، التي قد تكون ذات ملامح سلبية، كتلك التي شهدناها في بخلاء الجاحظ، حين صبّ أهل خراسان جميعاً في قالب البخل (12) في حين وجدنا في "ألف ليلة" أحد أبنائها يقرض بغدادياً مالاً، ثم يسامحه!!

صورة عظماء الفرس:

بدت لنا صورة ملوك الفرس ووزرائهم مشرقة، وقد احتل كسرى (أنو شروان) مكانة رفيعة؛ لذلك يتكرّر وصفه بالعدل، وقد بدا لنا مهموماً برفاهية شعبه، يقوم بزيارات تنكرية، ليتفقد أحوال الرعية، ويرى مدى كفاية مؤنتهم! بل نجده يدّعي المرض، فيرسل ثقاته ليبحثوا له عن دواء (لبنة

عتيقة في قرية خربة) فلم يجدوا، فشكر الله وقال **"إنما أردت أن أجرّب ولايتي، وأختبر مملكتي، لأعلم هل بقي فيها موقع خرب لأعمّره؟ الآن تمت أمور المملكة..."**(13)

لهذا لاحظنا مدى حب شعبه له، فحين يعطش يطلب من فتاة قروية ما يشربه، فتقدم له عصير قصب السكر، بعد أن وضعت فيه قليلاً من الترب، كي لا يسرع في الشرب، ويضرّ صحته!!!

إذاً يحس المتلقي أن الراوي المسلم يجعل صورة هذا الحاكم الفارسي تجسيداً لحلمه في الحاكم العادل! بعد أن افتقده في سلاطين عصره! لذلك أسقط على لسان الأكاسرة وكبار رجالاتها ما يؤمن به من حكم وأمثال، تنقذه من الجور، وتتناسب مع نسق فكري وديني، يؤمن به! فمثلاً في الليلة (60) يقول (أزدشير) **"إن الدين والملك توأمان، فالدين كنز والملك حارس"**

أما الحكيم رويان الذي وجد في سالف العصر في (الليلة الرابعة) فقد بدا أشبه بطبيب مسلم (كان العرب يطلقون عليه لقب الحكيم) أسقطت على لسانه ثقافة العصر العباسي، فاطلع على الكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية، لهذا نجح في شفاء الملك الفارسي من البرص!

كما وجدنا في الليلة (633) ملك فارس (سابور) يعجب بالفارس العربي (غريب) بعد أن أنقذ ابنته (فخر تاج) التي خطفها غول الجبل، ويعذر ابنته التي رفضت خطبة الفارسي (ملك شيراز) من أجله، وأحبّت **"هذا البدوي"**

وقد أثمر هذا الإعجاب تعاوناً في ساحة الحرب، إذ أنجد (غريب) بعد أن تخلى عنه (مرداس) وانضم إلى خصمه (عجيب) **"فأمر له بعشرة قواد مع كل قائد عشرة آلاف فارس من شجعان العرب والعجم..."**(14)

نلمس هنا انفتاحا على الآخر، سواء عن طريق الزواج (الذي يعني رفض أشكال التعصب العرقي والاجتماعي) أم عن طريق نجدة المحتاج (الذي يعني رغبة في المعاملة بالمثل، لهذا سعى الفارسي لردّ الجميل لذلك العربي الذي أنقذ ابنته) لكن ما يلفت نظر المتلقي أن ملك سابور يرسل نجدة مؤلفة من فرسان عرب وعجم!! كأن الليالي تؤكد على الوحدة بين العرب والفرس، قبل الإسلام، في مجال الدفاع عن القيم العليا!

التفريق بين الأعجمي المسلم والمجوسي الكافر:

لم تقع الليالي أسيرة النمط الواحد في تقديم الصورة، فقد عايشنا في بعض الليالي سوء العلاقة بين العرب والفرس (الأعاجم) فنجد الأم في الليلة (779) تحذر ابنها (حسن) **"احذر أن تسمع كلام الناس خصوصاً الأعاجم، فإن هؤلاء غشاشون يعملون صنعة الكيمياء، وينصبون على الناس"**

لكن الفتى لا يسمع نصيحة أمه، فيقع ضحية الأعجمي (بهرام) الذي **"يبغض المسلمين كثيراً"** ويتظاهر بالتدين، فسلب عقل الفتى بقدرته على تحويل النحاس إلى ذهب، لهذا يدعوه إلى بيته حيث يضع له البنج في قطعة حلوى، وبعد أن يتخدر الفتى نسمع (بهرام) يتفوّه بعبارة غاضبة، توحي بالحقد **"وقعت يا كلب العرب"**

تبدو هذه اللغة المتوترة متبادلة بين الفريقين، إذ وجدنا العربي (غريب) في الليلة (667) يتوجه بمثل هذه العبارة الحاقدة إلى قائد فارسي (رستم) حين دعا النار لتباركه: **"يا كلب العجم النار ليست معبوداً."**

تنقل لنا هذه اللغة الحاقدة ملامح صراع عرقي، يتمّ على أساسه رفض الآخر لانتسابه إلى عرق آخر، ومعتقد آخر غالباً!

إن الأمر الوحيد الكفيل بإزالة سوء التفاهم هو الحوار ومعرفة معتقد الآخر، فقد أعلن الفارسي إسلامه بعد أن عرف نزاهة الدين، وانقلب على جيشه الذي كان قائداً في صفوفه! بل يفاجأ المتلقي بزوال الحواجز كلها بين العرب والأعاجم، فيحتل الأعجمي أعلى مرتبة في جيش (غريب) إذ نسمعه يقول **"أنا رستم مقدم أبطال العرب والعجم! هل من مبارز؟"** فهو يتحدث بصوت القائد العام الذي يجتمع تحت لوائه (الذي هو لواء ديني) العرب والعجم!

إذاً لم يكن التوتر بين العرب والعجم على أساس عرقي، وإنما على أساس عقيدي، لهذا يزال التوتر بالإيمان بالله، وقد وجدنا في الليلة (797) تأكيداً لهذا القول على لسان (حسن) الذي خطفه (بهرام) **"يا أمي ما كان أعجمياً بل كان مجوسياً يعبد النار دون الملك الجبار"**.

نلاحظ لدى الأم خلطاً بين المجوسي والأعجمي، يأتي ابنها ليصحح لغتها أي مفاهيمها المغلوطة عن الأعاجم! بناء على تجربته الصعبة مع المجوسي! فنحس رغبة المؤلف (الفارسي المسلم) في الدفاع عن الذات! وتصحيح الصورة المشوهة لدى العوام عن الأعاجم!

وقد وجدنا الأعجمي في (الليلة 879) يشتري جارية (مريم الزنارية) يعرض عليها الإسلام فتسلم، ويعلّمها أصول الدين والفقه! ويكافئها على عنايتها به أثناء مرضه، فيحقق رغبتها في أن يبيعها لمن ترضاه سيداً لها!!

وهكذا لحقت بالأعجمي صفات إيجابية، أما تلك الصفات السلبية، فقد كانت من نصيب المجوسي، الذي **"كلما قدر على أحد من المسلمين يهلكه، فهو خبيث لئيم كيمياوي"** يخطف شباباً مسلمين بالسحر والخداع، لهذا يستحق القتل على يد (حسن) بعد صعوبات كثيرة! كي تنتصر قيم الخير على الشر، بانتصار المسلم على المجوسي! هنا تخضع الصورة للتنميط، إذ تتم الغلبة للمسلم دائماً على المجوسي!

وفي الليالي التي تمتد من (227) حتى (237) نجد عودة لشخصية بهرام المجوسي، لكن عبر سياق جديد، وإن لاحظنا تكرار بعض الأحداث، رغم تغير أسماء الأبطال، إذ يحبس بهرام (الأسعد) ليذبحه في عيد المجوس، لكن ثمة إضافة وهي توكّيل ابنته بتعذيبه، فتعجب به، وتسلم على يديه، كما أن خاتمته، هنا، لم تعد القتل على يد البطل، فقد استطاع الأمجد أن يقبض عليه، وحين أراد الملك قتله، أعلن

إسلامه! وأصبح صديقاً للأمجد والأسعد! اللافت في هذه القصة تحول (بهرام) إلى راوية، يروي قصة (نعمة الله ونعم) في الكوفة!! التي تظهر صورة مشرقة للأعجمي، إذ يبدو طبيبا لا يعجزه مرض، وقد أفلح في شفاء جسد الشاب العربي (نعمة الله) وكي يشفي روحه يجعله ابناً له ، ويعمل على ردّ زوجته المسروقة (نعم) التي خطفت من الكوفة إلى دمشق، فيسافران إليها، ويجعله شريكه في دكان العطارة التي يفتحها في دمشق!

نجد الراوي يضيف تفصيلاً هاماً فيجعل الفارسية لغة التواصل بينهما، لأن الشاب يتقنها **"على عادة أولاد الأكابر"** فيسبغ النبل الاجتماعي على هوية الأعجمي!

لعل تغير صورة الأعجمي (بهرام) وحرص الراوي على تقديم صورة مشرقة نقيضة لما رأيناه قبل قليل، تبيّن لنا أن عدة مؤلفي ألّفوا الليالي!

وقد لاحظنا في (الليلة 16) أن ثمة رغبة لا شعورية لدى الراوي المسلم في عقاب جماعي للمجوس بسبب كفرهم، لهذا وجدنا جميع أهالي المدينة المجوسية قد مسخوا تماثيل من الحجارة السوداء، إلا شاباً (ابن الملك) ربّته مربية مسلمة على تعاليم الإسلام، وطلبت منه أن يكتم دينه! وكي لا يبدو

العقاب ظالماً، نجده لم يأتِ فجأة، بل بعد أن أنذرهم صوت شبيه بالرعد القاصف، ودعاهم للإيمان مدة ثلاث سنوات، لكن ملكهم أمرهم بعصيان **"فنزل عليهم المقت والسخط من السماء..."**

ستتكرر الصورة المشوهة للمجوس في قصة السندباد، ومن الملاحظ أن الأسطورة أسهمت في رسم هذه الصورة المشوهة!! ففي الليلة (551 و552) حين يتيه السندباد يجد نفسه وزملاءه أسرى بين مجوس، كانوا تحت إمرة غول، فرعوا المسلمين مثل البهائم، كي يسمنوا، ويقدموا طعاماً للغول! سينجو السندباد من الذبح، لأنه لم يذق طعامهم الذي يفقد الوعي، لهذا استطاع الهرب!

هنا نتساءل: هل السبب في هذا التشوه هو بعد بلاد المجوس عن بلاد المسلمين! مما أفسح المجال للخيال الأسطوري أن يسهم في رسم ملامح الصورة؟ إذ من الملاحظ أنه كلما بعد الفضاء المكاني نشط خيال الراوي المؤلف، نظراً لقلة العلاقات الإنسانية التي تزيل الكثير من سوء التفاهم باعتقادنا! أم السبب نظرة المسلم باستعلاء للآخر، الذي مازال كافراً؟

البرامكة وملامح الصراع العرقي:

لعل الظلم الذي تعرض له البرامكة الفرس، على يد السلطة العباسية، قد نشّط الخيال المتعاطف معهم! خاصة أنهم تمتعوا بصفات تؤهلهم للصدارة! وقد استطاعت بعض الليالي، التي نرجح أن مؤلفيها من الفرس، أن تنصفهم، وتبرز المكانة الهامة التي احتلوها، حتى تكاد تنافس مكانة الخليفة هارون الرشيد!

فلمسنا في إحدى الصورة قدرتهم على إنقاذ الإنسان (العربي وليس الفارسي) في أية محنة تواجهه، في حين يعجز العرب عن تقديم المساعدة، رغم ما يشوب العلاقة بين العرب والفرس من توتر، ففي الليلة (392) وجدنا (صالح) ينصح صديقه سعيد بن سالم الباهلي باللجوء إلى البرامكة؛ ليخلّصوه من محنته (دين كبير) فيجيبه **"ومن يقدر على احتمال تكبّرهم، ويصبر على تجبرهم؟ فقيل له: تحمّل ذلك لأجل إصلاح حالك."** (15)

وبذلك يذكر الراوي الموضوعي، على لسان العربي، بعض صفات البرامكة المنفّرة (التكبّر، التجبّر) لكن سرعان ما ينفي فعلهم النبيل الدلالة السلبية لهذه الصفات (التي قد تكون بسبب سوء التفاهم بين العرب والفرس) إذ

يذكر الراوي أنهم يغيثونه بأضعاف أضعاف ما يغيثه الخليفة! فيتحول تكبّرهم إلى نوع من الاعتزاز بالذات، ويمحو فعل (الكرم) لدى البرامكة أية دلالة سلبية لصفة (التجبّر) وقد بلغ مدحهم أقصاه في (الليلة 299) إذ يستمر فعل (جعفر البرمكي) للخير بعد أن صلبه هارون الرشيد، فقد جاءه بدوي اعتاد على عطاياه بعد مدحه (ألف دينار تكفيه عاماً) فوجده مصلوباً، فبكاه، ومدحه، ثم نام، فجاءه جعفر في المنام، وطلب منه الذهاب إلى أحد تجار البصرة، وحدد له اسمه، وأعطاه أمارة (هي الفولة) وحين يذهب يكتشف أنه كان بائع فول فقير، التقى به جعفر في يوم ماطر، أشفق عليه ووزن الفول وأعطاه ذهباً مقابله، المبالغة في رسم صورة الكرم لا تقف عند هذا الحد، بل تزداد حين بقيت فولة فاشتراها بأضعاف ما دفعه! لهذا نسمع صوت الراوي المتعاطف مع محنة البرامكة يقول **"انظر مكارم جعفر والثناء عليه حياً وميتاً، رحمة الله عليه."**

ثمة رغبة، في ظني، لدى المؤلف الفارسي في الحفاظ على نقاء صورتهم، بعد أن نكّل بهم الرشيد، فسعى عبر السرد والمبالغة في الخيال إلى ترسيخ مآثرهم في الأذهان، فإن قتلهم الخليفة ومحا صورتهم الجسدية، فإن ما فعلوه يُبقي ذكرهم

حياً على مر الزمان! فيعزز الراوي عبر تقنية السرد صورتهم الإيجابية في الأذهان! بل يشوّه صورة الخليفة الرشيد، ليعلي شأن البرامكة، فالخليفة لا يكتفي بأن يأمر بصلب جعفر البرمكي، بل يأمر بصلب كل من نعى جعفر أو رثاه، كما نجده يضيّق على رعيته، فيطالب (منصور) بمال قدره (ألف ألف درهم) قبل المغرب، ولن ينقذه من ظلم الخليفة سوى الاستعانة بالبرامكة!

يبرز لنا هنا المؤلف الفارسي، باعتقادنا، سوء التفاهم، والتوتر بين العرب والبرامكة، حين يبدو لنا العربي خسيساً (منصور) يعبر عن كرهه لهم، بعد أن أنقذوه من شدّته!!! وبذلك تضيء صورة هذا الآخر، وتظلم صورة العربي! إذ نسمعه يقول:

وما حباً سعت قدمي إليهم

ولكن خفت من ضرب النبال

يبدو لنا أن المؤلف قد أسقط صوته على (صالح) لهذا نسمع وجهة نظره التي تبدو أشبه بإعلان حقيقة مطلقة تتعلق بالبرامكة وبالعرب ممثلاً بـ(منصور) "**ما على وجه الأرض خير من البرامكة، ولا أخبث ولا شر منك، فإنهم اشتروك من**

الموت، وأنقذوك من الهلاك، ولم تشكرهم، ولم تحمدهم، ولم تفعل فعل الأحرار..."

ثمة رغبة في تعزيز صورة البرامكة مؤطرة بالخير المطلق نظراً لأعمالهم العظيمة في مقابل الشر المطلق بسبب الخبث الذي ينبثق عن اللؤم ونكران الجميل، فكان (فعل العربي: منصور) فعل العبيد في مقابل فعل الأحرار البرامكة!

وحين يحدث صالح (يحيى البرمكي) بخساسة منصور، نجده يلتمس له العذر "**إذا كان الإنسان ضيق الصدر مشغول الفكر، فمهما صدر منه، لا يؤاخذ به، لأنه ليس ناشئاً عن قلبه...**"

يصر الراوي على نحت صورة مثالية له، فهو يستعلي عن الصغائر، ويعذر من قابل إحسانه بالإساءة، إذ يقدّر لحظات الضعف البشري، رغم ما يصيبه بسببها من أذى!! فيتجسد مثالاً للنبل في ذهن المتلقي، لهذا يجد نفسه يوافق على قول (صالح): **لا يجري في الفلك السائر بإبراز رجل إلى الوجود مثلك، فوا أسفاً كيف يتوارى من له خلق مثل خلقك، وكرم مثل كرمك**" (16)

يستمر المؤلف في المبالغة في رسم صورة مثالية للبرامكة، ففي (الليلة 307) وصل تصوير نبل (يحيى البرمكي) إلى درجة

تتجاوز فيها القدرات البشرية، فتقترب من الملائكية، فقد بدا متسامحاً وكريماً مع رجل يزوّر على لسانه رسالة إلى عدوه، الذي يرسل له مستفسراً، فلم يكذّبه، بل يجعل فعل السوء بادرة خير، ويراه سبباً في الصلح بينه وبين عدوه، لذلك يأتي الرجل إليه قائلاً: **"أنا من كنت ميتاً من جور الزمان، فأحييتني من رمس النوائب..."**

أما عن كرمهم فنجد أحاديث عنهم أشبه بالأساطير، التي لا يمكن أن يقبلها المنطق! من ذلك أن رجلاً لجأ إلى (يحيى) في (الليلة 391) قائلاً: **"أنا محتاج إلى ما في يدك، فأمر خازن ماله أن يرسل له كل يوم ألف دينار، وأن يكون طعامه خاص طعامه..."**

هنا نتساءل: هل يريد المؤلف الفارسي بمثل هذه القصص التي تتحدث عن كرم البرامكة، أن يزري بالعرب، وبمأثرتهم الأولى التي عُرفوا بها! كي يعزّز تفوقهم عليهم! ويزري بالعرب؟

نلمح كذلك في الليالي بوادر الصراع السياسي بين العباسيين والبرامكة، إذ لاحظنا نزاعاً بين أولادهم، الذين كانوا، فيما يبدو، أنداداً لأولاد الخليفة، فقد تنازع جعفر بن

يحيى البرمكي والأمين بن الرشيد على جارية، فأخذها الأمين، فلم يظهر جعفر غيظه **"لشرفه، وعلو همته، ولم يبد تغيراً في منادمته..فملأ الأمين زورقه مالاً وجواهر...هكذا هم الأكابر رحمهم الله."**(17)

صحيح أننا نلاحظ تقدير الأمين لهذا التصرف، لكن الراوي يبدو متعاطفا مع جعفر، لهذا يسبغ عليه من الصفات ما لم يسبغها على ابن الخليفة (الشرف، علو الهمة، أكابر) بل لاحظنا حرصه في خاتمة كل قصة عنهم تكراراً أشبه باللازمة التي تتحدث عن مناقبهم، وتترك انطباعاً راسخاً بعلوهم وبروعة أخلاقهم **"فانظر إلى هذا الكرم من هؤلاء رحمهم الله تعالى."** وفي قصة أخرى يختم قائلاً: **"وهكذا هم الأكابر رحمهم الله"** ثم يختم الراوي قائلاً: **"فضائل البرامكة لا تعدّ ولا تحصى، ومناقبهم لا تنقضي"**(18)

إذا كان الصراع السياسي قد حسم لصالح العباسيين، فإن البرامكة سيجدون من ينصفهم في ليالي "ألف ليلة" ويحسم الصراع لصالحهم على صعيد السرد! مما يرسخ لدى المتلقي تلك الصورة الرائعة عنهم! خاصة أن الراوي اختار فن القصص الشعبي الذي يسهل تناقله بين الرواة، ويؤسس لثقافة

شعبية تعتمد الشفهية، مما يضمن سرعة الانتشار، فيتحول هذا الفن إلى وسيلة إعلامية تعزز وجهة نظر الراوي الفارسي، برأيي، رغم أنها تعارض وجهة النظر الرسمية للدولة العباسية!

2 - **الآخر الهندي**

كان السفر، ومازال، إحدى وسائل معرفة الآخر، وهذا ما جسّدته لنا "ألف ليلة وليلة" التي تعدّ في أحد وجوهها كتاب رحلات ومغامرة، أتاحت لنا فرصة المعايشة اليومية، ورسم صورة للآخر المختلف انطلاقاً من نظرة الغريب الذي يحاول الفهم من أجل التواصل الإنساني!

وقد كانت الهند إحدى البلدان التي وصل إليها الرحالة المسلمون والتجار، فشكلوا أروع صورة للأنا التي تنتمي للحضارة الإسلامية، التي تغلب الجانب المعرفي على الجانب المادي، وقد ظهر ذلك واضحاً في الليلة (771) حين ينقذ سيف الملوك ابنة ملك الهند، فيعرض عليه أن يأخذ ما شاء من المال، لكنه يرفض قائلاً "**غرضي أن أتفرج في هذه المدينة...**" ومن المعروف أن كثيراً من بلدان آسيا قد أسلم عن طريق التجار المسلمين، نظراً لما جسّده هؤلاء من قيم إسلامية!

تتجلى المعايشة اليومية للهنود في (الليلة 541) إذ نتعرف عليهم بشكل دقيق، فهم أجناس مختلفة **"منهم الشاكرية، وهم أشرف أجناسهم لا يظلمون أحداً ولا يقهرونه، ومنهم جماعة البراهمة، وهم قوم لا يشربون الخمر أبداً، وإنما أصحاب حظ وصفا ولهو وطرب وجمال ومواش..."**(19)

ولو تأملنا ملامح الصورة الإيجابية التي قدمها المؤلف في الليالي للهنود لوجدناها لا تبتعد عن صورة المسلمين، فالهنود مثلهم لا يشربون الخمر، لكنهم يحبون اللهو والطرب! وبما أنهم يتصفون بصفات تقرّبهم من عقيدة الرحالة المسلم، لهذا لا يجد مانعا في الاستقرار بين ظهرانيهم، ومصاهرتهم، ففي (الليلة 552) وافق السندباد على عرض الملك، الذي أعجب بأخلاقه (المستمدة من الإسلام) بالزواج بهندية، لكن الملاحظ أنه ظلّ متمسكاً بتعاليم دينه، فتمّ الزواج وفق طقوس إسلامية، إذ أحضر القاضي والشهود!

نعايش عبر علاقة التزاوج عادات هندية، يستهجنها المسلمون، وتبرز غرابتها حين تطبق على الأغيار، وبذلك ظفرنا عبر هذا الزواج بمغامرة للسندباد، حين دُفن مع زوجته حياً! كما ظفرنا بتوضيح الراوي لعاداتهم، فنسمع صوته المتعاطف والمتفهم، فالهدف من دفن الزوجين معاً **"ألا يفرق الموت بينهما"**

ومما يثير الدهشة أنهم لا يميّزون بين الرجل والمرأة في هذا المصير!

كما نتعرف عبر الليالي على بعض معتقداتهم، فهم يعبدون الشمس، لهذا سمعنا في (الليلة 518) الملك الهندي (كفيد) يلعن جنوده المهزومين **"لا باركت فيكم الشمس، بل غضبت عليكم غضباً شديداً"** فيستعير الراوي الصيغة الجاهزة في لغة المسلمين بعد أن يحورها لتتناسب مع معتقدات الهنود الذي يؤمنون بالشمس، ويجعلونها تحل محل الله تعالى!

تترسخ في ذاكرة المتلقي، عبر الليالي، صورة للهند بلد السحر والأساطير، إذ تنتسب إليها الكائنات الخرافية، فنجد غول الجبل في (الليلة 628) الذي يأكل الناس، ينتسب إلى أب هندي (من أولاد حام) وقد عمّر الهند، لهذا سميت به!

3 - الآخر الإفرنجي

كتبت الليالي، برأيي، في عصر ساد فيه صراع بين الإفرنج والمسلمين ، أي في فترة الحروب الصليبية، لذلك بدا الآخر الإفرنجي أكثر حضوراً من المسيحي! خاصة أنه بدا مهدداً للأنا المسلمة، في حين بدا المسيحي متعايشاً معها!

على هذا الأساس لاحظنا حضور الإفرنجي في عدة ليالٍ، مثلاً حكاية الملك النعمان مع ولديه شركان وضوء المكان (من ليلة 44 إلى الليلة 145) وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية (من ليلة 863 إلى الليلة 895)

رغم ذلك إن ما يلفت النظر أن العلاقة بين الإفرنج والمسلمين لم تكن محكومة بالتوتر والصراع دائماً! إذ قدّمت لنا "ألف ليلة" مثلما قدّم لنا "كتاب الاعتبار" صورة للتعايش مع الآخر، سواء في بلاده أم في بلاد الشرق، فقد رحل الصديقان (أبو قير وأبو صير) من الإسكندرية في (الليلة 934 -935) عبر البحر إلى إحدى مدن الإفرنج من أجل البحث عن مهنة يعيشان منها، فلاحظ (أبو قير) الذي يعمل في الصباغة، أنهم **"لا يعرفون من الألوان سوى اللون الأزرق"** فيعرض العمل عندهم، ويعرفهم على بقية الألوان، فيرفضون، عندئذ يحدث الملك بذلك، الذي يعجب بالفكرة، فيعطيه مبلغاً من المال، كي يفتح دكاناً، ويعرض بقية الألوان!

أما صديقه (أبو صير) فقد أراد الذهاب للحمام، فلم يجد، ولاحظ أن سكان المدينة يغتسلون في البحر، فبيّن للملك بأن مدينته لا تكون كاملة إلا **"بالحمام"** فيقتنع برأيه، ويعطيه مكانا ومالا، ليبني حماما، وحين انتهى من بنائه،

دعا الملك إليه **"وأخرج من جسده الوسخ مثل الفتايل."** فزاد إعجاب الملك به، وقال **"إن مدينتي ما صارت مدينة إلا بهذا الحمام..."** وطلب منه أن يأخذ مقابل هذه الخدمة من كل فرد ألف دينار، فرفض، لأن **"الناس فيهم الغني وفيهم الفقير."**

نلمس هنا الفارق الحضاري بين المسلمين (العناية بالنظافة الشخصية) والإفرنج (إهمالها) كما نلمس انفتاح الملك ورغبته في التعلّم منه، لهذا يقدم لكل من (أبي قير وأبي صير) كل التسهيلات الممكنة!

وقد لاحظنا كيف أن الراوي وظّف بعض التفاصيل اليومية في رسم صورة الآخر، فوصف عملية تنظيف الملك في الحمام، وكيف تخلّص من الأوساخ العالقة بجسده، وقد استخدم الراوي تشبيهاً (مثل الفتايل أي مثل الخيطان السميكة) للكناية عن كثرة الوسخ، وهو تشبيه مازلنا نستخدمه إلى اليوم في اللهجة المحكية! وقد أسهم هذا التشبيه في رسم صورة دونية للآخر (القذر) كي يعلي شأن الأنا النظيفة المتحضرة، والمدهش أن الراوي جعل (الملك أي أعلى الهرم الاجتماعي بمثل هذه القذارة) في مقابل المسلم العادي الذي يقوم بتنظيفه (أبو صير)!

لهذا لن نستغرب أن تتغير صورة المدينة في عيني الملك، بعد أن أحسّ بالانتعاش، فانعكس الإحساس الداخلي على الفضاء المكاني، لهذا صرّح لنا أن مدينته أصبحت مدينة راقية، بل استحقت اسمها بفضل الحمام، لهذا طلب (من أبي صير) أن يتقاضى مبلغاً كبيراً مقابل هذه الخدمة! لكنه يرفض، فالدفع حسب الاستطاعة، لأن من حق كل الناس التمتع بالنظافة!

وقد شوّش هذا التعايش مع الآخر (الإفرنجي) الصراع والحروب، فبدت الليالي انعكاساً لعصر مأزوم، يسوده التوتر بين المسلمين والإفرنج!

أثر الحروب الصليبية في تشويه الصورة:

يبدو أن مجاورة بلاد الإفرنج لم يكن مبعثاً للطمأنينة، لهذا حين أراد موسى بن نصير السفر، في الليلة (568) نصحه أحد الشيوخ أن يستخلف رجلاً مجاهداً مثله لقرب البلاد من العدو، وقد عددت لنا الليالي بعض الدول المجاورة (الفرنسيس والنمسوية والقسطنطينية) وقد استمدّ الراوي اسم بطله من نسق تاريخي يناقض اللحظة التي يعيشها، فقد اختار بطل الفتح الإسلامي للأندلس، لعله يستمد قوة معنوية في مواجهة الإفرنجي.

لاحظنا سيادة روح التسامح بين المسلم والنصراني، بفضل التعايش اليومي، فإذا حدث أي خلل، فالسبب يعود في الليالي إلى الآخر الإفرنجي، كما حدث في (الليلة 312) فقد طلب من علي شار ماء، فيقول في نفسه **"هذا رجل ذمي، وقصدني في شربة ماء والله لا أخيّبه"**

أطلق على النصراني لقب (ذمي) مما يعني أنه استخدم مصطلحاً ذا دلالة دينية، يحثّ المسلم على التزام حقوق الله وعهده في التعامل مع الآخر (لأنه أصبح في عهد الله وذمة المسلم) لهذا يقسم المسلم بينه وبين نفسه بألا يرفض للذمي طلباً! لكن الآخر يستغل هذا التسامح، فيقوم بخداعه وسرقة جاريته (زمردة)! كي يعيدها إلى أخيه الذي رفضته وهجته، فيتم تعذيبها؛ كي تتخلى عن الإسلام وتعود للنصرانية! فترفض قائلة: **"والله لو قطعت لحمي قطعاً ما أفارق دين الإسلام... وقد قال الحكماء مصيبة في الأبدان ولا مصيبة في الأديان..."**(20)

نلمس هنا ملامح صراع ديني، حيث يتم قهر المختلف دينياً، وإلغاء خصوصيته، فيتحول انتقام الرجل من المرأة التي رفضته، وقبلت برجل مختلف، إلى انتقام ديني، لهذا أراد أن يجبرها على تغيير دينها!

أعتقد أن تغير الدلالة الإيجابية التي لمسناها للقب (الذمي) كان بسبب الحروب بين العرب والإفرنج، فأصبح **"أزرق العينين"** تلحق به ألقاباً سلبية من الناحية الدينية **"كافر" "الإفرنجي الملعون عدو الدين" "الملك الملعون"** بل نجد ألقاباً تشمل جميع الإفرنج **"عبدة الأصنام" "حزب الشيطان"**

لكن الغريب أن هذا الصراع لم يمنع الزواج بين المختلفين، فقد تكررت في الليالي ظاهرة زواج المرأة الإفرنجية، التي تنتمي إلى مكانة رفيعة في مجتمعها، من المسلم، لذلك وجدنا الملكة (حسن مريم) تعرض الزواج على (علاء الدين) فيرفض لأنها نصرانية، فتجيبه **"حاشا لله أن أكون كافرة، بل أنا مسلمة...قرأت الإنجيل وغيره من الكتب ورأيت اسم (محمد ص) في ...التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فآمنت بمحمد وأسلمت، وتحققت بعقلي أنه لا يعبد بحق إلا الله تعالى، وأن ربّ الأنام لا يرضى إلا الإسلام."**(21)

نلاحظ، هنا، تحيّز الراوي المسلم، إذ أسقط معتقداته على صوت المرأة، وهذا ليس مستغرباً، فقد جاء على لسان امرأة تركت دينها لتنتمي إلى الإسلام! قبل أن تتعرف على المسلم، وبذلك تبدو مثقفة ومقتنعة بفعلها، لا تتصرف عن

هـوى! وبـذلك يـتمّ تعزيـز الصـورة الإيجابيـة للإسـلام بصـوت الآخر!

لعل ما يثير الانتباه أن المرأة التي أصبحت مسلمة، تمارس أمراً مستهجناً، يعدّ من الكبائر في الإسلام، إذ تشارك بقتل أبيها فقد أسهمت في تخديره، وأدخلت عليه (علاء الدين) الذي يوقظه ويعرض عليه الإسلام، وحين يرفض يقتله!!!!

يبحث الراوي عن الإثارة والتشويق، فيجعل الفتاة ترتكب إثماً بمشاركتها في قتل أبيها، فترتكب مخالفة صريحة للنص القرآني **"وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً..."(سورة لقمان، آية 15)**

هنا نتساءل: هل أراد الراوي أن يبرز مدى تعلق الفتاة بالإسلام، إلى درجة تريد قتل كل ما يقف عائقاً في بداية حياتها الجديدة!! ترى هل هو نوع من قتل الأب الذي تحدث عنه فرويد، أي قتل الماضي؛ ليبدأ المرء حياته كما يريد بعيداً عن إكراهات الآباء والأجداد!؟

تكررت صورة الملكة الإفرنجية المحبة للمسلم (إبريزة) في (الليلة 47) لكن شخصيتها تبدو أكثر حضوراً وإقناعاً، فقد لمسنا إنسانيتها في تعاملها مع الآخر، وذلك حين يقتحم

(شركان) خلوتها مع صديقاتها لا تعاقبه إشفاقاً منها "**على الغرباء**" وتطلب منه أن يحلف بأن يصارعها بعيداً عن السلاح، فيحلف بالنبي، لكنها تطلب منه أن يحلف "**بمن ركّب الأرواح في الأجساد**" فهي واعية، تدرك بأن اللّه تعالى يجمع بين المسلم والمسيحي! لهذا تثق بما يجمع، وترفض ما يفرّق.

وتبدو (إبريزة) مثقفة بثقافة عصرها، فقد "**قرأت الكتب وتعلمت الأدب من كلام العرب**" دون أن تبدو مأخوذة بها، لهذا وجدناها تنتقد الملك (عمر النعمان) والد (شركان) لأن لديه اثني عشر قصراً، وضع في كل قصر ثلاثين جارية، فاجتمع له ثلاثمئة وستون جارية على عدد أيام السنة، وهي إن ظفر بها لن يتركها، لأنها ستصبح مما ملكت يمينه! المدهش تماديها في النقد، فهي لا تكتفي بنقد الملك بل تنتقد عسكره أيضاً، إذ لم ترَ تربيتهم "**تربية الملوك وإنما طوائف مجتمعة**"

وحين ترى شجاعة (شركان) في قتال قومها، تعجب به، وترتدي ملابس القتال، فيسألها عن السبب فتقول: "**حرصاً عليك من هؤلاء اللئام**"

لكن يلاحظ أنها حين تحركت مشاعرها وأحبت (شركان) بدأت استقلاليتها بالتلاشي! لذلك تعلن انتماءها للحبيب، وتنقلب على أهلها فتصفهم بـ"**اللئام**"

ستكرر في الليلة (878) عشق ابنة أحد ملوك الإفرنج (مريم الزنارية) لشاب مسلم (علي نور الدين) لكن بتفاصيل مختلفة، فقد أصبحت جارية بعد أن وقعت في الأسر، بعد أن هاجم المسلمون مركبها في البحر، وباعوا كل من فيه من الرجال والنساء! فاشتراها الشاب (علي نور الدين) بكل ما يملك (ألف دينار) وحين يعاتبه صديقه على صرف كل ماله، يرد عليه: **إنها من أولاد الإفرنج!** وبمثل هذا القول نلمس إعجاباً مضمراً بجمال المرأة الغربية!

تبدو هذه الشخصية (مريم) ذات أهمية خاصة، ليس بسبب انتسابها إلى ملك الإفرنج فقط، بل لما تقوم من أفعال تعلمتها بفضل انتمائها إلى "**مدينة واسعة الجهات، كثيرة الصنائع والغرائب والنبات، تشبه مدينة القسطنطينية...**" فهي تتقن الصنائع الغريبة التي تغني (علي نور الدين) بعد أن بذل كل ماله ليشتريها! لذلك لم نجد العلاقة بينهما علاقة سيد بجاريته، إذ اعتذر (علي) منها حين اضطر لبيعها إثر خديعة (من قبل الوزير الأعور في مملكة والدها) فيقول لها "**والله يا سيدتي مريم إنه قد جرى القلم بما الله حكم...**" وبذلك ارتقت الجارية إلى مرتبة السيدة بفضل سلوكها وعملها، فيتكبّد

(علي) متاعب جمة من أجل إعادتها إليه! وبذلك تظفر المرأة الإفرنجية بمعاملة تتجاوز ما تطمح إليه!

نلاحظ في الليالي أن المفاهيم الإفرنجية المتعلقة بالمرأة لا تخرج عن نسق المفاهيم الشرقية، التي تضبط علاقة المرأة بالرجل، فمثلاً حين يكتشف الملك أن ابنته فقدت عذريتها، يستشير كبار رجاله، الذين يخبرونه بأنها **"تنجست من المسلمين، وما يطهّرها إلا ضرب مئة"** منهم، لهذا بات يستولي على مراكب التجار المسلمين، ويأمر بضرب أعناقهم جميعاً! إيفاء للنذر! ويتقدم لخطبتها الوزير الأعور في (الليلة 885) وحين ينتهي من بناء قصر لها، نجده ينذر بأن يذبح ثلاثين مسلماً **"قربانا للمسيح"**

وفي (الليلة 889) تدعو مريم ربها أن ينقذها من الوزير **"اللهم لا تبلغه مني أرباً، ولا تحكم علي بالنجاسة بعد الطهارة."**

وقد دعت (مريم التي أصبحت مسلمة) الله أن يبقيها طاهرة، فلا يتمكن من تدنيسها وزير والدها! وبذلك يبدو الآخر المختلف في الدين في صورة مشوّهة بسبب دماء سالت في الحروب، أورثت مشاعر كراهية بين (الأنا) و (الآخر) لهذا

كان الاقتراب من الآخر المعادي (سواء أكان المختلف مسلماً أم إفرنجياً) هو تدنيس للذات الطاهرة، فقد اندفع الملك والوزير لتطهير (مريم) بذبح قرابين من المسلمين، ومما يلفت النظر أن ذبحهم يعدّ تقرباً من المسيح رسول المحبة!!! وبذلك تشوّه الحرب تعاليم الدين الإنسانية، فتزرع الحقد عوضاً عن المحبة!

نلاحظ أن (أنا المؤلف) تجمّل ذاتها دائماً، فتجعل النجاح حليف المسلم سواء في الحب أم في الحرب! لهذا نجحت (مريم) في الهرب من (الوزير الأعور) مع (علي نور الدين) وحين يرسل والدها جيشا بقيادة ثلاثة من أخوتها، كي تترك الإسلام، تقول في ساحة الحرب: **"والله لست براجعة عن دين محمد...هل من مقاتل ... "**

تتحول (مريم) التي وجدناها قبل قليل تتفنن في صنعة (الزنار) إلى فارسة، تنتصر على إخوتها، وتقتلهم جميعاً نصرة لدينها!! فلم يجد الملك وسيلة، يسترد فيها ابنته، سوى الاستعانة بأعلى سلطة لدى المسلمين (الخليفة هارون الرشيد) فيعرض عليه مقابل استردادها مغريات تصل حد اللامعقول، كي يبرز الراوي للمتلقي عظم الإثم، الذي ارتكبته (مريم) على لسان والدها، لهذا هو على استعداد ليهب الخليفة **"نصف**

مدينة روما الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل إليكم خراجها" هنا يقع الراوي المتحمس للإسلام في التناقض، في رأينا، فكيف يمكن لملك يرفض إسلام ابنته، أن يتبرع بنصف مدينته، فتصبح ملكاً للمسلمين، يبنون فيها المساجد، التي هي رمز لدين يحارب ابنته على اعتناقه!

أعتقد أن هذه اللغة تبرز أثر الحمية الدينية على لغة الراوي المسلم، فيسعى إلى حضور الرموز الإسلامية في بلاد الأعداء، كما يبرز في الوقت نفسه تشبث الآخر بدينه إلى درجة يضحي فيها بنصف مدينته، ليعيد ابنته إلى عقيدتها!!

وقد بيّنت الابنة سبب رفضها لرغبة أبيها **"هل بوسعك يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك الملحدين، وترسلني إلى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام، ويعظمون الصليب، ويعبدون الأصنام، ويعتقدون إلهية عيسى وهو مخلوق؟..."**(22).

نجد هنا صورة المرأة المثقفة والفقيهة في الدين، التي آمنت بالدين ليس فقط من أجل الحبيب (علي) ، كما قد يتبادر إلى الذهن! ولكن لأنها مسلمة ترفض مظاهر الشرك في ديانة أبيها، فهي ترغب في سيادة ديانة التوحيد، فكأن الراوي، هنا، أسقط على لسانها وجهة نظر المسلمين في

الديانة المسيحية وما تمثله من ابتعاد عن تعاليم دينهم (تعظيم الصليب والتماثيل وألوهية السيد المسيح)!

إن تقديم هذه الصورة للمرأة الإفرنجية التي تتعلق بالإسلام وتحارب من أجله أهلها يؤكد الرغبة في تمكين الثقة بالذات عبر السرد القصصي، التي بدأت تتزعزع خاصة بعد أن احتل الإفرنج جزءاً من بلاد المسلمين، وتعكس رغبة مكبوتة في أن يرى المسلمون عدوهم مهزوماً، سواء بالحب أم في الحرب!

لهذا تجلت لنا صورة المسلم المتفوق في مجال العقيدة الدينية، يحافظ عليها، مهما تكن المغريات! في حين يتخلى الآخر عند دينه!!

تنقض الليالي المقولة الشائعة، التي تدعي بأن نقطة ضعف الرجل المسلم هي المرأة، لهذا كثيراً ما نجد الإفرنجي يستخدمها وسيلة لفتنته عن دينه، فيخيب ظنه، كما في (الليلة 475) حيث لم يستطع الروم هزيمة المسلمين في الشام بسبب شجاعة أخوين شابين، فاحتال الروم عليهما، وقتلوا أحدهما وأسروا الآخر، وقد أرادوا الاحتفاظ به في الجيش، ليستفيدوا من شجاعته، ويقاتل إلى جانبهم، وهذا لن يكون إلا إذا دخل في دين النصرانية، لهذا أرسلوا له ابنة أحد القواد!

فلم يفتن **"لعبادته وانصرافه لقراءة القرآن، فافتتنت به الفتاة وأسلمت."** وبذلك انقلب السحر على الساحر! فالمسلم لا يتخلى عن دينه حتى في الأسر، أي في لحظات الضعف الإنساني! لأنه يجسد قوة معنوية يرى فيها الأمل في الانتصار على عدوه!

وقد لاحظنا كيف فرضت الحرب أفكار العنف والإقصاء! فلمسنا في الليالي رغبة كل من الطرفين في إلغاء الآخر أو بالأحرى إفنائه، وقد تجلى ذلك في شيوع لغة عدائية، لهذا حلف الملك (لوقا) بأن يفرغ الأرض من المسلمين، أما (أفريدون) لا يريد أن يبقى حياً **"إلا من يعبد الصليب والزنار"** وقد وجدنا رديفاً لمثل هذه العبارات الإقصائية **"أسلم تسلم"** التي تعلي شأن الذات وتحتقر الآخر الكافر **"هذا يوم تبيض وجوه أهل الإيمان، وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن."**

لكن ميزة الليالي أنها بدت مخلصة للواقع المعيش في بعض وجوهه، لهذا لم نلمس مبالغة في إعلاء شأن الذات، إذ لا نجد الإفرنج وحدهم يقعون في **الأسر**، بل وجدنا المسلمين يقعون أيضاً، كما حدث مع قنصل جنوة الذي أسر أربعين مسلما، ثم قتلهم، ولم يبقِ منهم سوى (علاء الدين) للخدمة في الكنيسة!

كما نلمس فيها إعجاباً بشجاعة الإفرنج، الذين يملكون قلوباً **"أقوى من الصخر"** ولم يجردهم الراوي المسلم من القيم العليا التي يؤمن بها كالشرف، لهذا تثور ثائرة الملك (إفريدون والد إبريزة) بعد أن أزال بكارتها (عمر النعمان) فيصرخ، كما يصرخ أي أب شرقي غيور على شرفه، **"لابد من أن آخذ ثأر ابنتي، وكشف العار عن عرضي!!"**

يلاحظ في الليالي أن **الهدنة بين المسلمين والإفرنج** تعني في كثير من الأحيان زوال العداوة، فتحلّ بشائر السلام (تبادل الهدايا، طلب النجدة، الزواج ...) إذ نجد ملك الروم في (الليلة 44) يهدي طباخة لملك المسلمين عمر النعمان ، ثم يستعين به ملك قسطنطينية حين سُرق له مركبان محملان بالنفائس! وقد عايشنا هذا المفهوم للهدنة أيضاً في (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ (23) الذي يعدّ كتاباً أقرب إلى السيرة الذاتية، فهو أكثر مصداقية من الليالي، لكونه يكاد يبتعد عن التخييل!

أما على صعيد الناس العاديين، فنجد، رغم الحرب، شيوع العلاقات الإنسانية فيما بينهم، نتيجة الاحتكاك اليومي، فمثلاً وجدنا مسلماً من الصعيد في (الليلة 495) جاء في تجارة إلى عكا، يعجب بإفرنجية ويطلب وصالها، فتواعده

سراً مقابل (خمسين دينارا) لكنها حين تأتي يحاسب نفسه قائلاً **"كيف تعصي الله مع نصرانية؟"** فيتركها ليكرّر طلبها عدة مرات، ويكرّر تعففه، حتى وصل المبلغ إلى خمسمئة دينار، ثم سمع إنذاراً بانقضاء الهدنة وإمهال المسلمين أسبوعاً، حتى يقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم، فيخرج متحسراً على الإفرنجية، التي سلبت قلبه وماله!!

لكن الوازع الديني للراوي المسلم لا بد أن يكافئ الصعيدي على عفته! لهذا سيلتقي تلك المرأة بفضل متاجرته في **"جواري السبي"** فاشتراها بعشرة دنانير بعد أن رفضت أن تراه بخمسمئة، لهذا أعلنت إسلامها قائلة **"هذا سر دينك الصحيح"** فأعتقها وتزوجها، وحين وقعت اتفاقية ردّ الأسرى، ألحوا بعودتها، فطلبت مقابلة الملك الناصر (صلاح الدين) الذي دعاها أيضاً للعودة إلى أهلها، فأعلمته برغبتها في البقاء مع زوجها المسلم، وقد أرسلت لها أمها المال الذي أخذته من الصعيدي في صندوق! وهكذا لم تكن مكافأته معنوية فقط، بل مادية، إذ يردّ إليه المال الذي أنفقه عليها، ويوحي لنا في الوقت نفسه بأمانة الأم الإفرنجية التي لا تستولي على مال ابنتها، رغم زواجها من مسلم!

وهكذا لم نجد صورة الآخر الإفرنجي مشوّهة دائماً، فالراوي ابن الحياة اليومية، يرصد ما فيها من علاقات متوترة تنمّ عن حقد وكراهية، كما يرصد علاقات متسامحة يسودها الحب والتسامح!

هنا يحسن بنا أن نتوقف عند صورة المسيحيين أبناء الشرق في "ألف ليلة وليلة" لنرى هل تختلف عن تلك التي رسمتها للإفرنج!؟

صورة إيجابية

نلمح في الليالي تعايشاً بين سكان المدينة التي تنتمي للحضارة الإسلامية، فالسحر الذي نجده في (الليلة 8) يشمل جميع الأصناف الذين يسكنون فيها من مسلمين ونصارى ويهود ومجوس، وحين يفكّ المسلم السحر، يفكّه عنهم جميعاً!

أتاحت لنا الليالي بسبب تقديمها تفاصيل الحياة اليومية للبسطاء من الناس أن نعايش بعض الانتهاكات التي يتعرض لها النصارى، حيث نجد في (الليلة 991) علي (ابن العطار) ومعروف الإسكافي في طفولتهما يسرقان كتباً للنصارى، فأمسكوا (علي) وقالوا لأهله **"إذا لم تمنع ولدك من أذانا شكوناك إلى الملك"**

للوهلة الأولى تبدو لنا هذه الانتهاكات قليلة الشأن، لأنها تقع على يد أطفال لا يدركون ما يفعلون، لكن النصارى يرفضون التعدي عليهم، حتى من الأطفال، لهذا يهددون المسلمين، إذا لم يربوا أولادهم، سيشكونهم للسلطة الحاكمة (الملك) التي تشكّل في مخيلتهم سلطة، تحميهم من الأذى! هنا تبرز لنا الليالي، عبر سيرورة الحياة اليومية، علاقات يشوبها بعض التوتر، لكن الآخر يقف نداً للمسلم يهدده، ويعلّمه كيف يحسن تربية أولاده! بل يستطيع أن يهدد المسلمين!

لعل أجمل صورة رسمتها الليالي للآخر هي صورة الراهب المسيحي، فقد وجدناه ينصح ملكه (أفريدون) بالامتناع **"عن تلف هذه الصور الإنسانية، والهياكل الرحمانية" وبيّن له أن الصواب حقن الدماء والاقتصار على فارسين في الهيجا"**(24) (هما ملك المسلمين وملك الروم) وهو لم يكتفِ بتوجه النصح إلى ملكه، بل نجده يتوجيه بذلك إلى القائد المسلم (شركان) فيتمّ بفضله حقن دماء المسيحيين والمسلمين معاً!

تزداد هذه الصورة المشرقة وضوحاً في (الليالي 412 - 413 -414) حتى إننا نسمع أحد المسافرين المسلمين يقول عن رهبان عمورية الذين استضافوه بدير الأنوار: **"وقد رأيت كثرة اجتهادهم وعبادتهم ما لم أره من غيرهم."**

يلفت نظرنا عبارة "ما لم أره من غيرهم" إذ إن الراوي المسلم يبدي إعجابه بعبادة هؤلاء الرهبان لكثرتها ولإخلاصهم فيها، لذلك يعلن على الملأ تفوقهم على المؤمنين من ديانات أخرى، كأننا نلمح، هنا، تعريضاً بالمسلمين، الذين ينتمي إليهم المسافر (الراوي نفسه)

وقد ازدادت صورتهم إشراقاً، حين قاموا بإنقاذ العاشق المسلم، فقد عالجوه، بعد أن ضربه بعض الناس بالحجارة بسبب عشقه امرأة مسيحية!

لكننا نلاحظ رغبة الراوي المسلم في ممارسة دور الداعية الديني، مما يؤثر على رسم صورة موضوعية للآخر، لهذا عمد إلى رواية معجزات حول وفاة كل من العاشقين، ويدخِل الرهبان (الأربعين) طرفاً فيها، فقد حاولوا سحب المرأة الميتة من قبر عاشقها المسلم، لكنهم عجزوا، في حين استطاع ذلك شيخ مسلم، لم يجد الرهبان أمام هذه المعجزة وسيلة يعبرون بها عن دهشتهم سوى إعلان إسلامهم!

نلاحظ أن الليالي رسمت صورة الآخر عبر إحساس مرهف بالعدل، شأن أي فن رفيع، لهذا حين تشوب صورة الرهبان أية شائبة (كأن يفتتن الرهبان بامرأة جميلة، كما حدث في الليلة 861) فإن هذه الفتنة يشاركهم بها قضاة

مسلمون، يفترض بهم العفة والنزاهة!!

مثل هذه الصورة الإيجابية للراهب وجدناها في كتب التراث الإسلامي، مثلاً لدى أبي حيان التوحيدي، الذي جسّد لنا، عبر كتبه، لحظات مشرقة في الحضارة الإسلامية (25) فكان مثال رجل الدين الذي يقترن الإيمان لديه بالسلوك الإنساني الرفيع.

نلمس في الليالي تعاطفاً إنسانياً مع الآخر الغريب المسالم، حتى لو كان ينتمي إلى الأعداء، تبدى ذلك في لغة النصّاب، الذي يعترف أمام أحد الشيوخ الحكماء قائلاً في (الليلة 604) **"إني رأيت اليوم رجلاً أزرق العينين، وهو غريب البلاد فتقاويت عليه..وقلت له: أنت أتلفت عيني..."**

يلاحظ المتأمل أنه استعمل فعل (تقاويت) الذي يوحي لنا بدلالة سلبية، لكنها تبرز إحساس النصاب بأنه ظلم الغريب، وتصنّع القوة والكذب، فاستخدم صيغة (تفاعل) الذي تحمل هذه الدلالة! كما يلمس أيضاً تعاطف الشيخ الحكيم مع الغريب، إذ يلفت نظر النصاب الأعور إلى أن هذا الغريب باستطاعته أن يرد الأذية بطريقة يخسر فيها عينه الأخرى، ويصبح أعمى، وبذلك يمنع الشيخ الجور عن الغريب!

إذاً يمكننا القول مع تييري هنتش بأن التعايش بين الإسلام والمسيحية يشكل جزءاً من الإرث الفكري الإسلامي(26)

4 - **صورة اليهودي في "ألف ليلة وليلة"**

حين نطالع في "ألف ليلة وليلة" نجد أنفسنا أمام كتاب حياة يومية بكل حيوية تفاصيلها وتنوعها بين الخيال والواقع، لهذا نكاد نفتقد فيها السمات النمطية لشخصية اليهودي التي ألحقها بوعلي ياسين (في كتابه "خير الزاد في حكايا شهرزاد") **"حب المال والحسد والفظاظة والمكر والغدر والعدوانية وقساوة القلب."**(27)

وقد رسم الصورة النمطية لشخصية اليهودي، غالباً، كثير من المبدعين (شكسبير، دوستويفسكي، جورج إليوت...) فتبدو تارة قريبة من الواقع، وتارة بعيدة عنه، أما في الليالي، فقد بدا لنا الراوي مهتماً بالشخصية الإنسانية ابنة الحياة لا ابنة القالب الجاهز، لهذا تنوّعت الصورة التي قدّمها عن اليهودي، فلم نجدها محشورة في نمط واحد!

الصورة الإيجابية (اليهودي الطيب):

لم تعش شخصية اليهودي عزلة في مجتمع الليالي، بل كانت مندمجة تشكل جزءاً حيوياً فيه، فهي لا تكتفي بمشاركة المسلم تفاصيل حياته اليومية من طعام وبيع وشراء بل تشاركه همومه، فمثلاً (في الليلة العشرين) حين ضاقت الدنيا في وجه (حسن) بعد وفاة والده، إذ طلب السلطان دمه، وختم على أمواله، نجد يهودياً يزوره عند قبر والده ليبثّ فيه الأمل، ويمدّ يد العون له في محنته، فقد بشّره بأن والده كان قد أرسل قبل وفاته مراكب تجارة، وعاد منها قسم، وهو على استعداد ليشتري كل مركب بألف دينار، وهكذا لم يكتفِ اليهودي بالمواساة الكلامية، بل وجدناه يلجأ إلى المواساة الفعلية، التي هي أقوى أثراً في النفس، إذ تحلّ مشكلة البطل.

أما في (الليلة الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين) فقد لمسنا فيها مشاهد مدهشة للتعايش بين المسلمين والنصارى واليهود، إذ تقتل حسكة سمكة، بلعها الأحدب عند الخياط المسلم، فيأخذه عند طبيب يهودي ويتركه واضعاً ربع دينار في يد الخادمة، فيفرح الطبيب بالمال، لكن فرحته لم تتم، فقد تعثر بالأحدب، الذي يقع أسفل السلم، فيظن أن

مريضه قد مات بسببه، فيرميه، خوفاً من العقاب، على سطح جاره المسلم، الذي يظنه سارقاً، إذ هبط واقفاً، فيلكمه، فيسقط جسد الأحدب أرضاً، عندئذ ينقله خائفاً إلى السوق، ليصادفه نصراني سكير، فيضربه وفي ظنه أنه سرق عمامته، ، عندئذ يأتي الحارس، ويأخذه إلى الوالي، فينادي بقتله، وحين يجتمع الناس، يسرع المسلم إلى السياف، ويقول له: **"ما كفاني أني قتلت مسلماً حتى يقتل بسببي نصراني؟ فلا تشنق غيري"** ولم يكن اليهودي أقل مروءة من المسلم، لهذا يسرع إلى السياف ويعترف مثلما اعترف المسلم، ثم يأتي الخياط، ليوضح قصة موته، قائلاً: **"أطلق اليهودي واشنقني"**!

تسود روح العدل والتسامح بين أبناء المجتمع بكل أطيافه (المسلم والمسيحي واليهودي) لعل أجمل ما في هذه القصة إبراز هذه الروح في لحظة حاسمة في حياة الإنسان (الموت) أي في موقف مصيري تتبدى فيه أنانية الإنسان عادة، وتشبثه بالحياة، لكن التربية الصالحة، التي تؤسّس لها جميع الأديان، تضفي مشاعر إنسانية، فيصبح الإنسان أكثر مسؤولية وإحساسا بالآخر! لهذا يحاسب نفسه، فيرفض أن تتعرض حياة هذا الآخر للموت بسببه!

نلاحظ أن راوي الليالي اتسم بالموضوعية في رسم علاقة الأنا بالآخر، فلم يجمّل صورة المسلم على حساب المسيحي واليهودي، صحيح أنه تهرّب في البداية مثلما تهرّب اليهودي من دم الأحدب، لكن في اللحظة التي سيعاقب فيها بريء، يندفع كلاهما لإنقاذه! فيجسدان معا القيم العليا، ولم نجد المسلم يحتكرها! فاليهودي يرفض أن يشنق (المسلم) نيابة عنه، وكذلك المسلم يرفض أن يشنق (المسيحي) ظلما، بل يعترف كلاهما بأنه القاتل، وبذلك بدت لنا صورة اليهودي في نقائها الخلقي مكافئة للمسلم.

وقد وجدنا الراوي يكافئ الجميع في خاتمة القصة، فيوقظ الأحدب من إغمائه، أي من ميتته الوهمية! لتظهر براءتهم من جريمة لم يقترفها أحد منهم! وبذلك يعزّز الراوي (الصدق) بصفته قيمة عليا نادت بها الأديان جميعاً، وتأسست عليها الحضارة الإنسانية! فجمع الشخصيات تحت لوائها بغض النظر عن انتمائهم الديني! مما يؤكد سيادة روح التسامح والإيثار في مجتمع الليالي، لهذا تتميز "ألف ليلة وليلة" بأنها كتاب ممتع على الصعيد الجمالي والإنساني معا، إذ أمتعتنا شخصياتها عبر انفتاحها على إنسانية الإنسان بعيداً عن التعصب، وعدم نفيها للآخر المختلف!

يلاحظ المتأمل أن الراوي أسبغ ملامح إيجابية على الشخصية اليهودية سواء أكانت امرأة أم رجلا، فقد وجدنا في إحدى الليالي امرأة إسرائيلية عابدة، قبل الإسلام، تصلي كل يوم، **تتوضأ في بستان يحرسه شيخان** يراوداها عن نفسها، فتأبى، لهذا "**اتهماها بالزنى، وحين أرادوا رجمها تبعهم دانيال وقال: لا تعجلوا بالرجم حتى أقضي بينهم...فرّق بين الشاهدين، فتبين كذبهما...وهذا أول ما جرى من المعجزات لنبي الله دانيال عليه السلام** ."(28)

يتجلى إيمان المرأة الإسرائيلية عبر سلوكها المستقيم، لهذا حين يظلمها الشيخان، يسخر الله من ينصفها (دانيال عليه السلام) فيفضح كذبهما مبيّناً تناقض أقوالهما! فحبل الكذب قصير!

نلاحظ، هنا، أن الليالي استطاعت تثبّت الصورة المعروفة عن النبي (دانيال) في الكتاب المقدس، فقد كان ممن "**أعطاهم الله معرفة وعقلاً في كل كتابة وحكمة، وكان دانيال فهيماً بكل الرؤى والأحلام...**" (29)

ومما يلفت النظر سيطرة لغة الراوي الدينية على سرد تفاصيل هذه الحادثة، فهي ذات دلالات إسلامية (المرأة قبل أن تصلي تتوضأ) إذ لا نجد الوضوء في الأديان الأخرى، لكنها

أيضاً تحمل دلالات مشتركة بين الأديان كعقوبة الزانية وتجلي الإيمان في العفة!

يلفت نظرنا لغة الراوي التي تقدس أنبياء اليهود، فتستخدم عبارة الاحترام نفسها، التي يلحقها الراوي برسول المسلمين (عليه السلام) وبذلك يبدو لنا هنا تأثير الدين الإسلامي، الذي اعترف بالأديان السابقة، ودعا إلى الإيمان بأنبيائها.

عايشنا اللغة الدينية نفسها، حين وصف الراوي رجلاً صالحاً من بني إسرائيل مشهوراً بالعبادة، وجدناه يمارس الفروض الإسلامية (الوضوء) قبل الصلاة، كما يمارس السنة المستحبة (قيام الليل) بالإضافة إلى ذلك كان صادق القلب عميق الإيمان، فاستُجيب دعاؤه! وبذلك أسبغ الراوي على اليهودي سمات دينية رفيعة، حتى بدا في صورة قديس **"كان إذا دعا ربه أجابه... وكان سيّاحاً في الجبال قوّام الليل، وكان الله تعالى قد سخر له سحابة تسير وتسكب عليه ماء منهمراً، فيتوضأ..."** (30)

نلاحظ أن المعجزة التي ظهرت، هنا، لم تكن من صنع العابد، بل كانت منحة إلهية، كي تسعفه في عبادته، وتكافئه على التزامه الديني! فقد رافقته الغيمة في حلّه وترحاله، لتهطل عليه ماء، يتوضأ به وقت الصلاة!!

ومثل هذه المعجزة، هنا، التي تحدّث عنها الراوي، تعزّز الروح الديني وتجلياته السلوكية لدى البشر المؤمنين، بغض النظر عن ماهية دينهم! وتفلح في فتح آفاق جديدة لرؤية الآخر اليهودي!

إن المتأمل في "ألف ليلة" يلاحظ أن اسم النبي سليمان (عليه السلام) يتكرر في بعض الليالي، فقد صاحبت سيرته الأسطورة، وحفلت حياته بتفاصيل خارقة، ذكر بعضها القرآن الكريم كتسخير الجن لقضاء حوائجه، (خاصة في علاقته بالملكة بلقيس) وفهم لغة الحيوان (لغة النمل مثلاً) وشاعت في الموروث الشعبي خوارق أخرى كاستخدام (خاتم سليمان) الذي يجترح المعجزات! لهذا فكر أحد أبطال الليالي بالوصول إلى قبر النبي سليمان لأخذ هذا الخاتم، لكن ملكة الحيات تقول له: **"لن تقدر لأن الله تعالى منّ على سليمان بإعطائه ذلك الخاتم، وخصّه به"** (31) وهي من أجل إقناعه بالعدول عن فكرته، تعزّز نصيحتها باستخدام التناص القرآني، الذي يوضح أن الخاتم كان استجابة لدعائه!

إن مثل هذه السمات وهذه الأدوات، التي هي أقرب إلى الأسطورة، تغذّي المخيال الشعبي، الذي يشغف عادة بكل ما هو معجز وخارق للمألوف، لهذا نسج منها بعض القصص حول

النبي سليمان (ع) ومما أكسبها مصداقية لدى المتلقي ورود بعض أحداثها في القرآن الكريم، دون أن يعني هذا القول أننا ننفي أثر الكتب المقدسة الأخرى من توراة وإنجيل، فقد باتت هذه الكتب جزءاً من موروث عام، لهذا نجد تأثير قصص الأنبياء ليس في الأدب العربي فقط، بل تعداه إلى الأدب الغربي، على حد قول رانيلا (32)

لا نعتقد أن وجود هذه القصص حوله دليل على أن "ألف ليلة وليلة" كتبها يهود، كما يرى د. جمال شاكر البدري (33) إذ يعدّ هذا النبي، في رأيه، رمزاً لليهودية السياسية في عصرها الذهبي، لكن ذلك لا يبرر، في رأيي، انتماء كتاب الليالي إلى اليهودية، خاصة أنه أضاف إلى هذا الرأي حججاً واهية، فهو يرى أن كتاب "ألف ليلة وليلة" ظهر في فترة ازدهار اليهود الثقافي والاقتصادي أي في بعض فترات العصر العباسي والفاطمي! ولكن ألم تزدهر الحضارة الإسلامية في الفترة نفسها أيضاً؟ أ لم تنفتح على الأديان الأخرى؟

أما المبرر الثالث لانتمائها في نظره فهو أنها تشبه الكتب اليهودية، لكننا لاحظنا أن القصص مستمدة من القرآن الكريم، بل لاحظنا تناصاً قرآنيا، يشكل جزءاً أساسياً من البنية اللغوية لليالي، فمثلاً حين تحدث الراوي عن (خاتم النبي

سـليمان) اسـتند إلى مـا ورد في القـرآن الكـريم عـن الـنبي سليمان، لتؤكـد أهميـة الخـاتم ومعجزتـه **"قـال رب اغفـر لـي وهب ليً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهّاب."** (34)

لم نجد في الليالي شيوع اللغة الدينية الإسلامية فقط، بل وجدنا طقوساً إسلامية أسبغها الراوي على الشخصية اليهودية (الوضوء، قيام الليل...)

وقد عزّز د. جمال شاكر البدري رأيه أيضاً بشيوع (لقب) الملك في الليالي عوضاً عن خليفة أو أمير، مع أن الليالي كتبت في عهد الخلافة العباسية والفاطمية، وهذا اللقب، باعتقاده، امتداد للفكر التلمودي، الذي يرى حاكم إسرائيل أو الماشيح ملكاً (35)

لا أدري لِمَ يخصص لقب (الملك) بالثقافة اليهودية فقط، مع أنه لقب يشمل كل الثقافات وحضارات الأمم، ثم ألا يمكن أن يكون اختيار هذا اللقب جزءاً من اللعبة الفنية؟ إذ يفيد التعميم، ويبتعد عن التخصيص، فيتيح للكاتب حرية التعبير بمعزل عن ضغط السلطة السياسية والدينية التي تمثلها الخلافة!؟ ومع ذلك لم نجد جميع الليالي تستخدم لقب (الملك) بل وجدناها أحياناً تستخدم لقب (الخليفة) أو (أمير المؤمنين)

ورغـم أن د. البـدري يلاحـظ غيـاب المـرأة اليهوديـة عـن التشـخيص المباشـر في كـل الحكايـات، لكنـه يعلـل هـذا الغياب بطريقة غير مقنعة فيجعل هذا الغياب **"تسامياً لها على غيرها من نساء الأمم الأخرى"** ثم نجده ينتصف لها، بأن يجعل الشخصية الرئيسية في الليالي (شهرزاد) امرأة يهودية، والسبب في ذلك أن اليهود يرون في (المرأة) أساساً في الانتماء، إذ تحدّد الهوية اليهودية بناءً على الانتماء إليها، وشهرزاد كانت أساس الليـالي مـن البدايـة حتـى الخاتمـة، تنقـذ بنـات جنسـها كمـا أنقذت أخت (زوربابيل بن ثلائيل بن يهوياكين يهوذا الأخير) زوجة كورش التي طلبت منه عودة بني إسرائيل إلى أورشليم! المدهش هنا أن المرأة المنقذة لا نعرف لها اسماً، وإنما نجد تعريفاً لها عبر ألفاظ تلحقها بالرجل (أخت زورباياثيل، زوجة كورش)!!!

لكـن المـرأة الثانيـة الـتي تعـد أصـلاً لشـهرزاد، بـرأي د. البـدري، نجـد لهـا اسمـاً (أسـتير) غـير أن وظيفتهـا كسـابقتها وهـي التوسـط لـدى الـزوج (أحشـويرش الأول) مـن أجـل خـلاص اليهود من القتل الجماعي! لهذا يرى أن (شهرزاد) هو الاسم الرمزي للبطلة اليهودية (أستير) وشهريار هو اسم (أحشويرش) (36) لا أدري كيـف اقتنـع الباحـث بـأن هـذه المـرأة اسـتثنائية

لمجرد قيامها بدور الوساطة!!! وغفل عن لغة شهرزاد التي تعلن هويتها فهي تريد أن تفدي بنات المسلمين، فتقول لأبيها الوزير **"يا أبتي زوّجني هذا الملك فإما أن أعيش وإما أن أكون فداء لبنات المسلمين وسبباً لخلاصهن من بين يديه"** (37)

نسي د. البدري في زحمة حماسته للمرأة اليهودية أن للمرأة مكانة كبرى في العصر الأمومي، وأن الأنثى كانت هي الأصل، وهو ينسى أن الفكر اليهودي المستنبط من التوراة والتلمود يحمّل المرأة مسؤوليتها عن الخطيئة الأولى، وأغرت آدم، حتى أخرجته من الجنة، وبالتالي هي التي جلبت المتاعب للجنس البشري! (38)

ثم ألا نجد المرأة الاستثنائية في كل العصور، وليست حكرا على الثقافة اليهودية! لو نظرنا فقط إلى العصر التي كتبت فيه (ألف ليلة) ألا نجد نساء وصلن إلى الذروة بفضل ما يمتلكن من صفات استثنائية (شجرة الدر، وست الملك) بل وجدنا أسماء بنت شهاب الصليحية، تشارك زوجها في حكم اليمن، ويتردد اسمها في المساجد إلى جانب اسم الخليفة الفاطمي واسم زوجها(39)

ويعزّز د. البدري رأيه بالوقوف عند بنية الليالي ونسخها، فيبين أنه تمّ تغيير النسخة العراقية والفاطمية واستبدالها

بحكايات أيوبية ومملوكية بحتة، وهو ما يظهر حتى اليوم في عدم تناسق حجم الليالي وتباينها في الطول والقصر، وهو يرى أن من أسباب التغيير أيضاً "إدخال حكايات ووقائع شعبية محددة إلى بعض الحكايات والليالي الأصلية، وهكذا تمت عمليتا (التزييف والتزوير) معاً في مصر المملوكية، وأصبحت "ألف ليلة وليلة" على حد قوله " أقل يهودية وأكثر إسلامية، برأيه، مما كانت عليه النسخة (العراقية) ومثيلتها النسخة الفاطمية وقد ساعد عدم وجود (اسم) مؤلف محدد لليالي على هذا التكييف" (40)

من المعروف أن "ألف ليلة وليلة" كتاب أنجز عبر العصور، أضافت إليه المخيلة الشعبية قصصاً من واقعها المعيش وهمومها، لهذا تباين حجم الليالي حسب الراوي وحسب الهم الذي تقدّمه، لهذا لا نستطيع أن نقول بأن هذه الإضافة هي تغيير أو (تزييف) بلغة د. البدري!!!

لو كان المؤلف يهوديا، كما يدعي البدري، لعرّف باسمه، ولظهر انتماؤه عبر اللغة، وقد استقر رأي الباحثين في "ألف ليلة وليلة" على أن هناك عدة مؤلفين لها، كما أرى أن تحليل لغة الليالي هو الحكم، فقد لوحظ أن لغة الثقافة الإسلامية، هي التي تشكل البنية الأساسية للنص، في حين

توارت لغة الثقافة اليهودية، عدا ذكر اسم النبي سليمان، الذي ذكر في سياق لغوي، ينتمي إلى الإسلام أيضاً! لهذا لا يمكننا قبول رأي د. البدري بأن هدف تأليف "ألف ليلة وليلة" "التخفيف من العداء ضد اليهود، وكسب المعتدلين لتقبل المقولات اليهودية، وبالتالي الفكر والسلوك اليهودي ضمنياً(41)

أسقط د. البدري على الليالي هموم الحاضر، نتيجة توتر العلاقة بين العرب و(الكيان الصهيوني) لاحتلاله فلسطين، دون أن ينتبه إلى السياق اللغوي، الذي تكاد تختفي فيه الثقافة اليهودية! وقد لاحظت أثناء دراستي لصورة الآخر لدى بعض أعلام التراث الإسلامي (الجاحظ، ابن قتيبة أبو حيان، أسامة بن منقذ...) عدم وجود لغة عدائية في التواصل مع الآخر (اليهودي أو لغيره)!

يلاحظ المتلقي أن شيوع لغة التسامح مع اليهود (في "ألف ليلة وليلة") دفعت د. البدري إلى الظن بأن مؤلفيها يهود، لكنه غاب عن ذهنه بأن أهم ميزة لهذا الكتاب، شأن أي كتاب عظيم، يتيح لنا فرصة معايشة الأسطورة ونبض الحياة اليومية، مثل عاداتهم يوم السبت، إذ يمتنعون عن الإتيان بأي حركة، لكنهم مع ذلك يستقبلون ضيفهم!! فقد استطاع

(جانشاه) أن يدخل مدينة اليهود بسبب معجزة تحدث يوم السبت (يجف النهر) مما يذكرنا بمعجزة حدّثنا عنها الخطاب القرآني، يمنع عنهم السمك "يوم لا يسبتون" كما أن جفاف النهر، يذكّرنا بنجاة النبي موسى وقومه من فرعون.

وحين تجول (جانشاه) لم يجد أحداً، لكن أبواب البيوت كانت مفتوحة، مما دفعه لدخول أحدها، فلقي أهل البيت "**ساكتين لا يتكلمون أبداً. فقال لهم إني رجل جائع**" فأشاروا إليه بأن يأكل، ويشرب، ولا يتكلم، ففعل ذلك ثم نام، وفي الصباح حدّث اليهودي بقصته، فـ"**بكى بكاء شديداً**" وأخبره أن عليه أن ينتظر سنة؛ لتعود القافلة التي فيها تجارته من اليمن، عندئذ بكى (جانشاه) فقال له اليهودي "**لاتبكِ، يا شاب، واقعد عندنا حتى تأتي القافلة**"(42)

ينتمي، هنا، اليهودي إلى سياق اجتماعي عربي، فيمارس تقاليده الأصيلة نفسها، فهو يكرم ضيفه رغم ممارسته الطقوس الدينية (امتناعه عن الحركة والكلام يوم السبت) فيستخدم لغة الإشارة؛ ليقوم بواجب الضيافة، وفي اليوم التالي يحدث (جانشاه) مضيفه اليهودي بهمه، فنجده يتعاطف معه، ليس بدموعه فقط وإنما بالفعل الإنساني فيدعوه للإقامة في بيته عاماً، حتى يستلم تجارته! وبذلك وجدنا العادات العربية

الأصيلة من كرم وإغاثة للملهوف تشكل وجدان اليهودي، لهذا لن نستغرب تعاطفه مع مأساة (جانشاه) ومد يد العون إليه! فهو جزء من سياق ثقافي حضاري منفتح على الآخر رغم انتمائه للإسلام!

نجد في هذه القصة أن الخيال الشعبي يكافئ اليهود الطيبين، فتبدو مظاهر الطبيعة متعاطفة معهم، تمارس طقوسهم نفسها، لهذا يتوقف النهر عن الحركة يوم السبت!!

الصورة السلبية (اليهودي الشرير)

نلاحظ أن مجتمع الليالي أشبه بمرآة تعكس عصرها بكل ما يحتويه من أطياف! لهذا صادف (جانشاه) اليهودي الطيب، كما صادف الشرير، الذي يلجأ إلى خداع الشباب مستغلاً حاجتهم، فقد سمع يهودياً أثناء سيره في السوق ينادي: **(من يأخذ ألف دينار وجارية بديعة الحسن مقابل عمل يعمله)** فقبل (جانشاه) العرض، فاصطحبه إلى سفح جبل، ثم ذبح البغل الذي أوصله وأخرج أحشاءه، ثم أمره الدخول مكانها، ليخيط الجلد عليه، بعد ذلك أتى طائر عظيم، فأخذ البغلة إلى أعلى الجبل، ليأكلها، وحين شق بطنها، خرج منها (جانشاه) ورأى التاجر أسفل الجبل، فطلب منه أن يرشده إلى

الطريق، فأمره أن يقذف الحجارة الكريمة أولاً، ثم لمّها وتركه! (43)

هنا نلمس الصورة النمطية لليهودي (الشراهة للمال وسلوك كل الطرق من أجل الحصول عليه) ومما يزيدها بشاعة لجوء التاجر إلى الحيلة التي يلجأ إليها من أجل خداع الشاب الفقير! لكن اللافت للنظر أن (جانشاه) يقابل في رحلته لاسترداد ثروته اليهودي الطيب والشرير، مما يخفف من وطأة الصورة السلبية، ويوحي بنظرة موضوعية للآخر لليهودي!

في الليلة (سبعمئة وثماني عشرة) نلاحظ أن الراوي ألحق بـ(عذرة) اليهودي الغني كثيراً من الصفات السلبية (ساحر، مكار، غدار) يستخدم الجن في خدمة مآربه، لهذا كان باستطاعته أن يتحدى شطّار مصر وبغداد والعجم من أجل الاستيلاء على كنز بحوزته، وقد صنعه في هيئة ثوب لابنته (قمر) وعرضه على صينية! دون أن يستطيع أحد الحصول عليه! كان مكروهاً من أقرب الناس إليه (ابنته) التي عشقت (علي المصري) فوضعت البنج لأبيها، وقتلته، ثم جاءت لـ(علي المصري) لتسلم وتتزوج منه! نلاحظ هنا أن الشخصية السلبية نالت العقاب على يد أقرب الناس إليها! وإن كان هذا العقاب يثير استهجان المتلقي ونفوره!!! فالحب لا يبرر قتل الأب، كما

يلاحظ، هنا، خروجاً عن تعاليم إنسانية ودينية، إذ من الكبائر ارتكاب مثل هذه المعصية!!

توتر العلاقة:

تغوص "ألف ليلة وليلة" في أعماق الإنسان، لتصغي إلى نوازعه وأحلامه، لهذا رصدت لنا خلجاته وطموحاته، وتوتر علاقته مع الآخر، وما شابها من سوء التفاهم، أحياناً، ففي الليلة (834) وجدنا يهودياً طيباً، يوحي اسمه (أبو السعادات) بوضعه الاجتماعي والنفسي، وقد أسبغ الراوي صيغة الجمع على اسمه، ليوحي بالفرح، أثناء التلقي، فهو لا يجسد سعادة واحدة بل يجمع سعادات الدنيا كلها! فقد كان يجلس في دكانه محاطاً بالخدم كأنه ملك من الملوك، مما يثير حفيظة الفقراء وحسدهم، لهذا حين نظر إليه بائع السمك (خليفة) تمنى أن يكون له مثل حظه، فسأله (أبو السعادات) ماذا تريد؟ فقال أريد أن أبيعك هذه السمكة بكلمتين، فغضب اليهودي وقال **"يا قطاعة المسلمين، هل تريد أن أفارق ديني من أجل سمكتك، وتفسد علي ملّتي وعقيدتي التي وجدت عليها آبائي من قبل؟"** فنادى غلمانه، وطلب منهم أن يضربوه بشدة، وحين وقع على الأرض أشفق عليه اليهودي وسأله ثانية عن ثمن السمكة بعد أن قال له: **"إنك ما نلت منا خيرا في هذه الساعة"**

فأجابه مثل جوابه السابق (أريد منك كلمتين) فقال له اليهودي "**أظن أنك تطلب مني أن أسلم، فقال له خليفة: والله يا يهودي إن أسلمت فإسلامك لا ينفع المسلمين ولا يضرّ اليهود، وإن بقيت على كفرك، فكفرك لا يضرّ المسلمين ولا ينفع اليهود، ولكن الذي أطلبه منك أن تقوم على قدميك، وتقول: اشهدوا علي يا أهل السوق أني قد أبدلت قردي بقرد خليفة، وحظي بحظه...**" (44)

يبدو لنا سوء التفاهم واضحاً، لهذا استفزّ المسلم الفقير اليهودي، حين طلب منه ثمناً غير عادي للسمكة (كلمتين) فناداه بأحقر نداء "**يا قطاعة المسلمين**" أي يا حثالة!

إن مرد سوء التفاهم هو سوء ظن اليهودي بالمسلم، فقد حسب أنه سيمارس عليه دور الداعية، الذي يُمارس عادة، فيُطلب من الآخر نطق كلمتين (أي التشهد) كي يصبح مسلماً!

يوضح لنا هذا الحوار أمراً مسكوتاً عنه، وهي شيوع الدعاة في المجتمع الإسلامي، لكن ميزة الليالي أنها تطلعنا على تفاصيل الحياة اليومية، فلا نجد الداعية، هنا، فقيهاً أو رجلاً من رجال الدين، كما هو مألوف، بل رجلاً عادياً كبائع السمك!

كما لمسنا هنا اتهام الآخر المخالف في الدين بالكفر، مما يؤكد لنا أن الراوي في هذه القصة مسلم، فقد استخدم اللغة المألوفة في وصف الآخر لدى العوام، كما وثّق الرؤية الفكرية لسياق ثقافي، يوجّه سلوك المسلم واليهودي!!

تقدم لنا هذه الليلة روح الانفتاح والتسامح التي اتسم فيها المجتمع الإسلامي، بل نلمس حرية التصرف والقول! إذ لم يكتفِ اليهودي برفض مفارقة دينه، بل نجده يتهم المسلم بأنه يريد أن **يفسد عليه ملّته وعقيدته التي وجد عليها آباءه من قبل؟** فيحدث ما يدهش المتلقي، ويخالف أفق توقعه (اليهودي، يعاقب المسلم بأشد الضرب) ومما يدعو للعجب أكثر، هنا، أن من يمارس العقاب البدني ليس من يمثل الأكثرية في المجتمع المسلم!! بل اليهودي الذي يمثل الأقلية!!!

رغم ذلك لا تبدو الصورة سلبية منفرّة، فهي تمتاز بالحس الإنساني، ما إن يقع البائع (خليفة) على الأرض حتى يشفق عليه اليهودي، ويأمر بإيقاف الضرب! بل عرض عليه ثانية شراء السمك منه! فيكرر الجواب (أريد كلمتين) عندئذ يغدو الحوار أكثر وضوحاً، فيصرّح اليهودي بظنه (بأن خليفة يريد منه أن يسلم) فيفاجأ بأن المسلم لا يهتم بهذا الأمر، لأن إسلام فرد واحد أو عدمه لن يفيد المسلمين ولن يضر اليهود،

وبذلك يتحول الإيمان في الحضارة الإسلامية إلى شأن شخصي لا يهتم به المسلم! لهذا لن يمارس دور الداعية، بل نجده معنياً بما هو شأن دنيوي (المال والمركز الاجتماعي) لهذا يطلب بائع السمك من اليهودي أن يمنحه حظه (قرده) مقابل أن يأخذ حظه! كي يصبح مثله غنياً!

لقد زال سوء التفاهم لأن المسلم ابتعد عن ممارسة دور الداعية، وترك الآخر حراً في ممارسته الدينية، والتفت إلى ما هو دنيوي، وإن خطر للمسلم أن يمارس هذا الدور فإن من حق اليهودي أن يعاقبه، وبذلك استطعنا أن نعايش بفضل "ألف ليلة وليلة" إحدى مشاهد الحرية الفكرية التي سادت الحياة اليومية، وشكّلت أساس الحضارة الإسلامية.

إذاً نلمح، هنا، ابتعاداً عن العصبية الدينية تجاه الآخر، فالفقير المسلم يغبط الغني اليهودي عبر حوار مرح، ولم تتحول هذه الغبطة إلى نوع من الحقد الطبقي المدمر، بل عبّر عنها المسلم في إطار أقرب إلى الهزل، فالمطلوب من اليهودي مقابل السمكة التي يقدمها له المسلم (خليفة) ليس ما هو مألوف (المال أو الثواب بإقناع الآخر في الإسلام) بل أن يقول كلمتين أمام أهل السوق هما: **"أبدلت قردي بقرد خليفة، وحظي بحظه..."**

هنا لا نستطيع أن نقبل قول د. عبد الله إبراهيم بأن قضية الآخر تثير موضوع القيم الإسلامية وضرورة تعميمها على العالم بأجمعه، الآخر هو موضوع ينبغي أن يغذى بالقيم الإسلامية لكي يصلح أمره. (45)

وبما أن "ألف ليلة وليلة" كتاب حياة وفن، لهذا لم نجد صورة مزورة للمجتمع الإسلامي، أي لم تضفِ المثالية عليه، فقد أبرزت بعض التجاوزات التي مورست على الآخر (اليهودي) لكن لم يقم بها ولاة الأمر ولا أتقياء يتمثلون قيم الإسلام، بل أشخاص هم أشبه بقطاع طرق يعتدون على الناس بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية، فمثلاً في الليلة (مئتين وخمس وستين) هرب أحمد الدنف وعلاء الدين من العدالة إلى الكروم والتقيا بيهوديين، فطلبا منهما ضريبة الغفر (الحراسة) وبعد أن دفعاها، قاما بقتلهما!

أما في الليلة (سبع مئة وأربع) فقد وجدنا امرأة (دليلة المحتالة) تماثلهما في عدم الالتزام الخلقي تنصب على الصائغ اليهودي، فتأخذ ذهباً من دكانه بمقدار ألف دينار، وتترك ابن رئيس التجار رهينة عنده، وهي لم تنصب عليه فقط بل نصبت على غيره (التاجر المسلم والصبّاغ والحمّار) لهذا سيتعاون كل هؤلاء مع اليهودي من أجل البحث عنها!

وبذلك لم نجد الآخر غريباً في مجتمع الليالي، تنتهك حقوقه لأنه أقلية، بل كان جزءاً من المجتمع يتعرض للنصب كغيره من المسلمين! أما الفاعل المنتهك للقيم، فهو ممن لا يلتزمون بقيم الإسلام! إذ صاحب الالتزام الخلقي في الليالي التزاماً دينياً! وإن كنا لم نعدم في الليالي من يتظاهر بالدين ويتاجر بقيمه، كي يحقق مآربه الدنيئة (العجوز شواهي ذات الدواهي مثلاً)!!!

حين نتأمل في الليالي ظاهرة العنف ضد اليهودي يلفت انتباهنا أن من يمارسه هو أقرب الناس إليه (الابن أو الابنة) خاصة حين يتعرفا على دين الإسلام! فقد وجدنا (قمر) ابنة اليهودي (عذرة) بعد أن عشقت (علي المصري) تقتل أباها وتسلم!

تبدو هنا حماسة الراوي للإسلام كبيرة إلى درجة لا يكتفي يفرض معتقده على الآخر بل يتجاوز فيها أوامر الدين الإسلامي، فقد أمر الأولاد بعدم عقوق الوالدين، حتى لو كانا مشركين، لكننا وجدنا ابنة (عذرة) ترتكب ذنباً كبيراً (قتل الأب) يخرجها عن سياق الثقافة الإسلامية! هنا نتساءل: هل يمكن أن يكون قتل الأب هنا بمعناه الرمزي، كي تبدأ حياتها الجديدة لا بد من قتل ماضيها الذي تجسده سلطة الأب!

وتبدو الصورة أشد قسوة حين نجد في الليلة (486) (بلوقيا) الذي ترك له والده (أحد ملوك بني إسرائيل) **"عدة صناديق من بينها صندوق من ذهب فيه كتاب رأى فيه صفة محمد (ص) فتعلق قلبه، قرر أن يخرج أباه من قبره ويحرقه، لأنه استخرج هذا الكتاب من التوراة ومن صحف موسى."**(46)

يسقط الراوي المسلم صوته على (بلوقيا) فقد حرّف اليهود التوراة، وحذفوا ما يثبت نبوة محمد (ص) لهذا يسمح للحماسة الدينية بالسيطرة عليه، فيعاقب (أحد ملوك بني إسرائيل) على يد أقرب الناس إليه (الابن) !! مع أن الابن يرتكب من منظور الدين الإسلامي إثماً كبيراً، حين يفكر بحرق جثمان والده!!!!

وهكذا توثّق لنا الليالي بموضوعية مشاهد من الحياة اليومية، حيث نعايش وقائع من المجتمع، فيبدو منفتحاً على الآخر تارة، في لحظات تألقه والتزامه بتعاليم الدين الإسلامي، وتارة أخرى معاديا له، في لحظات تزمته وابتعاده عن روح الدين!

5 - **الآخر الزنجي:**

نلمس في الليالي الصورة النمطية للزنجي ذات الملامح الدونية (العبد، الخادم، قبيح الشكل والأفعال ...) التي تنتقص من إنسانيته، والتي مازالت تلاحقه إلى اليوم لدى معظم الأمم، وقد وجدنا في الليالي تخصيصاً لهذه الصورة، أسهم في زيادة تشوهها، إذ لازمت الخيانة صورة العبد منذ افتتاحية القصة الأساسية، فقد وجد (شهريار) زوجته تخونه مع **"عبد أسود"** فعانى أزمة نفسية دفعته إلى قتل كل امرأة ليلة زفافها!

ستتكرر هذه الصورة في القصص الفرعية ففي (الليلة 7) تخون المرأة زوجها (الملك) مع عبد أسود، والمدهش أنه يعاملها معاملة العبيد، فيؤنبها لتأخرها قائلاً: **"ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة..."** في حين نجدها تعامله معاملة الأسياد فتقبّل **(الأرض بين يديه)** لعل مؤلف هذه الليلة زنجي، يريد أن ينتقم عبر الفضاء الحكائي لما يعانيه من اضطهاد على يد الأحرار (البيض) كأنه يوحي بأن اختلال القيم الأخلاقية يؤدي إلى خلل في الإنسانية، فينعكس سلباً على العلاقة بين الطبقات الاجتماعية، لهذا وجدنا المرأة الحرة، التي تخون زوجها، تصبح عبدة، ويصبح العبد سيداً! خاصة أن اكتشاف المتلقي

خديعة الزوج (الأبيض) إذ كان ضحية سحر هذا الزنجي (نصفه الأعلى إنسان والنصف الأسفل حجر!)

لكن أقسى تشويه لصورة الآخر الزنجي، قدّمته الليالي، هي جعله من أكلة لحوم البشر، فأُخرج الإنسان بسبب لونه من طبيعته الإنسانية، ليوضع في مرتبة الحيوانات المتوحشة، وقد تكررت هذه التهمة في عدة ليالٍ، ففي الليلة (551) نسمع أحد التجار يقول للسندباد **"كيف خلاصك من السودان وهم يأكلون البشر"**

أما جزيرة الزنوج التي يصلها التجار في الليلة (301) فهي جزيرة الموت والرعب، إذ قبض عليهم الزنوج وأوثقوهم، وقتلوا قسماً منهم وأكلوهم!

سيتكرر المشهد في (الليلة 766) فقد أخذ الزنوج (سيف الملوك) ومماليكه أسرى، وقالوا لملكهم **"إنا لقينا هذه الطيور بين الأشجار، فأخذ ملكهم مملوكين وذبحهما وأكلهما"**

نلمح في هذا المشهد تفاصيل جسدية للزنوج، إنهم عمالقة إلى درجة أن الآخرين من البشر يبدون أمامهم صغاراً في حجم الـ**"عصافير"** فيبدو لنا الخيال مثيراً للدهشة من جانب،

وموّظفاً من جانب آخر، كي يقنعنا بأن فكرة الأكل مبررة، إذ من المنطق أن يأكل العملاق (الزنجي) الطير الصغير (البشر)!

المدهش أننا وجدنا في (الليلة 37) أحد العبيد يؤكد هذه التهمة، إذ يقول لصديقيه العبدين **"أما تعرفان أن أصحاب الغيطان يخرجون من بغداد ويترددون هنا، فيمسي عليهم المساء، ويغلقون عليهم الباب خوفاً من السودان، الذين هم مثلنا، أن يأخذوهم ويأكلوهم...فلما سمع غانم كلام العبد، قال في نفسه" ما أمكر هذا العبد، قبّح الله السودان لما فيهم من الخبث واللؤم."** (47)

هنا نعايش الرعب الجمعي من الزنوج! لهذا لن يجرؤ أحد من سكان بغداد على الخروج ليلاً! يبدو هنا دور الخيال ليس في إضفاء الدهشة على الصورة، وإنما في جعلها أمراً واقعياً يعترف به أحد العبيد، وبذلك يضفي على الفعل المستهجن من الآخر بعض الإقناع! إذ يأتي الاعتراف بأكل البشر على لسانهم (من فمك أدينك) كأن الراوي يريد أن ينفي أي شك قد يتطرق للذهن، وبذلك يكسب الراوي تعاطف المتلقي، فيندفع مع البطل (غانم) في كيل السباب لهم! ويلحق بهم كل الصفات السلبية (مكر، خبث، لؤم)

إن ما يؤلم في الليالي هو أن يتحول أسود اللون إلى أسود الفعال ، لهذا اختار الراوي صفات جسدية تنسجم مع هذه الفعال، وعمد إلى الخيال الذي يشوّه ملامح وجهه، فيجتمع سواد البشرة مع البشاعة الشكلية والخلقية! فالعبد الأسود الذي يسرق حصانيّ (علي نور الدين) **"له مناخير كالإبريق"** بل نجد الخيال الشعبي يمعن في رسم ملامحه القبيحة فـ**"إحدى شفتيه غطاء وشفته الثانية وطاء، وشفاهه تلقط الرمل من الحصى، وهو مبتل وراقد على قليل من قش القصب..."** (48)

نجد المبالغة في رسم أنف العبد وشفتيه، إلى درجة تثير العجب، أما المشبه به فقريب المتناول من الخيال الشعبي، إذ استمد من أدوات المطبخ (إبريق، طنجرة، ملقط)

حتى قوة العبد التي قد تحمل دلالة إيجابية، لحق بها تشبيه منفر **"كأنه ثور من الثيران..."** مما يقتلعها من عالم البشر، ليقذف بها إلى عالم الحيوان هائج! ويمعن الراوي في تشويه الصورة فلا يكتفي بجعله أسود الفعال والأخلاق، بل أسود اللغة، إن جاز التعبير، لا ينطق إلا بالسوء ، ولا يحمل إلا الأخبار السيئة، فهو **"أسود اللون والصفيحة، قبيح المنظر والطبيعة السخيفة"**

لعل ما يزيد بشاعة هذا التشويه هو التأكيد على أن الطبيعة الشريرة ملاصقة للون الأسود، بشكل أبدي، مما يمنع أي أمل بتجاوز هذه الصورة النطية! حتى لو كان العبد فقيهاً، فإنه يوّظف معرفته لصالح عبوديته!!! فيجادل سيده، الذي أراد أن يعتقه، ويبيّن له عدم شرعية العتق!! وهو يعاني من عيب مدمر (الكذب الذي يفزع القلوب، ويخرّب البيوت) مما يضاعف النفور لدى المتلقي، خاصة حين يقول لسيده **"إن أعتقتني أنت ما أعتقتك أنا حتى تكمُل السنة وتكمُل الكذبة... وبعد أن أتمها انزل بي إلى السوق وبعني...ولا تعتقني، فإني ما لي صنعة أقتات منها، وهذه المسألة التي ذكرتها شرعية، ذكرها الفقهاء في باب العتق."** (49)

يلاحظ المتلقي أنّ الكائنات الخرافية، التي تبتكرها المخيلة لإثارة الرعب في الليالي، لا بد أن تكون سوداء، ، فقد ألحق النسق الثقافي العربي جملة الدلالات السلبية بالحيوان الأسود، فهو كالإنسان الأسود يمثل الشر والأذى، ففي الليلة (546) نزل على السندباد وأصدقائه من أعلى القصر في جزيرة نائية **"شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان وهو أسود اللون طويل القامة، كأنه نخلة عظيمة، له عينان كأنهما شعلتان**

من نار، له أنياب مثل الخنازير، وله فم عظيم الخلقة كأنه فم بئر..." (50)

إذاً لن تكتمل صورة الرعب التي رسمتها المخيلة الشعبية إلا باستخدام اللون الأسود، لهذا وجدناه مصاحباً لدلالة (النار) التي تنبثق شرراً من أكثر الحواس حساسية (العينين) ولا ننسى امتداد هذه الدلالة في اللاشعور الجمعي، فهي عقاب الكافرين في الآخرة، أما الأنياب، التي هي بيضاء عادة، فتشبّه بأبشع الحيوانات (الخنازير) في لا شعور المسلمين نظراً لتحريم لحمه عليهم!

يلفت نظرنا في الليلة (303) ذلك الاستعلاء العرقي الذي يتمادى حتى يصل عالم الحيوان، فالحية **السوداء** كانت باغية على الحية **البيضاء**، لهذا ينجدها أبو محمد الكسلان، ويسرع إلى إنقاذها؛ لهذا يقتل السوداء!!!!!

العبد المتمرد

قلما نجد صورة العبد الذي يتمرد على سيده، وهو حين يخطو هذه الخطوة، لن يكسب تعاطف المتلقي، بصفته مناضلاً من أجل حريته، بل يرسّخ تمرده صورته النذلة، إذ يستعين بأساليب قذرة (خيانة الثقة، الكذب، القتل...) كما

فعل العبد (غضبان، لنلاحظ دلالات الاسم الموحية بالتمرد في الليلة 51) إذ طلبت منه (إبريزة ابنة ملك الروم) أن يصحبها إلى أهلها، فقتلها (في الليلة 52) بعد أن رفضت وصاله، أثناء وضع طفلها، وهذا مما يزيد صورته قبحاً في مخيلة المتلقي، فيستحق تلك الصفات التي أطلقتها عليه (إبريزة) **"ولد الزنا وتربية الخنا"** ويستحسن اللقب الذي أطلقه عليه الراوي **"العبد النحس"**!

هنا لا نستطيع أن نقبل ما ذهب إليه الباحث المنصف الحسن من أن اسم (غضبان) الذي منحه الراوي المسلم **"لتجسيد موقف عدائي ضد النصارى في ظروف تاريخية تميزت بالصراع بين المسلمين والنصارى"** (51) لأن العداء ضد العبد، برأينا، مبني على أساس عرقي لا أساس ديني، وخير دليل على ذلك أن هذه الصورة الاستعلائية للآخر التي رسمتها مخيلة "ألف ليلة وليلة" للآخر العبد الأسود، تقف على نقيض الصورة التي رسمتها للعبد الأبيض، خاصة أن الجارية البيضاء احتلت مكانة رفيعة في مجتمعها!!

إننا نلمس في هذه الصورة المشوهة للعبد الأسود ابتعاداً عن روح الأخوة بين البشر التي دعا إليها الدين الإسلامي **"إن أكرمكم عند الله أتقاكم"** (سورة الحجرات، آية13) بل

وجدنا الرسول (ص) لا يكتفي بأن يطالب بمعاملة العبد معاملة حسنة، بل يحرص على مشاعر العبد، فيقول: **"لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي."**(رواه البخاري ومسلم وأبو داوود وابن حنبل) (52)

يلاحظ المتلقي، أنّ المجتمع الإسلامي قد خضع لنسقه الثقافي والاجتماعي العام أكثر من خضوعه لنسقه الديني، فقد كان أسيراً لما احتفظت به ذاكرته الجماعية من حروب وعلاقات صراعية مع الأسود الحبشي قبل الإسلام (أبرهة الحبشي) لهذا تمّ النظر للأسود بوصفه ذلك الآخر المفرط في مغايرته للذات العربية لوناً وعرقاً وهيئة وثقافة ودیناً ولغة، وأمعنت المخيلة في تجسيد جهله وغبائه وبطشه وحيوانيته، وبمثل هذا التعبير بدا لنا جزءاً من عملية تمثيل الذات واستعراضها أمام نفسها وأمام الآخر وأمام العالم!(53)

6 - الآخر غير الأرضي (الجن)

صورة من الموروث الإسلامي:

لم تبتكر "ألف ليلة وليلة" تلك الكائنات غير الأرضية، بل هي جزء من الموروث الجاهلي (وادي عبقر في الجاهلية الذي يسكنه الجن، فكان لكل شاعر ملهم من الجن) كما هي

جزء من الموروث الإسلامي، إذ ورد في الليالي اسم الجن أو العفريت وصفاتهم، كما وردت في القرآن الكريم، فهم مثلاً يشتركون مع الإنس بتنوعهم بين الكفر والإيمان **"وإنا منا الصالحون ومنّا دون ذلك، كنا طرائق قدداً"** (سورة الجن آية 11)

وحتى الأعمال الخارقة، التي يقوم بها الجن، في الليالي وجدناها في القرآن الكريم، إذ استعان بهم النبي سليمان؛ ليأتوا له بعرش بلقيس (ملكة سبأ) في اليمن **"قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك، فلما رآه مستقراً قال: هذا من فضل ربي..."**(سورة النمل، آية 39و 40) فقد استطاع الجني أن يأتيه بعرش بلقيس في طرفة عين، رغم أن آلاف الفراسخ تفصله عنها!

يحاول الراوي في الليالي تقديم الجني محاطاً بشيء من الغموض، كي يثير انتباه المتلقي! (كما حصل لأبي محمد الكسلان في الليلة 303) فلا يتبدى للشخصية إلا عبر صوته **"وإذا أنا بهاتف أسمع صوته، ولم أرَ شخصه"** بعد قليل سينقلب الصوت إلى **"صورة إنسان"** ويقول له : **"لا تخف فإن جميلك قد وصل إلينا، ونحن قوم من جن مؤمنين، فإن كان لك حاجة**

أخبرنا ...أنا أخو الحية البيضاء التي قتلت عدوها..واعلم أن الذي كان على صورة القرد، وفعل معك المكيدة، مارد من مردة الجن، ، ولولا أنه تحيّل بهذه الحيلة ما كان أخذها منك..ولكن لا تجزع، فنحن نوصلك إليها، (أي إلى المرأة) **ونقتل المارد، فإن جميلك لا يضيع عندنا"** (54)

نلاحظ هنا تعدد صورة الجني، فهو تارة في صورة إنسان (طيب يعترف بالجميل) وتارة في صورة حيوان (قرد يتخفى في داخله مارد شرير) لكن في الليالي، كما في الحكاية الشعبية، ينتصر الجني الخيّر، ويُهزم الشرير دائماً!

وقد عايشنا صورة تبرز تعاون الجن والإنس، خاصة حين تُنتهك القيم، فنجد في (الليلة 778) يهب الجني (الملك شهبال) لنجدة الإنس، فيحارب آخر من جنسه، هو الجني (الملك الأزرق) لأنه ظالم **"يخطف أولاد الناس، وبنات الملوك، ويضعهم في القصر المشيد والبئر المعطلة، ويفسق فيهم."**

وحين تنشأ أخوة في (الليلة 791) بين إحدى الجنيات والإنسي (حسن) تكون لصالح الإنسان، إذ تدافع الجنية عنه، وتساعده في الوصول إلى حبيبته، وحين تستغرب أخواتها تصرفاته، تفسرها قائلة **"وأنتن تعرفن أن عقول بني آدم خفيفة"**

كأن الراوي يريد أن يوحي لنا بأن الجن أكثر تعقلاً من الإنس، ومن جهة أخرى تكسب الجنية تفهم إخوتها للضعف الذي ينتاب البشر أحياناً! خاصة أنها تعلي من شأن الجن على حساب البشر!

حين نتأمل أسباب هذه الأخوة سنجدها عقائدية، ففي (الليلة 825) قد ساعدت الجن (حسن) لأنه مسلم، ولأنه مظلوم، يطالب بحقه، فيعطونه (طاقية الإخفاء) وقضيباً **"يخرج له عشرة عفاريت في خدمته، وهم ملوك الجن."**

نلمح هنا نظرة استعلائية، لدى الراوي الإنسي، الذي يجعل ملوك الجن لا يكتفون بمساعدة البطل الإنسي الفقير، بل يتحولون خدماً له! وبذلك ينتقم الراوي عبر التمثيل الفني من ملوك يسكنون باطن الأرض، في حين لا يجسر على فعل ذلك مع ملوك الأرض! فيكون الفن ملاذاً له يعوّض بالمسكوت عنه عن إحساسه بالقهر!

ثمة في الليالي ما يناقض هذه الأخوة بين الجني والإنسي، إذ يعايش المتلقي العداء بينهما أيضاً، خاصة حين تنتفي الرابطة الدينية، ولكن أي صراع سينتهي لصالح الإنسي، خاصة أنه بين عفريت كافر وإنسان مؤمن، كما حصل في (الليلة 14) حيث انتصرت ابنة الملك عليه، فنسمعها تقول: **"الله**

أكبر الله أكبر قد فتح ونصر وخذل من كفر بدين محمد سيد البشر" فيحس المتلقي أنه يشهد صراعاً بشرياً، يتماهى فيه الجني الكافر مع الإنسي الكافر، لهذا سينتصر عليه المؤمن، كالصراع الذي جسّدته بعض الليالي!

صورة واقعية:

إذاً لن نجد عالم الجن يختلف عن عالم الإنس في تفاصيل حياتهم اليومية! فهم، كالبشر تماماً، يحتاجون إلى الأكل والشرب والسكن والزواج، والإيمان! فنسمع العفريتة (زوجة التاجر) تقول في الليلة الثانية: **"أنا مؤمنة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم..."**

حتى الكائن الخرافي (الغولة) صورة عن الإنسان المؤمن، لهذا وجدناها تنصح ابن الملك (في الليلة الخامسة) بالاستعانة بالله إن كان مظلوماً **"فإنه يكفيك شرّه وشر جميع من تخافه"**

وهكذا لا نجد في الليالي جداراً عازلاً بين عالم الإنس وعالم الجن، بل تنشأ بينهما علاقات طبيعية (زواج، صداقة، أخوة...) وعلى نقيض الصورة المشوّهة للجني في المخيلة الشعبية، نجد الليالي تبرز صورة الجني فاعل الخير، الذي يرأف بالمحبين، ويساعدهم، فيقرّب بينهم حين تتباعد الأقطار

(كما فعل الجني الذي جمع بين قمر الزمان وابنة ملك الصين)

قد نجد صورة المرأة الجنية تتجاوز المألوف، فتقوم ببعض أعمال الرجال كالصيد، فالجنيات السبع يذهبن إلى الصيد، لكنهن يشاركن الإنسية في العجز عن بعض الأعمال، فيطلبن في (الليلة 792) من (حسن) القيام بذبح الحيوان من أجل الطعام!

والمرأة الجنية كالأنسية في حيائها، لهذا ترفض الجنية التي سرق (حسن) ثوبها أن تخرج من الماء عارية، حتى تأتي لها أختها بثوب ترتديه!

لهذا نستطيع القول بأن الليالي متحت من الواقع الإنساني في رسم صورة الجني، وأسقطت عليها مشاعر إنسانية وقيم تنظم الحياة البشرية! لكن روعة الليالي في تلك المزاوجة بين الواقع والخيال، لهذا ظفرنا بصورة واقعية ومتخيلة للآخر الجني!

صورة متخيلة:

يتمتع الجني أو العفريت بقدرات خارقة، تمكنه من تحقيق المعجزات (يبني المنازل والقصور في طرفة عين، وكذلك يأتي بأصناف شتى من الطعام والكنوز في ثانية) فهو

لا يعترف بالمألوف، ولا يهتم بالعقبات التي تشكلها المسافات المكانية أو الزمانية!

إن ما يلفت النظر تسخير هذه الخوارق لنصرة الضعفاء والفقراء من البشر! وبذلك تجسد الليالي الحلم الأبدي في مقاومة الظلم والقهر، لتحقيق عالم أجمل وأكثر عدلاً! خاصة أن الإنسان فيها قد سدت أمامه منافذ العيش الكريم في زمن كثرت فيه المجاعات والحروب! فبات يبحث في الوهم الذي يقدم ملاذاً متخيلاً يعوّضه، وقد لاحظنا المبالغة في التخييل إمعاناً في إيجاد العزاء! إلى درجة رُصدت ملوك الجن لخدمة الإنسان الفقير والمظلوم! لهذا نكاد نفتقد فيها قصصاً خرافية لا صلة لها بأحلام الإنسان وآلامه!

رغم القدرات الخارقة التي يتمتع بها الجن، لا نجد في الليالي إعلاء لشأنهم على حساب الإنس، وكثيراً ما يلاحظ امتلاك أبطال هذه الليالي قدرات وأدواتهم العملاقة، فقد أعطى (مرعش ملك الجن) صديقه الإنسي (غريب) سيفاً (طوله اثني عشر شبراً وعرضه ثلاثة أشبار) لكنه يعبر عن شكه في قدرته عن استخدامه! لهذا يقول له "**إن كنت تقدر أن تضرب به فخذه، فقال غريب: نعم ثم أخذه، فصار بيده**

كالعصا، فتعجب الحاضرون من الإنس، وقالوا أحسنت يا سيد الفرسان." (55)

يشكك الجني بقدرة البطل الإنسي في استخدام سيفه الضخم، لكن البطل يبدد سوء الظن، ويبدد الصورة الدونية التي رسمها له الجني، فيفاجئه بقوته التي تستصغر شأن السيف، فيحمله، كما يحمل العصا! لهذا سيضمن الراوي إعجاب الحاضرين به من الجن والإنس! فتزداد صورة البطل البشري قوة ومضاء في المخيلة! وبذلك ينتصف الراوي للإنسان، ويزيل الحدود الفاصلة بينه وبين الجن، خاصة في مجال اختراقه للمألوف، واجتراحه للمعجزات!

7 - **الآخر الجندري (المرأة)**

حين نتأمل صورة المرأة في "ألف ليلة وليلة" نجدها تتجاوز الإطار السلبي التي وضعها في داخله كثير من الباحثين حين جعلوها نموذجاً حياً **"من المشاعر والرغبات التي سادت في العصر العباسي، والتي جعلت المرأة جسداً يثير الشهوة والبغي، وعنصر دسائس ومكر، لا يؤتمن، ولا يستطيع إنسان الانفكاك من شروره."** (56)

لقد كانت هذه الصورة أسيرة نسق ثقافي، يعلي شأن الذكورة، ويشوّه صورة المرأة، بل يلجأ إلى تغييب صوتها الحقيقي، حتى إننا نكاد نفتقد رسم صورة متوازنة لها، كتلك التي فاز بها الرجل.

ومع ذلك حين نتأمل الليالي، نلاحظ نموذجين للمرأة، الأول: يحمل ملامح إيجابية، بل استثنائية (شهرزاد) يتجاوز الأطر التقليدية، والثاني: يحمل ملامح سلبية! يعزّز صورة مازال يشكّلها النسق الثقافي الاجتماعي للمرأة!

شهرزاد المرأة الاستثنائية:

لم نجد المرأة النمطية في الليالي تلك التابعة للرجل، يفعل بها ما يشاء! فقد رأينا بعض النساء يتجاوزن هذه الصورة للمرأة الشرقية، خاصة الشخصية الرئيسية (شهرزاد) التي تتحول إلى الراوية الأساسية لقصص "ألف ليلة وليلة" لذلك لم تكن فتنتها، هي التي لجمت عدوانية "شهريار" تجاه النساء، أو نسبها ومكانتها الاجتماعية (رغم أنها ابنة وزير) بل ما تملكه من قدرة على الإبداع، الذي يرتكز على المعرفة بأحوال النفس البشرية والثقافات المتنوعة، والحكم المستخلصة ممن أنضجتهم السنون، وبذلك تمكنت عبر فتنة القص من جذبه إلى آفاق إنسانية رحبة، بل يمكننا القول

بأنها أعادت تربيته، فاستطاع أن يرى الآخر بموضوعية، إذ عايش عبر حكاياتها نماذج نسوية خيّرة وأخرى شريرة! مما ألجم الشرّ في داخله، وأنضج نظرته!

لم تعتمد (شهرزاد) في وعظها طرقاً فجة منفِّرة، بل اعتمدت الإدهاش والمتعة، فجذبت الرجل (شهريار) عبر سحر القص إلى رؤية متوازنة، امتزج فيها الخيال بالواقع، فعايش أعماق الإنسان، وما يختلج فيه من مشاعر وأفكار، وما يراوده من أحلام! فأتاحت له فرصة تلمس إنسانية الإنسان، فتعرّف على لحظات قوته ولحظات ضعفه! فأنقذته من عقدة، تدفعه لارتكاب جريمة يومية، مثلما أنقذت نفسها من موت، يتربص بها في ليلة زفافها! لهذا اختارت (الليل) الذي، يتيح لها لقاء الملك، حيث يتفرغ فيها لسماعها بعيداً عن شؤون مملكته، فتلهيه بالقصّ عن قتلها!

تمتعت (شهرزاد) بملامح الشخصية الرسولية، التي تعيش المثل العليا، فهي ترغب في التضحية والفداء من أجل بنات جنسها! لهذا هي من تقترح على والدها الوزير المأزوم (الذي لم يعد يجد في المملكة فتاة تقبل بالزواج من الملك شهريار) أن يزوّجها به، فتكون **"فداء لبنات المسلمين"**

وقد بدت لنا في الليالي راوية بارعة، لا تختم ليلتها وقصتها معاً، بل تترك خاتمة القصة في لحظة مأزومة، تنفتح على عدة احتمالات، فتضمن تشوّق الملك لليلة قادمة؛ مما يتيح لها أن تضمن العيش يوماً آخر! لهذا سلطت الليالي الضوء على الجانب الفريد في شخصية شهرزاد (الراوية المبدعة) وأغفلت الجانب الآخر الذي تشاركها به النساء، فنفاجأ في الخاتمة أنها أصبحت أماً لثلاثة ذكور! إذ نجد (شهريار) في خاتمة الليلة الأخيرة (1001) يخاطبها **"يا شهرزاد، والله إني قد عفوتُ عنك من قبل مجيء هؤلاء الأولاد، ولكوني رأيتك عفيفة تقية حرة نقية..."**

يلفت نظرنا فعل (عفوتُ) كأن انتماء (شهرزاد) إلى جنس النساء ذنب، تُعاقب عليه! والمدهش، هنا، أن العفو قد تمّ لسبب غير تقليدي (إنجاب الذكور في مجتمع يحتفي بهم) فيخالف نسقاً اجتماعياً سائداً! إذ تمّ العفو لسبب آخر غير مألوف (هو ما قدمته له من متعة القص والمعرفة) ولا ينسى أن يبيّن سبباً آخر، تبدى له من خلال المعايشة اليومية، فقد استطاعت أن تغير صورة النساء في ذهنه، فهي، نقيض زوجته السابقة، ملتزمة بأخلاق، تجسّد المثل الأعلى الاجتماعي والديني **"عفيفة، تقية، حرة، نقية"**

إنها صفات ذات دلالة دينية وأخلاقية (**عفيفة، تقية، نقية**) يحتفي بها المجتمع وقد جعلها ملازمة للمرأة الحرة! التي لا يمكن أن تخون زوجها! وترتكب الرذيلة!

وقد توجّه بالشكر إلى والدها معترفاً بفضلها "**زوّجتني ابنتك الكريمة التي كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس.**"

وبذلك تغيرت الصورة النمطية للمرأة، فقد اعترف الرجل (شهريار) بدور المرأة (شهرزاد) في حياته في خاتمة الليالي، إذ استطاعت أن تنقذه من جريمة يومية (قتل بنات الناس) فلا يقرّ بفضل المرأة الاستثنائية فقط، بل يعترف بطريقة غير مباشرة بخطيئته، التي تستدعي التوبة!

إن ما نستغربه هو أن هذه الخاتمة، التي يعترف فيها الرجل بالدور الإيجابي للمرأة في حياته! لم تلقَ صدى لدى المتلقي، فقد بقي أسير النسق الثقافي المهيمن على ذاكرته، الذي يركز الضوء على الصورة السلبية للمرأة! ويتغاضى عن الصورة المشرقة! هنا نتساءل: هل السبب في ذلك أن المرء يبحث عمّا يريحه، أي ما يألفه؟ ألا نجده غالباً ما يبتعد عمّا يقلقه، ويغيّر قناعاته؟

يلاحظ أن "ألف ليلة وليلة" قدمت إلى جانب (شهرزاد) شخصيات نسوية أخرى ذات ملامح إيجابية!

صورة إيجابية (مخلصة، حرة)

عانى (شهريار) من عقدة سببتها الزوجة الخائنة، لهذا قرن الخيانة بجنس النساء، وبات يتخلص من كل امرأة يتزوجها! وقد أتت بعض الليالي رداً على هذا الموقف السلبي، فأعادت الاعتبار للمرأة، لهذا وجدناها مخلصة لزوجها، ترفض خيانته رغم فقرها، وما أُتيح لها من مغريات، حتى إنها في إحدى الليالي من شدة إخلاصها، تصطنع الجنون حتى لا يقربها أحد من الرجال أبداً! بل إن إحداهن (سعاد) تفضل زوجها الفقير على الخليفة والوالي، ففي إحدى الليالي أصاب المحل أعرابياً، عندئذ جاء والد زوجته وأخذها! فاشتكاه إلى الوالي (مروان بن الحكم) فأمر بإحضار الزوجة، ليسمع رأيها، فأُعجب بجمالها، ودفع لوالدها مهراً كبيراً، وأمر الأعرابي بتطليقها، فرفض، فسجنه، وعذّبه حتى طلّقها، فشكاه للخليفة (معاوية) فأتى بها، فأثارت إعجابه! لهذا خيّرها قائلاً: **"من أحبُّ إليكِ أمير المؤمنين في شرفه وعزّه وقصوره وسلطانه وأمواله...؟ أو مروان بن الحكم وعسفه وجوده؟ أو هذا الأعرابي وجوعه وفقره؟ فأنشدت:**

هـــذا وإن كـــان في جـــوعٍ وأضـــرار

أعـــزُّ عنـــدي مـــن قـــومي ومـــن جـــاري

وصـــاحبُ التـــاج أو مـــروان عاملـــه

وكـــل ذي درهـــم عنـــدي ودينـــار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، وإن له صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى، وأنا أحق من صبر معه في الضراء، كما تنعّمت معه في السراء..."(57)

قد تكون هذه القصة من نسج الخيال، لكنها تملك أساساً واقعياً، تستند على أسماء تاريخية (معاوية، مروان بن الحكم) إذ تبدو كأنها مستمدة من سيرة حياة أحد شخصياتها (الخليفة معاوية) فقد تركته زوجته (ميسون بنت بحدل) وفضلت عليه ابن عمها الفقير في البادية! وبذلك تلتقي مع بطلة القصة في الانتماء إلى فضاء واحد (البادية) وفي السمات (الأصالة، عزة النفس، قوة الشخصية، الوفاء لبيئتها التي نشأت فيها...) كما تلتقيان في كونهما نموذجاً للمرأة الحرة التي لا تستعبدها مكانة أو مال! وقد وثّقت عبر الشعر ميسون (كما فعلت بطلة القصة) تجربتها مع الخليفة! تقول فيها:

لبيـــــــت تخفـــــــق الأرواحُ فيـــــــه
أحـــــبُّ إلـــــيّ مـــــن قصـــــر منيـــــف
ولـــــبس عبـــــاءة وتقـــــرَّ عـــــيني
أحـــــبُّ إلـــــيّ مـــــن لـــــبس الشـــــفوف
وخـــــرق مـــــن بـــــني عمـــــي نحيـــــف
أحـــــبّ إلـــــيّ مـــــن علـــــج عليـــــف (58)

تحتقر (ميسون) مظاهر الأبهة المادية التي شوّهت حياتها في قصر الخليفة! لهذا تهرب إلى الخيمة بكل ما تعنيه من بساطة العيش (الملابس البدوية الخشنة) وعلاقات إنسانية، لهذا تفضل ابن عمها النحيل على الخليفة السمين!! فالمهم لديها الإحساس بالحرية الذي لن تشعر به إلا في بيئتها مع رجل، يحترمها، ويشاركها الانتماء نفسه!

تترافق في الليالي حرية المرأة في الاختيار مع حريتها في التعبير عن عواطفها تجاه الرجل، ففي (الليلة 857) ترسل (زين المواصف) لحبيبها (مسرور) رسالة تقول فيها **"أما بعد فقد أقلقني السهر، وزاد بي الفكر، ما لي على بعدك مصطبر، يا من حسنه يفوق الشمس والقمر...فيا بهجة الدنيا وزينة الحياة! هل لمن انقطعت أنفاسه أن يطيب كاسه؟**

فوالله ما لي عنك صبر ولا سلوى." (59)

نقلت لنا هذه الرسالة مشاعرها ووصفت معاناتها من الفراق، كما تغزلت بالحبيب، وطلبت وصاله، وقد تكررت هذه الظاهرة في عدة ليالٍ، وقد وجدنا (ريا بنت الغطريف السليمي) تقول: **"يا عتبة ما تقول في وصل من يطلب وصلك؟"**

نلمس، هنا، جرأة اللغة التي تستخدمها المرأة، ليس في التعبير عن عواطفها فقط، بل في دعوة الحبيب إلى الوصال!

لعل أهم ما يلفت النظر في الليالي ضياع الفرق في الليالي، أحياناً، بين المرأة الجارية والحرة، فنجد (الجارية) تعامل في بعض الليالي معاملة الحرة، فتستشار في شاريها، كأنها تستشار في زوجها! فنجدها ترفض الشيخ مبينة السبب **"أنا ما أباع لهذا الشيخ، فبعني لغيره، لأنه ربما خجل مني، فيبيعني إلى آخر، فأصير ممتهنة"** (60)

إن الجارية المعروضة للبيع تملك زمام مصيرها! بل تفكر بكرامتها، فهي ترفض كأي امرأة حرة أن تتداولها الأيدي، لهذا تخالف أفق توقع المتلقي، فتنتقي شاريها باحثة عمّن يقدرها!

كما نعايش في الليالي مواقف مدهشة للجارية، نسجها الخيال الشعبي، حتى أوصلها إلى درجة اللامعقول، فقد وجدناها في (الليلة 718) تقول لسيدها (اليهودي) الذي اشتراها **"لا أمكنك من نفسي حتى تسلم، فأبى"** وباعها! فقد تصرفت الجارية تصرف امرأة حرة، فهي تطبق الشريعة الإسلامية على سيدها! لهذا امتنعت عن معاشرة غير المسلم!

وفي (الليلة 16) لا تجد المرأة غضاضة في عرض الزواج على الشاب المؤمن، الذي نجا من العقاب! فبقي وحده بعد أن مُسخ سكان مدينته إلى حجارة سوداء، فتعرب عن رغبتها في أن تصبح **جاريته** مع أنها سيدة في قومها!! وبذلك لا تأنف المرأة الحرة عن إعلان عبوديتها للرجل، إن قبل الزواج بها!!! فتخضع صورتها، هنا، للنسق الثقافي المهيمن!

وقد بدت المرأة (الجنية) في "ألف ليلة وليلة" بحياة أكثر حرية من الإنسية، حتى إننا وجدناها تقوم بأعمال لا يقوم بها إلا الرجال في عالم الإنس (كالصيد وعقد القران) وهذا ما فعلته إحدى الجنيات مع حسن حين أراد أن يتزوج بجنية " **عقدت عقدها وصافحها ووضعت يدها في يده وزوّجتها له بإذنها.**"

ومما يلفت الانتباه أن إطلاق لقب (الجارية) على الفتاة الحرة أمر شائع في الليالي، فالملك (جودر في الليلة 632) يتحدث إلى خطيب ابنته قائلا: **"المهر قد وصلني والبنت جارية في خدمتك"** كما وجدنا الراوي يطلق هذا اللقب على الملكة التي تحكم **"فلما كشف الملك اللثام عن وجهه، وإذا هو جارية كالشمس ..ثم قالت اعلم أيها الملك أني ملكة هذه الأرض، وكل هذه العساكر التي رأيتها... فهن نساء...والرجال عندنا يحرثون ويزرعون ..وأما النساء فهن الحكام وأرباب المناصب والعساكر..."** (61)

نعايش في هذه الليلة حلماً، يراود الكثير من النساء، ويعشش في أعماقهن، أن يمتلكن زمام الحكم، ويعمل الرجال تحت إمرتهن!

وبما أن الليالي تنقل لنا صورة مدهشة، لم يعرفها مجتمع "ألف ليلة" فإن (بو علي ياسين" يرى هذه الصورة تناقلتها الأجيال لا شعورياً عن مجتمعات قديمة (متريكية) **"حيث كانت المرأة تأخذ وقتها الدور والمكانة التي يتقلدها حالياً الرجل..."** (62)

والملاحظ أن عرض الملكة الزواج على الشاب لا يحمل قهراً له، أو نظرة دونية، كما يمكن أن يتبادر للذهن! بل

نجد الملكة تجعله شريكاً لها، فتقول له: **"جميع ما نظرته من الخدم والعساكر والمال...تتصرف فيه بحيث تعطي وتهب ما بدا لك."**

لعل أهم سمة للمرأة مجدتها الليالي هي العفاف، وقد لاحظنا في الخاتمة كيف أعجب شهريار بـ(شهرزاد) لكونها جمعت بين الحرية والعفة، التي هي من علامات التقى، فلم تكن عبدة لشهواتها، كما فعلت زوجته السابقة!

حتى حين تحب المرأة (قوت القلوب) نجدها لا تمنح نفسها لمن أحبته (غانم) وأحبها، فهي تضع عذاب الله نصب عينيها، ترفض أن تعاشر رجلاً دون زواج! وقد احترم الحبيب عفافها!

وفي أيام المجاعة نجد المرأة تقاوم الجوع ثلاثة أيام رافضة بيع جسدها، وحين تضعف يتأثر الرجل بموقفها، ويقرر إطعامها لوجه الله تعالى، فلا تجد مكافأة له سوى الدعاء، فترجو الله تعالى أن يحميه من النار في الدنيا والآخرة، لذلك كان يضع يده في النار دون أن تحترق! هنا تتدخل المخيلة الشعبية لتعزّز قيمة العفاف وضرورة صونه، فتبالغ في رسم صورة المرأة العفيفة حتى تتحول إلى قديسة يُستجاب دعاؤها!

نفاجأ أن "ألف ليلة وليلة" جسدت لنا صورة للمرأة، تتجاوز النمطية، التي ألصقها النسق الثقافي الاجتماعي في

ذاكرة المتلقي! فكانت فارسة في الحرب، تتحلّى بالشجاعة في قتال الأعداء، فهي، هنا، استمرار للمرأة المسلمة التي دافعت عن الرسول (ص) في أحد (نسيبة بنت كعب المازينية) وغيرها (غزالة الحرورية، أم حكيم...) وقد وجدنا في الليالي ابنة أحد الملوك تغلب أعتى الفرسان، لكن حين أحست أن أحدهم (بهرام ابن ملك الفرس) سيغلبها، لجأت إلى سلاح الأنوثة، فتكشف عن وجهها الجميل، عندئذ يضعف، فتنتصر عليه!

ما يسجل لليالي أنها قدّمت صورة مشرقة للمرأة الإفرنجية (خاصة الملكة) التي تبدو نداً للرجل في شجاعتها، بل نجد مشاهد تتفوق عليه، فقد قتلت (مريم الزنارية ابنة ملك الإفرنج) رئيس المراكب، الذي أراد منعها من اللحاق بحبيبها، لم تكتف بقتله، بل سلخت وجهه مع لحيته، وركّبته على وجهها، وحين يخالفها البحارة، تقتل عشرة منهم!! كما حصل في (الليلة 884) فهي كما يصفها الراوي **"قوية القلب، تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح، وتعرف الأهواء كلها واختلافها، وتعرف جميع طرق البحر"**(63)

لم تكن هذه الصورة للملكة الإفرنجية (مريم) من نسج الخيال، بل كانت على صلة بالواقع، فقد وصف العماد الأصفهاني (أحد معاصري الحروب الصليبية) شجاعتها، فهي قائدة، تصل عبر البحر مثل مريم، فهي "**امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفر، وهي في بلدها مالكة الأمر، وفي جملتها خمسمئة فارس..وهم يركبون بركابها، ويحملون لحملاتها...**" (64)

ولو قارنا شخصيتها بشخصية الحبيب (علي نور الدين) الذي يبدو هزيل الملامح والأفعال أمامها، فقد سخّرت شجاعتها ومعارفها من أجل الظفر به، في حين لم نجده يتقن شيئاً سوى قول الشعر!!

يلاحظ المتأمل في الليالي أيضاً الاحتفاء بتعليم الجارية، فقد كان من أسباب غلاء سعرها إتقانها للمعارف والفنون! لكن ما يثير استغرابنا أن تتفوق (الجارية تودد) في مجلس هارون، ليس في مجال تبرع فيه القيان (الموسيقى والغناء) بل تخالف أفق توقع المتلقي العربي، فتتفوق، أثناء المناظرة العلمية، على النخبة من أبناء عصرها، بينهم فقهاء وعلماء وأطباء وفلكيون، كأن الراوي يريد أن يخلخل الصورة

المألوفة للمرأة، فيعري غرور الرجل، ويزري بمعارفه، بعد أن أفحمته جارية، وتفوقت عليه في ميدانه نفسه!!!

ثمة تعاطف مع الجارية في الليالي، لهذا لم تسجن في قفص الدونية الطبقية، فهي تقفز إلى أعلى رتبة تصلها المرأة (الملكة الحاكمة) كما حصل لجارية (علي شار)

لكننا في ليلة أخرى نظفر بامرأة حرة تدعى (سيدة المشايخ) تنتقل من أجل العلم والوعظ من بغداد إلى حماة! وكان يتردد على منزلها من **"المتفقهين وذوي المعارف والآداب، يطارحونها مسائل الفقه، ويناظرونها في الخلاف."** (65)

وقد انتبه مؤلفو الليالي إلى جماليات الاسم، فمُنحت المرأة أسماء ذات دلالة إيجابية (سيدة المشايخ) (حياة النفوس) (قوت القلوب) (قرّة العين)...إلخ وهي أسماء تنبئ عن المكانة التي احتلتها سواء في السياسة وفي المجالس العلمية أم في القلوب! خاصة أن المرأة في العصر الذي من المرجح أنه كتبت فيه الليالي احتلت مكانة رفيعة، ففي مصر وصلت المرأة إلى الحكم (ست الملك التي استلمت الحكم أربع سنوات بحجة الوصاية على ابن أخيها، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله ، وفي عصر المماليك نجد شجرة الدر التي استلمت الحكم إثر وفاة زوجها نجم الدين أيوب) يوظّف الاسم أيضاً للدلالة على

انتمائها للدين المسيحي (مريم الزنارية) أو الآخر الإفرنجي (إبريزة)

إنّ هذه الصورة الإيجابية للمرأة، نالت التهميش ليس فقط لدى المتلقي العادي، بل لدى بعض الباحثين أيضاً، فوجدنا رولا خوري ترى أن المرأة في الليالي قدمت بطريقة تناقض الرجل الذي يجسد (العقل والنظام والانضباط والله) في حين وضعت المرأة في إطار الرغبة والفوضى والتسيب والشيطان! (66)

صورة سلبية (خائنة، محتالة، عبدة)

إلى جانب تلك الصورة المدهشة، التي تتجاوز الإطار المألوف، الذي قد تحشر فيه المرأة، فتكسر الإطار النمطي، الذي كبّل حياتها، وحاصرها بنظرة دونية، وصلت حدّ منعها من تلقي القصص الجيدة! فمثلاً اشترط الراوي (الحكواتي) على الشاب أن يختار المتلقي من الصفوة، فلا يقرأ القصة التي يرويها له **"على قارعة الطريق ولا عند النساء والجواري ولا عند العبيد والسفهاء ولا عند الصبيان، وإنما يقرؤها عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة..."** (67)

يستجيب الراوي هنا لنسق ثقافي واجتماعي، يضع النساء في أدنى مرتبة، أي في مصاف العبيد والسفهاء والصبيان، وقد ألمح الراوي إلى مبرر تلك المرتبة، فهي تعيش في عالم معزول، لا علاقة لها بالمعرفة والحكمة، لهذا لن تقدر قيمة قصة تعتمد عليهما في خطابها!!

وقد أفصحت لنا الليالي عن طبيعة الحياة، التي عاشتها المرأة والمقولات الاجتماعية التي مازالت تحكم حياتها إلى اليوم في بعض البيئات المتخلفة، ففي (الليلة 747) يقول الحكيم: **"لا بد للبنت من الزواج أو القبر"** وهكذا قيدتها هذه المقولة في سجن القبر أو المنزل، وعزلتها عن الحياة العامة، لهذا لن نستغرب فساد رأيها؛ مما يعزّز صورتها الدونية!! ففي الليلة (920) نجد مثالاً حياً لجهل المرأة في الأمور العامة! ورعونة رأيها! فقد أشرفت المملكة على الدمار! حين استجاب الملك لرأي زوجته! ورفض الإصغاء لوزيره الحكيم، مما أسهم في نفور المتلقي من المرأة! في حين أعاد الراوي الاعتبار للرجل (ابن الوزير) الذي أنقذ المملكة!

يلح المؤلف على هذه الفكرة، فنجده ينصح المتلقي في خاتمة تلك الليلة بحكمة استخلصها من تجربة هذا الملك **"ليس ينبغي للرجل أن يسمع من امرأة كلاماً، ولا يطيعها في**

أمر، ولا يقبل لها رأياً في مشورة، فإياك أن تلبس ثوب الجهل بعد الحكمة والعلم!..." (68)

تبدو النصيحة شاملة مانعة! مستقاة من النسق الثقافي العربي، الذي يرى كل ما يصدر عن المرأة من كلام أو رأي أو مشورة هو جهل يضيّع الرجل! وقد بلغ التحيز الجنسي مداه ضد المرأة حين ألبسها الراوي ثوب الجهل، وأسبغ على الرجل ثوب الحكمة!! لهذا استحقت تلك المنزلة المتدنية، ليس فقط على صعيد نظري، بل على صعيد عملي، فقد حضّ أحد الوزراء ملكه بأن يجعل نساءه اللواتي أسأن النصح **"بمنزلة الخدم."**

لمسنا في الليالي، أحياناً، لغة التعميم، إذ نجد الجهل وقلة العقل يلازمان المرأة في أية طبقة اجتماعية كانت، فيعاني منها الرجل سواء أكان ملكاً في أعلى السلم الاجتماعي أم في أدناه، فقد وجدنا طحاناً يأتمن زوجته على سرّه، فتفشيه لجاره، الذي يأخذ الكنز، ويقتلها، وحين يجفل الحمار لرؤية جثتها، يضطر لقتله، فيخسر الطحان كل ما يملك بسبب زوجته!!

يردّ الراوي فساد رأي المرأة في (الليلة 924) إلى عوامل أسطورية، تعود إلى بداية الخليقة، فالمرأة هي التي أوقعت

(آدم) بالخطيئة، وأخرجته من الجنة، فوجدنا الرجل يلوم نفسه لأنه نسي تلك الحادثة، هنا نجد أثر الإسرائيليات، التي تغلغت في الموروث الإسلامي، فأثّرت في شيوع النظرة الدونية للمرأة، لكونها سبباً في خروج آدم من الجنة، وهذا نقيض لما نجده في النص القرآني، الذي هو دستور المسلمين، إذ يتحمل عبء هذه الخطيئة كل من الرجل والمرأة **"فوسوس لهما الشيطان..."**(سورة الأعراف، آية 20)

وضعت المرأة في الليالي، في معظم الأحيان، في دائرة الاتهام، فهي المسؤولية عن الانحراف الديني والخلقي، في حين يبدو الرجل بريئاً! ففي (الليلة 928) يسأل الملك وزيره عن أصل المعاصي يجيبه: **"اتباع هوى النساء، والميل إليهن، والقبول برأيهن وتدبيرهن، لأن محبتهن تغير العقول الصافية، وتفسد الطباع السليمة..."**

يبدو، هنا، التحامل على المرأة واضحاً، حتى عاطفة الحب، التي ترقى عادة بالإنسان وتزيده صفاءً، باتت تحرّف العقل وتفسد الطبيعة الإنسانية!! لهذا تردّد فيها أنها **"أصل كل شر"** ولا يطيعها إلا جاهل! ومثل هذه النظرة شكلت جزءاً من النسق الثقافي، حتى إننا وجدنا قولاً، قد يُنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) في "نهج البلاغة"

"المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنها لا بد منها." (69)

يلاحظ تكرار المقولات التي تشوّه صورة المرأة، التي ربما قيلت في سياق خاص (وقعة الجمل) وإهمال تلك التي تعطي صورة إيجابية، فلم نجد هذا النسق الثقافي يلتفت مثلاً إلى قول الإمام في زوجته: **" ولقد كنت أنظر إلى وجهها فتتجلي عني الغموم والأحزان. ...فوالله ما أغضبتها ولا أكربتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل..."**(70) لهذا يرسخ في الذهن أن الموروث الإسلامي (الليالي وغيرها) احتقر المرأة، وينظر إليها نظرة دونية!

إذاً لا نستطيع أن نقول بهيمنة تلك النظرة على الليالي، فقد أثبتت المرأة وجودها بكل الوسائل، وأثّرت في حياة الملوك، وغيّرت مجرى الأحداث لصالحها! سواء أكانت خيّرة (شهرزاد، قوت القلوب، إبريزة) أم محتالة (شواهي ذات الدواهي) التي استطاعت أن تخدع الملك النعمان بالجواري المتدينات الفقيهات، وتنتقم لمقتل (إبريزة)! فهي ترتكب كل المعاصي من أجل ثأرها! فالغاية تبرر الوسيلة لديها! وقد يعترض أحدهم أن (شواهي) تنتمي إلى بيئة الآخر (فهي أم ملك الروم) لا علاقة لها بالنسق الثقافي، لكننا وجدنا امرأة تنتمي للبيئة العربية (دليلة المحتالة) تتمكن من تجاوز الأطر

التقليدية، التي حاصرتها! وترفض النظرة الدونية لها، وتعلن رغبتها في أن تكون نداً للرجل، فتقول (في الليلة 708) "**سمعتُ بمناصف أحمد الدنف وحسن شومان، فقلتُ أنا الأخرى أعمل مثلهما.**" فهي تريد أن تنافس أعتى رجال الدولة، وترتب لهم المقالب، كي تحوز على المكاسب نفسها، التي ينالها الرجل بفضل شطارته من الخليفة!

سنجد أيضاً صورة المرأة الجشعة، التي هي نقيض للمرأة التي وجدناها، سابقاً، ترفض الخليفة من أجل رجل فقير أحبته! فقد استغفلت في (ليلة 974) زوجها (الجوهري) الذي يثق بها ثقة مطلقة، وقد رسم المؤلف الرجل، على نقيض المرأة، في صورة البراءة المطلقة، لم يسمع عن كيد النساء، لهذا تنطلي عليه خدع زوجته، فتتمكن من الهرب مع حبيبها إلى مصر، لكن الضمير الديني، الذي يؤسس قيم الحياة في المجتمع، يتدخل ليعاقب تلك المرأة الخائنة، إذ يهجرها الحبيب، ويتزوج من فتاة مصون من بلده! ويكافئ زوجها بامرأة صالحة!

يتكرر في الليالي رسم صورة المرأة الخائنة، فتقدّم للمتلقي عبدة لشهواتها، سواء أكان رجلها إنسياً أم جنياً!! ومما يلفت النظر أن الراوي لم يعرّفنا بالظروف التي دفعت

المرأة للخيانة إلا نادراً! فمثلاً اختطف جني فتاة ليلة زفافها من ابن عمها، الذي تحبه، لهذا تنتقم منه، فتخونه، حين تنام، مع أي رجل تصادفه! لعل الغاية من هذه الصورة السلبية حرمانها من فرصة تعاطف المتلقي معها!

وقد لاحظنا في الليالي ثمة نظرة للمرأة والرجل تقترب من الموضوعية، لذلك حين أراد الملك معاقبة النساء اللواتي كن السبب في إغراقه في المتعة وقتل وزرائه وحكمائه، قال له وزيره: "**الذنب ليس مختصاً بالنساء وحدهن، بل هو مشترك بينهن وبين الرجال الذين يطيعونهن...**" (71)

إن هذه النظرة المتوازنة للمرأة، قرّبت الليالي من نبض الواقع، لهذا لم تحشر في صورة واحدة سلبية، فلم تحمّل وحدها مسؤولية فساد المملكة، وفي ليلة أخرى، يتاح للمرأة سماع صوتها الخاص، فتردّ على الوزير الذي يقدّم للملك قصة تبرز كيد النساء، فتردّ عليه مدافعة عن بنات جنسها بقصة عن كيد الرجال، وقد استمر السجال بينهما، كل يدافع عن وجهة نظره، فنجد أنفسنا أمام مناظرة قصصية، استمرت عدة ليالٍ (من 578 -605) نجد فيها الرجل ينتصر للرجال، والمرأة للنساء! حتى يصل المتلقي إلى نتيجة أن الكيد والدهاء لدى الرجال والنساء معاً.

و هكذا قدّمت الليالي صورة الإنسان عبر ثنائية المرأة والرجل، لهذا نجد زوجة السلطان الخائنة العاصية، تعاني من قسوته وفقدانه للثقة بالمرأة، في حين كانت الوفية والمطيعة زوجة لسلطان حليم وعطوف واثق من عفافها! (72)

خاتمة: جماليات الصورة

تكمن جماليات الصورة في "ألف ليلة وليلة" في تعددها، فلم نجدها تتسم بالسكون، وإنما ثمة ما يفاجئ المتلقي، فيخلخل معارفه، ويغير الصورة النمطية التي كوّنها عبر أوهامه الثقافية والاجتماعية!

وقد بدت لنا الصورة التي تجسد العلاقة مع الآخر المختلف أقرب إلى الموضوعية حين تبدو متأثرة بالمعايشة اليومية، لكن حين تُرسم سريعاً، يغلّفها الرعب والشر! من هنا يبدو لنا التطور في العلاقات الإنسانية وإزالة سوء التفاهم محكوم بالمعرفة واقتراب الإنسان من أخيه الإنسان!

أسهمت اللغة في منح الصورة حيوية وغنى، واستطاعت أن توحي لنا بالبيئة الثقافية التي ينتمي إليها البطل والعصر، الذي يعيش فيه، لهذا يقول رستم لغريب في الليلة (167) "**باركت النار فيك...**" وحين يعرض عليه الإيمان، يسأله كيف؟ فيجيبه بأن تقول: **لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله.**"

ورغم تأثر الليالي بما قدمته الحضارات الإنسانية جميعاً، فإن أثر الحضارة الإسلامية كان الأبرز، فقد تجلّى في لغتها، وسيطرة مفاهيم بيئتها على تفاصيل الحياة اليومية، وسلوك الإنسان!

وقد تأثرت صورة الآخر بالمعتقد الديني، فكلما كان الآخر قريباً من قيم الإسلام، كانت صورته إيجابية، لذلك كان التشوّه من نصيب الكافر سواء أكان إنسياً أم جنياً! فقد بدا لنا في الليالي عالم الجن أقرب إلى عالم الإنس!

لمسنا تشوّهاً لصورة الآخر الزنجي، تنمّ عن نظرة استعلائية، فألحقت به كل الصفات السيئة سواء أكانت جسدية أم معنوية!!! فتبدّى الخضوع للنسق الاجتماعي بكل إكراهاته وتحيّزاته، وذلك على حساب النسق الديني.

لاحظنا وجود ملامح صورة موضوعية للمرأة، لم تبقَ في ذاكرة المتلقي العربي والغربي معاً، فقد طغت الملامح السلبية (الخائنة، العبدة لشهواتها، المحتالة...) على الإيجابية التي جسدتها شهرزاد وغيرها (المخلصة، الحكيمة، الشجاعة...)

كما يبدو أن العلاقة بين الرجل والمرأة خضعت للتطور الزمني وللعلاقات الإنسانية مع الآخر، فلم نعد نجد حرمان العاشق من الزواج بحبيبته، كما حصل للعذريين العرب، فقد

تغيّرت القيم ، وبات أهل المعشوقة، يمدون يد العون له، كما حصل لإبراهيم بن المهدي، فقد جهزها أهلها وقدّموها له!

إن هيمنة النسق الثقافي بما فيه من تحيز جنسي وعرقي، الذي رأيناه في الليالي، مازلنا نعيشه إلى اليوم، كما أن طغيان الصورة السلبية على الإيجابية في تقديم الآخر، أو فهمه، مازال يهيمن على العقول والمخيلة! التي يحكمها العرف الاجتماعي أكثر من المعتقد الديني!!

أدهشتنا الروح الإنسانية، أحياناً، لذلك لم تبدُ صورة الآخر محنطة باهتة، بل حيوية، تزخر بالقيم العليا، التي تجسد روح الإسلام!

لذلك ليس غريباً أن تصبح "ألف ليلة وليلة" منبعاً خيالياً لروايات ما بعد الحداثة، فهي أسطورة الأساطير، وتاريخ السرد وفاعلية الحكي (73)

الحواشي

1. تأليف عدد من المقارنين الفرنسيين بإشراف بيير برونيل، وإيف شفريل "الوجيز في الأدب المقارن" ترجمة د. غسان السيد، ط1، 1999، ص147، بتصرف
2. "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول ، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، ص12، بتصرف
3. حسن حميد "ألف ليلة وليلة: غيبوبة القص..غيبوبة الاستماع" المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، ط1، 2006، ص148، بتصرف
4. ابن النديم "الفهرست" المقالة الثامنة، تحقيق شعبان خليفة، وليد محمد العوزة، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.ص609
5. جبرا إبراهيم جبرا "ينابيع الرؤيا" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1978، ص70، بتصرف
6. د. مصطفى حجازي "علم النفس والعولمة" شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص42، بتصرف

7. د. علاء عبد الهادي، مجلة عالم الفكر، مجلد 36، (يوليو سبتمر)، 2007، ص 282، بتصرف
8. "ألف ليلة وليلة" الجزء الثاني ، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، الليلة (869) ص456، بتصرف.
9. Andre Miquel "Les dames de Bagdad, conte des mille et une nuits' presentation par Claue Bremond. Editions Desjonqueres, Paris, 1991, p143
10. جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، ط1، 1999، ص9، بتصرف.
11. المصدر السابق، الليلة (666) ص165
12. من أجل تفاصيل راجع د. ماجدة حمود "مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000، ص135
13. "ألف ليلة وليلة" الجزء الثاني، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، الليلة (664) ص716
14. "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (635) ص129
15. "ألف ليلة وليلة"الجزء الأول، دار صادر، طبعة أصلية

وكاملة، بيروت، دون تاريخ، ص645

16. المصدر السابق، ج1، الليلة (305) ص538 -539

17. المصدر السابق نفسه، ص44

18. المصدر السابق نفسه، الليلة (391) ص643

19. "ألف ليلة وليلة" ج2، ص6

20. "ألف ليلة وليلة" ج1، الليلة (314) ص550

21. المصدر السابق، الليلة (268) ص495

22. "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (893) ص496

23. أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار" مذكرات دقق نصوصها وفصّل فقرها وقدّم لها وعلّق عليها د. عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، ط2، 2003

24. "ألف ليلة وليلة" ج1، (الليلة 102) ص252

25. انظر مثلا "البصائر والذخائر، المجلد الثالث" لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، د، ت

26. Thirry Hentsch "L, orient imaginaire: La vision politique occidentale de l,est mediterraneen" arguments les editions de minuit, Paris, 1988, p103-104

27. بوعلي ياسين "خير الزاد في حكايا شهرزاد" دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1986، ص215
28. "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول ، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، الليلة (394) ص645 - 646
29. الكتاب المقدس، الإصحاح الأول (دانيال) ص1261، طبعة خاصة، 1996
30. "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول، الليلة (473) ص724
31. "ألف ليلة وليلة" المجلد الثاني، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، ص742
32. أ.ل. رانيلا "الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبية الغربية" ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ك2، 1999، ص57
33. د. جمال شاكر البدري "اليهود وألف ليلة وليلة" دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2007، ص90
34. القرآن الكريم سورة (ص) آية رقم (35) وردت في "ألف ليلة وليلة" ص742
35. "اليهود وألف ليلة وليلة" ص72، بتصرف

36. د. جمال شاكر البدري "اليهود وألف ليلة وليلة" ص82 - 84، بتصرف
37. "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول، ص12
38. :www.arabiyat.com/magazine/publish/article
39. فاطمة المرنيسي "سلطانات منسيات" ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000، ص212
40. "اليهود وألف ليلة وليلة" ص59
41. المرجع السابق، ص117
42. "ألف ليلة وليلة" الليلة (505) ص700
43. المصدر السابق، الليلة (703) ص58، بتصرف
44. ألف ليلة وليلة (الليلة 834) ص396
45. عبد الله إبراهيم "المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال العصور الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2001، ص40
46. الليلة (486) ص740
47. "ألف ليلة وليلة" ج1، (الليلة 37) ص148
48. المصدر السابق (الليلة 7) ص31
49. المصدر السابق نفسه (الليلة 39) ص151

50. مصدر السابق نفسه، ج2، ص13

51. المنصف بن حسن "العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة" سراس للنشر، ط1، تونس، 1994، ص88

52. من أجل التفاصيل انظر "الإسلام وحقوق الإنسان" د. محمد عمارة، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ع (89) أيار، 1985، ص21

53. نادر كاظم "تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 2004

54. "ألف ليلة وليلة" ج1، ص535

55. "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (653) ص153

56. د. فاضل الأنصاري "العبودية: الرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي" دار الأهالي، دمشق، ط1، 2001، ص404

57. المصدر السابق، (الليلة 693) ص197

58. عبد القادر بن عمر البغدادي "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" ج8، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط1، 1981 ص503 - 504

59. المصدر السابق، الليلة (857) ص431 -432

60. المصدر السابق نفسه، الليلة (871) ص460

61. نفسه، الليلة (590) ص72

62. بو علي ياسين "خير الزاد في حكايا شهرزاد" دار الحوار اللاذقية" ط1، 1986، ص106 -107

63. نفسه، (الليلة 884) ص482

64. العماد الأصفهاني "الفتح القسي في الفتح القدسي" تحقيق محمود محمد صبح، الدار القومية للطباعة، القاهرة، القاهرة، د. ت، ص349

65. "ألف ليلة وليلة" ج1، (الليلة 419) ص672

66. Rolla Khoury "La femme dans les mille et une nuits, son image et son statut" these pour le doctort de 3e cycle, sous la direction de messieurs les professeurs Jean Levvaillannt et Andre Miquel. Paris 1985, p64

67. "ألف ليلة وليلة" ج2، (الليلة 757) ص290

68. المصدر السابق (الليلة 923) ص534

69. الإمام علي بن أبي طالب "نهج البلاغة" ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب، شرح

محمد عبده، ج4، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص53

70. الخوازرمي "المناقب" دار النشر الإسلامي، بيروت، دون تاريخ، ص353

71. المصدر السابق نفسه، (الليلة 930) ص551

72. د. عبد الحميد بورايو "التحليل السيميائي للخطاب السردي" منشورات مخبر "عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر" دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2003، ص25، بتصرف

73. Freial Ghzoul "les mille et une nuits en partage" sous la direction d,Aboubakr Chaibi, Sindbad,Actes, Paris,2004, p166

المصادر والمراجع

المصادر:

- "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول ، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ
- "ألف ليلة وليلة" الجزء الثاني ، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ

المراجع:

1. ابن النديم "الفهرست" المقالة الثامنة، تحقيق شعبان خليفة، وليد محمد العوزة، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت
2. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر، المجلد الثالث" تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، د، ت
3. أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار" مذكرات دقق نصوصها وفصّل فقرها وقدّم لها وعلّق عليها د. عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، ط2، 2003

4. أ. ل. رانيلا "الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبية الغربية" ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ك2، 1999
5. بو علي ياسين "خير الزاد في حكايا شهرزاد" دار الحوار اللاذقية" ط1، 1986
6. جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، ط1، 1999، ص9
7. جبرا إبراهيم جبرا "ينابيع الرؤيا" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1978
8. د. جمال شاكر البدري "اليهود وألف ليلة وليلة" دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2007
9. حسن حميد "ألف ليلة وليلة: غيبوبة القص..غيبوبة الاستماع" المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، ط1، 2006
10. الإمام علي بن أبي طالب "نهج البلاغة" ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب،

شـرح محمـد عبـده، ج4، دار المعرفـة، بـيروت، د. ت، ص53

11. الخوازرمي "المناقب" دار النشر الإسـلامي، بيروت، دون تاريخ، ص353

12. د. عبـد الحميـد بورايـو "التحليـل السـيميائي للخطـاب السـردي" منشـورات مخـبر "عـادات وأشـكال التعـبير الشـعبي بـالجزائر" دار الغـرب للنشـر والتوزيـع، وهـران، ط1، 2003، ص25، بتصرف

13. عبـد القـادر بـن عمـر البغـدادي "خزانـة الأدب ولـب لبـاب لسـان العـرب" ج8، تحقيـق وشـرح عبـد السـلام هـارون، مكتبة الخانجي، ط1، 1981

14. عبد الله إبراهيم "المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيـال الإسـلامي خـلال العصـور الوسـطى، المركـز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2001،

15. عدد من المقارنين الفرنسيين بإشراف بيير برونيل، وإيف شـفريل "الـوجيز في الأدب المقـارن" ترجمـة د. غسـان السيد، ط1، 1999

16. العمـاد الأصـفهاني "الفـتح القسـي في الفـتح القدسـي"

تحقيق محمود محمد صبح، الدار القومية للطباعة، القاهرة، القاهرة، د. ت

17. د. فاضل الأنصاري "العبودية: الرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي" دار الأهالي، دمشق، ط1، 2001

18. فاطمة المرنيسي "سلطانات منسيات" ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000

19. الكتاب المقدس، الإصحاح الأول (دانيال) ص1261، طبعة خاصة، 1996

20. د. محمد عمارة"الإسلام وحقوق الإنسان" سلسلة عالم المعرفة الكويتية ع (89) أيار، 1985

21. د. مصطفى حجازي "علم النفس والعولمة" شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2001

22. المنصف بن حسن "العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة" سراس للنشر، ط1، تونس، 1994

الدوريات

د. علاء عبد الهادي، مجلة عالم الفكر، مجلد 36، (يوليو سبتمر)، 2007

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Andre Miquel "Les dames de Bagdad, conte des mille et une nuits' presentation par Claue Bremond. Editions

Desjonqueres, Paris, 1991

2. Thirry Hentsch "L, orient imaginaire: La vision politique occidentale de l,est mediterraneen" arguments les editions de minuit, Paris, 1988
3. Rolla Khoury "La femme dans les mille et une nuits, son image et son statut" these pour le doctort de 3e cycle, sous la direction de messieurs les professeurs Jean Levvaillannt et Andre Miquel. Paris 1985,
4. Freial Ghzoul "les mille et une nuits en partage" sous la direction d,Aboubak Chaibi, I Sindbad,Actes, Paris,2004,

خاتمة الكتاب

تبدو لنا دراسة صورة الآخر من أهم العوامل التي تسهم في إغناء شخصية الإنسان، فيزداد فهماً لذاته وللآخر معاً، كما تستطيع أن تسهم في توسيع أفق الإبداع والتفكير والحلم، مما يجعل منظومة المفاهيم التي يتبناها الإنسان أقل صلابة، وأكثر تطوراً وحيوية، مما يؤدي إلى نضج الشخصية الفردية على المستوى الإنساني والمعرفي، فيتم التعرف على الذات والآخر في الوقت نفسه، هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي فتفيد دراسة صورة الآخر في تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر، وفهم وتحليل أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه، فتعرّي كلاً من الذات والآخر معاً، إذ تُكتشف الصورة المغلوطة المكونة عن الشعوب الأخرى، مما يسهم في إزالة سوء التفاهم، الذي ينزع إلى إعلاء شأن (الأنا) وتحقير الآخر، فتؤسس علاقات معافاة من الأوهام، التي هي نتيجة للتشويه السلبي أو الإيجابي لصورة الآخر، وبذلك تسهم

المعرفة في تغيير هذه الصورة، وإسباغ رؤية موضوعية على الذات والآخر معاً، وهذا ما عايشناه في "بخلاء" الجاحظ، الذي رصد عادة مستهجنة في المجتمع العربي وغير العربي، فرسمها بأسلوب حضاري، لا يفرق بين عربي وأعجمي، كما لاحظنا في كتاب "البيان والتبيين" أنه لم يقصرِ الفصاحة على اللغة العربية فقط! وبذلك أسّس لرؤية موضوعية في تقديم صورة الآخر، دون أن تعرف استعلاء أو عنصرية، فلم يستثنِ أحداً من هذه العادة المستهجنة، كما ألمح إلى لحظات أشرق فيها مع الآخر التفاهم، وأخرى سادها سوء التفاهم، مما يوحي للمتلقي بأنه بات شريكاً حضارياً، يسهم معه في إغناء الحياة الإنسانية.

وهذا ما عايشنا في "عيون الأخبار" لابن قتيبة في مجال آخر، هو العلاقات الاجتماعية والقبلية، فقد نظر إليه بعين العدل، فرسم مشاهد الانفتاح على الآخر، خاصة حين يملأ الإيمان قلب المسلم، مثلما رسم مشاهد التعصب أعمى، حين تتغلب العصبية القبلية على إيمانه، وبذلك عرّفنا على صور إيجابية للذات وللآخر إلى جانب السلبية.

أما أبو حيان التوحيدي (فيلسوف الأدباء) فقد كان من أبرز ممثلي ثقافة القرن الرابع الهجري بكل انفتاحه

الحضاري، وعايشنا في كتبه معاناة مثقف حر، لا يهادن السلطة، التي جسّدت آخر، فعانى أزمات معيشية وفكرية، ورأى الخلاص في إعلاء شأن الحوار مع الآخر، ومع الذات، لهذا يعدّ من أوائل المثقفين الإسلاميين، الذين امتلكوا جرأة نقد الذات، خاصة حين تبتعد عن الموضوعية؛ فبيّن في "مثالب الوزيرين" معاناته من وزراء أهانوه، فردّ عليهم بلغة الأدب بما ينصفه، ويثأر له، لكنه رغم ذلك قدّم في "الإمتاع والمؤانسة" مشاهد حوارية، تؤسس لثقافة تحترم الاختلاف، فتتيح للآخر فرصة الدفاع عن وجهة نظره! وتردّ عليه بطريقة عقلانية متزّنة، لا نلمح فيها نبرة استعلاء عليه! لهذا لن نستغرب ابتكاره مصطلح "العصبية الإنسانية" الذي يجسد روح الحضارة الإسلامية، حين كانت، في عصره، تعيش أوج ازدهارها الثقافي، لا السياسي.

أما"كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ فيعدّ أقرب إلى السيرة الذاتية، التي تحولت إلى سيرة جمعية للأمة، فاندمجت فيها (الأنا) بـ(النحن) لهذا عايشنا روح الأمة في لحظة نادرة من التاريخ! كبونا فيها واستولى الصليبيون على كثير من المدن الإسلامية، لكن الأنا الحضارية، لم تستسلم للضعف ولمشاعر الكراهية في التعامل مع الآخر المعتدي! فاستطاعت

أن تقيم معه علاقة إنسانية في فترات السلم! لعل أحد تجلياتها التبادل اللغوي بين اللغة العربية والإفرنجية، مثلما استعار الآخر بعض العادات الاجتماعية نتيجة المعايشة اليومية للذات الإسلامية!

ينفرد كتاب "ألف ليلة وليلة" في معاناته من قلق الانتساب إلى الثقافة الإسلامية، إذ ثمة من ينسبه للحضارة الفارسية أو الهندية، لكنني لاحظت، بناء على دراسة لغة هذا الكتاب وسياقه الثقافي، أنه ابن الحضارة الإسلامية، بكل ما تعنيه من انفتاح على الحضارات الأخرى، الذي هو نتيجة احتفائها بالواقع، فقد عايشه المتلقي عبر لوحات قصصية، تجسد فيها التعامل مع الآخر الديني (المسيحي، اليهودي) والآخر العرقي (الفارسي والهندي واليوناني) والآخر المختلف في المرتبة الاجتماعية (العبد) وقد توقفت عند صورة المرأة (الآخر الجنسي) فقدّمت نماذج مدهشة للمرأة الحرة (المقاتلة، العالمة، المضحية....) يكفي نموذج شهرزاد التي استطاعت إنقاذ بنات جنسها بفضل ما تمتلك من موهبة السرد، التي تنبض بالحكمة وفهم النفس البشرية، كل ذلك كان نتيجة المخيلة الإنسانية المبدعة، التي تنتصر للإنسان الفاعل والمؤمن، الذي لا يسمح لليأس بالهيمنة عليه.

استطاع الليالي أن تقدم مشاهد للانفتاح والحرية الدينية، رغم تأثرها، أحياناً، في رسم صورة الآخر بالسياق الديني والتاريخي (فترة الحروب الصليبية) لهذا بدا لنا الآخر كلما كان قريباً من قيم الإسلام، كانت صورته إيجابية، لذلك كان التشوّه من نصيب الكافر سواء أكان إنسياً أم جنياً!

إذاً تكمن جماليات الصورة في "ألف ليلة وليلة" في كونها أرّخت لروح الحضارة الإسلامية عبر مشاهد يومية متعددة، ابتعدت عن النظرة السكونية، إذ كثيراً ما فاجأت المتلقي، وخلخلت معارفه، وغيّرت بالتالي بعض الصور النمطية التي كوّنها عبر أوهامه الاجتماعية والثقافية! فقد اقتربت من روح الشعب البسيط قدر اقترابها من النخبة، فجسدت لنا العلاقات الإنسانية بكل حيويتها وغرائبيتها! فأدركنا بفضلها أن إزالة سوء التفاهم محكوم بالمعرفة واقتراب الإنسان من أخيه الإنسان!

المحتوى

مقدمة الطبعة الثانية 5
تمهيد 7
المقدمة.....11
تعريف بمصطلح دراسة الصورة الأدبية (الصورولوجيا) 11
صورة الآخر في "كتاب البخلاء" للجاحظ.....15
صورة الآخر لدى ابن قتيبة.....51
صورة الآخر لدى أبي حيان التوحيدي.....95
صورة الآخر في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ 167
صورة الآخر في ألف ليلة وليلة.....191
المصادر والمراجع.....313
خاتمة الكتاب 319

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم	اختيار	السنة
162	أبو الطيب المتنبي حياته وشعره	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
163	آرائي ومشاعري	أ.عيسى فتوح	أ.عيسى فتوح	2021
164	ومضات (شذور وأمثال)	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
165	الثورة رواية اجتماعية قومية	أ.د. فاروق اسليم	أ.د. فاروق اسليم	2021
166	الصعود المتعثر نحو الأمل	فلك حصرية	د. محمد الحوراني	2021
167	موسم الهجرة إلى الشمال	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
168	المنسيون في التاريخ	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
169	الحضور والغياب في المسرح السوري المعاصر	د. محمد الحوراني	اعداد د. إيمان تونسي محمد إبراهيم العبدالله – صباح الأنباري	2021
170	قصة الأرض	أ. ديب علي حسن	أ. ديب علي حسن	2021
171	زاهد المالح شاعر اللغة المرنيّة	د. نزار بريك هنيدي	د.نزار بريك هنيدي	2021
172	ثقافة الأطفال	فلك حصرية	فلك حصرية	2022
173	مختارات من روائع الثقافة والأدب	جودي العربيد	أ. سهيل الشعار	2022
174	بَقَثاتُ مَصْدورٍ وقصائدُ أخرى	سـراج جـراد	سـراج جـراد	2022
175	كوابيس بيروت	د. ماجدة حمود	د. محمد الحوراني	2022

176	ديوان إيليا أبو ماضي	صبحي سعيد قضيماتي	صبحي سعيد	2022
177	التذوق والجمال في كتابات الأشتر	د. عبد الكريم محمد حسين	د. عبد الكريم محمد حسين	2022
178	الشاعر المتنبي بين الشاعرين حامد حسن ورضا رجب	محمد خالد الخضر	محمد خالد الخضر	2022
179	مختارات من أشعار رسول يونان	حيان محمد الحسن	حيان محمد الحسن	2022
180	ضريبة اللباقة	د.نورا أريسيان	د.نورا أريسيان	2022
181	لغة العرب	ديب علي حسن	ديب علي حسن	2022
182	الباحثُ والمؤرّخ الفُراتيّ عبد القادر عيّاش حياتُهُ وآثاره ويليه كتاب القمر في حياتنا وتراثنا	أ. سراج جَراد	أ. سراج جَراد	2023
183	أخلاق الأدباء أسمار وأحاديث	أ. فلك حصرية	أ. فلك حصرية	2023